أنيس منصور

مذكرات شاب غاضب



دار الشروق

كلمة أولى !

« . . كنت أحاور نفسي طويلاً وكثيراً وعميقاً :

- ثابت الخطوة يمشى ملكا - أم كلثوم تقول .

- ثابت الخطوة ، ولست ملكا ! .

* * *

- من رضى بقليله عاش .

- فإذا لم يرض ؟ ! .

* * *

- الجار قبل الدار .

- وأين هى الدار ؟ .

* * *

- النبى أوصى بسابع جار ؟ .

- كثيرون لا يسمعون كلام النبى ! .

* * *

ـ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . .

ـ ولكن الأرض والعرض يفعلان ! .

* * *

ـ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . .

ـ ولكن السماء نسيتنا منذ وقت طويل ! .

* * *

ـ اللى يمشى عدل يحتار عدوه فيه ، واللى يمشى عوج يحتار حبيبه فيه . .

ـ ولكن لم نعد نعرف الفرق بين العدو والحبيب ؟! .

* * *

ـ من صبر ظفر . .

ـ ظفر بماذا ؟! .

* * *

ـ الصبر مفتاح الفرج . .

ـ ولكن ما حدود الصبر ؟ وما حجم هذا المفتاح ؟! .

* * *

ـ كل الطرق تؤدى إلى روما .

ـ صحيح . ولكن لا طريق يؤدى إلى المستقبل ! .

* * *

ـ الشاب نصف الحاضر وكل المستقبل . .

ـ . . ولكن أى نصف ؟! .

* * *

ـ إكرام الميت : دفنه . .

ـ وبعض الأحياء أيضا ! .

* * *

الزواج للبنت «سترة» . .

ـ فإذا كانت السترة فى حجم ورقة التوت ، فما معنى الزواج ؟! .

ـ الجنة تحت أقدام الأمهات . .

ـ مساكين أبناء المستقبل ، فأمهاتهم بلا أقدام ! .

* * *

ـ أناس يجب أن يقال لهم : من أين لكم هذا ؟ .

ـ وأناس يقال لهم : كثير عليكم هذا ! .

ـ وأناس يقال لهم : قليل عليكم هذا . .

ـ وأناس لا يقال لهم كثير أو قليل عليكم هذا . . فلا يصح أن يكون لكم وجود ! .

* * *

ـ أنا غاضب إذن أنا موجود .

ـ أنا موجود . فلماذا أغضب ؟ .

* * *

ـ هل يكفى أن تكون موجودا على أية صورة ؟ .

ـ نعم . يكفى أن أشعر بوجودى لكى أشعر بوجود الآخرين . . فأغضب على الذين يجدون ولا يريدون ، وعلى الذين يريدون ولا يجدون .

ـ هذا هو الغضب السعيد ؟ .

ـ إنه الغضب من أجل أن أكون سعيدا . .

ـ إذن أنت تجد السعادة فى الغضب ؟ .

ـ بل السعادة بعد أن يتحقق الغرض من الغضب . .

ـ غضب مؤقت ؟ .

ـ كل شىء مؤقت .

ـ حتى هذه العبارة ؟ .

ـ حتى هذا الحوار . .

ـ وما الفائدة ؟ .

ـ يسأل عن الفائدة من لا يعرف أن يفعل أكثر من التلاعب بالحوار .

ـ أنت متطرف . لماذا ؟ .

ـ وأنت لست متطرفا . لماذا ؟ .

ـ أنت تريد أن يصبح عاليها واطيها !.

ـ بل أن يصبح واطيها عاليها !.

ـ أنت تركب الموجة ؟.

ـ الموجة كالبغال والحمير لتركبوها وزينة !.

وككل يوم أفسخ باب الغرفة . . فأنا لا أفتحه . . إنه يتمسك بعضه ببعض كأنه لا يريد أن ينفتح . . كأنه هو الآخر لا يريد لى أن أخرج . وإنما أبقى وراءه . . وراء هذه المقبرة . . لكى أشعر كل يوم بمعجزة الميلاد . . ففى كل ليلة أصلى على نفسى، فقد أموت غدا أو قبل طلوع الفجر . . فإذا صحوت شكرت الله أن أطال فى عمرى يوما آخر . . وأمام الباب ، وبالضبط عند انفتاحه تنهال على حواسى الخمس فيضانات من الإحساسات . . إنها لا تدخل حواسى وإنما تغتصبها . . تقتحمها بالقوة . . كأن حواسى مثل هذا الباب . . لابد من فسخها عند الدخول وعند الخروج أيضا . . وكأن فضيحة . . وكأن عارا كونيا يبدأ من هذه اللحظة . . وكل عناصر الدنيا تتعاون على ستر هذه الفضيحة . . فضيحة أن واحدا مثلى شاهد على العصر الذى نريده ولا يريدنا !.

ولماذا الفلسفة ؟ . . فهذه الفلسفة التى فى رأسى لم تعد قادرة على أن تقدم لى كوبا من الشاى ولا رغيفا ولا نعلا لحذائى ولا كلمة حلوة أقولها لفتاة صادقا : إننى أتمنى أن أتزوجك ولكن كيف ؟ .

مثلا : الحديد يتمدد بالحرارة . أعرف ذلك ولكن ما الفائدة . أعرف فى الليل أننى أنكمش من البرودة . وأتمنى لو أكون قادرا على التمدد . ولكن أين هى الحرارة؟ . .

أعرف أن الخط المستقيم هو أقرب وأسرع طريق إلى نقطتين . . أى أنه أقصر من

الخط الملتوى هذا صحيح فى الهندسة . . ولكن فى الحياة فإن الخط الأعوج هو الذى يصل أسرع ويملأ جيبك أكثر . .

وأعرف أن من « جد وجد » أى أن لكل مجتهد نصيبا . صح . ولكن ما حجم هذا النصيب . . فأنا أذاكر وأتعب . . ولكن الذى يأخذ الدروس الخصوصية ، يحصل على درجات أكبر . . أما الذى يغش فدرجاته أكبر وأكبر . وسوف يسبقنى إلى الشقة الجميلة والعربة الأنيقة . . إذن : من جد وجد قليلا ، ومن غش وجد كثيرا ! .

ثم هذا الشارع الذى أمامى قد امتلأ بالناس والأصوات والروائح . . والوجوه مثل الأرض كالحة شاحبة حزينة . . لقد اعتادوا كل يوم على أن تصفعهم الظروف وتركلهم القيم القديمة ، ويدوسهم أصحاب السيارات الصاخبون اللامعون المدخنون والحشاشون الراشون المرتشون . .

وسمعت صوت المؤذن ينادى للصلاة . . ولكنى لست متوضئا . ولا أعرف إذا دخلت وصليت ما الذى أطلبه من الله ؟ . . أطلب منه ماذا ؟ إنه يعرف . . وموعدى يوم القيامة . . ولكن ما الذى أفعله إذا كنت أريد أن أعيش فى الدنيا ؟ . . وأنه لا صبر لى على انتظار الفرج بعد الموت . . فأنا بشر . . وأفكارى تصدر عن جسمى ، وجسمى له مطالب . وهذه المطالب تصرخ كل يوم وأنشغل عنها . . وأتصنع النوم . . وأصحو وأملأ أذنى بفلسفات كثيرة . .

وبمنتهى الصراحة أنا أعلنت لنفسى : أن فلسفتى قد أفلست . . فالذى أحشر به دماغى هو : فقر الفلسفة ! .

أريد الفلسفة أن تحملنى أن تنقلنى أن تأخذ بيدى ولكنها بلا أطراف أريدها أن تطعمنى ولكنها جافة . أريدها أن تملأنى ولكنها فارغة . . أريدها أن تحيينى ولكنها ميتة . .

إذن . . أبدأ فى طريقى إلى الجامعة فأمشى على قدمى . . حتى المشى فى الشوارع لا أستطيعه . . الحفر والنقر . . والماء يدخل فى حذائى . . ورائحة الشواء والقهوة والشاى فى كل مكان . . ونقرأ أن هذا هو التلوث . . إنه التلوث لمن كل وشبع . لمن يريد هواء نقيا ، ولا يريد الهواء النقى إلا الذى نام دافئا ، وشرب وارتوى ، وأكل وشبع ، وجلس واستراح فى مقعده فى سيارة . . ولما فتح النافذة ضايقته هذه الروائح . .

والناس على محطات الأتوبيس عندهم أمل . . وعندهم فلوس فى جيوبهم تعطيهم الحق فى الأمل . . إذن لابد أن أواصل السير . . ولا أعرف كل يوم كيف ينتهى الطريق ؟ . . هل هو الذى يقصر فجأة ؟ . . هل قوة خفية تنقلنى بسرعة من القلعة إلى شارع محمد على إلى العتبة إلى شارع عدلى إلى ميدان التحرير . . إلى هيلتون عن يمينى وشبرد عن يسارى ؟ . . كيف بهذه السرعة؟ . . إلى الكوبرى الذى يجتاحه الهواء من الجانبين . . هل انسحب الشارع من تحت قدمى ؟ . . آه لو انسحبت الهموم من فوق دماغى . . آه لو كانت الكلاكسات حولى مثل ناى الساحر الهندى ، لا تكاد تسمعه الأفاعى فى قلبى حتى تخرج إلى غير عودة . . أو تخرج روحى ، فقد تعذبت كل يوم برؤية هذه الفضيحة الكونية : أن يولد واحد مثلى حساسا ويتعلم ويتعذب ولا أمل له . . ويتعذب كل يوم دون أن تخف حدة الألم أو وطأة اليأس . .

ما علينا . . ثم هذه البيوت العالية جدا . لابد أن يسكنها أناس مثلى . . جاءوا من الأرض . . من الريف . . وليسوا من سكان الكواكب الأخرى . . والنوافذ لامعة . . والأضواء حالمة . . حتى أشباحهم بيضاء . . وهم لا يمشون إلى بيوتهم . إنهم يركبون . . ولا يمشون إلى شققهم . إنهم يصعدون . . ولا يشمون روائح المطاعم الملونة ، عندهم مطاعم . . وهم

ينسون كيف كانوا مثلنا . . ويضايقهم أن يذكرهم أحد بذلك . . ويسعدهم أن يرددوا ألف مرة كل يوم كلمة «المستقبل» . . شباب المستقبل . . الذين هم ٥٠ ٪ من اليوم و ١٠٠ ٪ غدا . . أى أنهم سوف يجدون تعويضا غدا . . من الذى قال ذلك ؟ وكيف ؟ ولماذا نصدقه . . أنا مثلا . . أنا نصف الحاضر؟ صح . . أنا أمشى فى الشارع والنصف الثانى فى السيارات . . أنا أسكن تابوتا ، والنصف الثانى يسكن بيوتا ، أنا أتفرج وأتصنت على الآخرين ، والنصف الثانى لا يفعل ذلك . .

شعور غريب يتجدد كل يوم عندما أرى قبة الجامعة . . ما هذا الشعور ؟ إنه شعور السفينة اقتربت من الميناء بعد بحر عاصف . . إنه الشعور بوطن يتساوى فيه كل الناس أمام العلم . . فكلنا صغار . ولكن بعضنا صغار جدا . . إحساسنا بأننا متساوون . . أننا متقاربون . . مثلا أستطيع أن أسند ظهرى إلى أية سيارة واقفة . . دون أن يتهمنى أحد بأننى سوف أسرق الطاسات . . ودون أن يقول لى : ابعد أنت يا . .

أستطيع أن أهرش ظهرى فى أية سيارة . . ويشعر صاحبها بالسعادة بأننى أمسحها بملابسى . . أستطيع أن أدخل المكتبة العامة وأجلس وأريح قدمى وساقى وظهرى . . أهم مايميز المكان : أنه دافئ واسع مضىء . . وأن له أبوابا مفتوحة . . وأن نوافذه فى حجم الأبواب . . وأن كل شىء يدخل بإذن . . الهواء يستأذن . . والضوء بالطلب . . والدفء على كيفك . .

ولا شىء يعذبنى إلا عندما يجب أن نعود إلى بيوتنا . . أنا قلت بيوتنا ؟ . أن نعود إلى اللحد ، وهم إلى المهد ـ نحن نموت كل ليلة ، وهم يولدون كل يوم . . نحن نغتصب الحياة ، وهم يفوزون بها . .

وبعد ؟ هل أقتل ؟ حرام ! .

هل أقتل نفسى ؟ حرام !.

هل نصفنا يقتل نصفنا الآخر ؟ كيف ؟!.

بعد أن آمنت بفقر الفلسفة ، لابد أن أمارس فلسفة الفقر . .

أى لابد أن أعرف ما هذا الذى حدث لى ولغيرى . نحن فقراء . لا شك . ولن نسكت على ما نحن عليه . هذا مؤكد . ولكن وحدى لا أستطيع . صح وبالآخرين ومعهم يجب أن نستطيع . فنحن ولدنا فقراء . ولكن الفقر ليس مثل لون البشرة ، ثابت لا يتغير تمام . فكل هؤلاء الأغنياء كانوا مثلنا . ولكن شيئا ما حدث قد جعلهم هناك ، وأبقانا هنا . صح . فما هذا الشىء؟.

من السهل أن أسرق . ومن السهل أن أدخل السجن . من السهل أن أقتل، وليس أسهل من إعدامى . ولكن الحياة هى ا لهدف . والحياة الكريمة هى الأمل . والأسلوب هو العمل . وحدى ؟ طبعا لا . . مع الآخرين ؟ نعم. ولكن كيف إقناع الآخرين ؟.

هذه هى القضية . .

أول مبادئ فلسفة الفقر : الشعور معا بحالنا . وأن نرضى مؤقتا بما نحن فيه . حتى نصبح غير ما نحن فيه .

وثانى المبادئ : أن يكون عندنا إيمان لا يتزعزع بأن آمالنا مشروعة . . وأن تحقيقها هو إرادة الله . فالله عادل كريم . . إذن لابد أن تتحقق العدالة والكرامة . . والله خلق الإنسان ليكون إنسانا ، لا حيوانا . وخلق الحيوان ليكون حيوانا ، لا يعيش كالإنسان كريما رفيعا ، بينما الإنسان يلعق أقدام الكلاب !.

ثالثا : وأن نلتف حول كتاب واحد . الكتاب له جاذبية هائلة . . قوة

ونور. إذا قربت منه فالراحة مطلقة ، وإذا قلبت فيه فالنور غامر . إنه الكتاب الشامل الكامل ـ يجب أن نراه كذلك . فقد جربنا تعدد الكتب واختلاف الاجتهادات . . وضاع الناس بين الأئمة والمجتهدين . إن الكتاب الواحد الذى نقدسه هو الذى يجعلنا نرى وجوهنا فى وجوه الآخرين . . وإذا جلسنا لم نحتج إلى أن نتكلم . فنحن نعرف كل ما فى رءوسنا . . وإذا خرجت أيدينا ، خرجت معا ، دون أن نتفق على شىء ، فإن أيدينا تعرف الهدف . .

هل تعرف أن كل العازفين فى الفرقة الموسيقية أمامهم نوتة موسيقية واحدة . . فإذا جاء المايسترو ورفع عصاه فى الهواء ، فإنهم يعزفون ، على آلات مختلفة ، لحنا واحدا . . وإذا نظرت إلى وجوه العازفين وجدتهم من كل لون وجنس وعمر وطول وعرض . . كل هذه الصفات الظاهرية لا تهم . . الذى يهم هو النوتة التى تدربوا عليها وحفظوها استعدادًا لهذا اليوم .

رابعا : هذا المايسترو . . ليس إلا صورة من شخصية أعظم . . إنه صورة تذكارية . . إنه نائب عن المايسترو الغائب . . الذى جاء بالنوتة الموسيقية ثم أمتعنا بها . . وأسعدنا بها . . ورأينا فيها وفيه خلاصنا مما نحن فيه . . إن النوتة الموسيقية ليست ورقة . . إنها طوق نجاة . . إنها طاقة قدر . . إنها مظلة واقية . . إنها : افتح يا سمسم . . وبعدها جنة المكدودين والتعساء والبائسين . . إنها وثيقة التأمين التى تصرف لنا بعد الموت . . إنها صك الغفران والرحمة . .

لقد جربنا وتعذبنا من تعدد المايسترات من التغييرات التى طرأت على «القبلة» التى نتجه إليها عند الصلاة . . كل يوم إمام ، وكل إمام له شيوخ ، وكل شيخ له طريقة ، وكل طريقة لها أناس ، وكل أناس لهم قبلة . . وكل إمام يفرض عددا من الدعوات . . وتحيرت أجسام الناس أين يوجهونها ،

واقتربت السموات . . وبعدت . . وانحفرت الأرض كهوفا وقبورا . . وجرفنا شعور عنيف بأننا ولدنا لنموت . هذا صحيح . . ولكن لنموت بعد أن نعيش . . ولكن المايسترات أكدوا لنا أن عزف النوتة الموسيقية ليس إلا تسلية قبل الموت . . ليس إلا لحنا جنائزيا يعزفه نصفنا أمام نصفنا الآخر . . فنحن فى جنازات دائمة . .

لابد من الموسيقار الواحد والمايسترو الواحد والنوتة الواحدة . .

هذا هو المضمون السريع لفسلفة الفقر . .

ولابد أن أضيف ، إذا اتسع وقتى ، مبدأ هاما جدا . ولماذا لا يتسع الوقت الآن ؟ . . هناك دائما وقت . من المؤكد ذلك . فالوقت نحن الذى نجعله قصيرا وطويلا . سريعا وبطيئا . كما أننا أحرار فى أن نغضب ونسخط فى أى وقت ، وعلى النحو الذى نريد ، فكذلك فى استطاعتى أن أجعل الوقت خادمى أو سيدى . . أنا قاتله أو هو قاتلى . . الآن وهنا سوف أكتب ما تبقى من فلسفة الفقر . .

ـ يالله . . يا أساتذة . . من هنا يا أساتذة . . عاوزين نمشى . .

إنهم السعاة فى مكتبة الجامعة . حان وقت العودة . . ولا مناقشة . لقد توقف الزمن لا هو قادر على أن يطول أو يقصر . . مات الزمن فى يدى . . نظرت إلى السقف فوجدت حبلاً مكتوبا عليه الأرقام . . إنه الزمن وآمالى مشنوقة فيه . . فى لحظة واحدة . حكم السعاة ونفذوا الحكم ، وحتى تكتمل أطراف هذه الجريمة أطفئت الأنوار حتى لا نرى تفاصيل الإعدام والدفن بعد ذلك . . وأحسست أن المكتبة هى الأخرى مقبرة . . وأن هناك حانوتية وسفاحين فى كل مكان . ولكنهم قتلوا رغبة ، ولم يقتلوا أملا ، شنقوا لحظة ، ولم يعدموا الزمن . .

ونهضت . . والكلام فى أصابعى . ووقفت وراء أحد الدواليب ووضعت الورق أمامى ورحت أكتب وقد أظلمت القاعة تماما :

- بدلا من أن تلعن الظلام اشعل شمعة . .

- بل إننى ألعن الشمعة إذا كانت واحدة ! .

وأغلقت الأبواب والنوافذ والأضواء . . كل شىء أصبح سجينا . . الهواء والكتب . . والهواء كأنه ستائر ثقيلة . والكتب أصبحت أكواما من الورق . . قوالب ورق . . والأفكار سجينة فيها . . ولكن أنا السجين الوحيد الذى يعرف هذه الحقيقة . . والذى يشعر بأن شمعة واحدة لا تكفى لأن أرى حدود السجن وأبوابه ونوافذه . . وأنه لابد أن أفض طلاسم هذه الكتب وأن أستوحى معنى واحدة من الصورة :

أحد الصحابة . . ماركس . . خومينى . . بوذا . . لابد من شموع . . شموس . . ولابد أن تنفتح فى السقف طاقة . . أو فى الجدران . . ولابد أن يكون صوت يدوى . . يخطف العقول والقلوب . . ويكون الخطف منظما موسيقيا موحدا . .

فى مهمة عاجلة !

« . . بسم الله الرحمن الرحيم . .

أومن بقضاء الله وقدره . .

ولا أعرف من أين جئت ؟ ولا أدرى إلى أين أنا ذاهب ؟ . .

ولكن أنا على يقين من أين كانت بدايتى اليوم ، وكل يوم ؟ فأنا أسكن فى غرفة ما فى بيت ما فى القلعة . . ومن القلعة أنظر إلى ما تحت قدمى ، فأجد كل شىء صغيرًا . . وأرى غلالة سوداء بيضاء تعلو فى سماء المدينة . . إنها سحابة سامة تتولد من أنفاس الناس ، ومن أنفاس السيارات والمصانع . . هذه السحابة هى كفن طائر ينتظرنا . . إنه من نسيج الناس الذين هم هناك ليدفن الناس الذى هم هنا . . أنا واحد منهم . .

كل يوم أشعر بأننى قذيفة من الغيظ والمرارة واليأس تنطلق من مدفع . . هذا المدفع من صنع كل الناس فى حارتنا . . وهذ القذيفة تتجه بدقة و إتقان إلى أناس فى الزمالك والمعادى . . وبسرعة تمتلئ هذه القذيفة بغازات مسيلة للدموع . . فعندما أعود إلى حارتنا فإننى أنفجر فى الذين أوفدونى وانتظرونى . . فإذا أنا دموع فى عيونهم وآهات من قلوبهم ، وإذا عيونهم أكثر لمعانا ، وأصابعهم أطول أظافر ، وأفواههم أكثر أنيابًا . . كيف يحدث ذلك

كل يوم ؟ . . هذه هى معجزة المخلوقات . . وهذه هى البداية الشرعية لكل رغبة فى التغيير و التبديل والانقلاب على ما نحن فيه . .

فما الذى يجعلنى كل يوم أنطلق ذهابًا وإيابًا ؟ . . لقد وعدونى بالأمن الغذائى . . أنا وغيرى بأننا يجب أن نشعر بالأمان . . لا جوع ولا موت جوعًا . وكل يوم أذهب . . أنطلق . . أمتحن هؤلاء الناس لأعرف بنفسى إن كانوا عند هذا الوعد . . وكل يوم أتأكد أنهم عند الوعد . . فقط أمام باب الوعد . . ولم يفوا بالوعد . . كل يوم يعدون ، وكل يوم أذهب . . لا هم توقفوا عن الوعد ، ولا أنا مللت اكتشاف هذه الأكذوبة . .

نحن الفقراء أغلبية . . ولكن نصيبنا من الحياة أقل من القليل . . وفرص الحياة لنا ضيقة . إن الفقراء يتخبطون ، كما يتخبط الناس فى الزحام . . الشوارع ضيقة والناس كثيرون . . الأرزاق ضيقة والأفواة كثيرة . . الفقراء فى المدن أكثر . . والفقراء فى الريف أقل . . فأى إنسان فى الريف يمر بأحد الحقول يمد يديه يجد بعض ما يملأ به فمه . . لص ؟ ليس لصا . ولكن الناس مثله يشعرون بأنهم منهوبون . . سرقوهم . . أكلوهم . . شربوهم . . باعوهم . . وهذا الفقير مثلهم تمامًا . . وهذه أرض الله . . وخضروات الله . . وأعشاب الله . . إنه مثل الغربان والفئران . . مخلوقات الله تعيش على مخلوقات الله أيضا . . وإذا خلت الشوارع من الناس ، فإنها مثل الأكف مفتوحة وفارغة . . مثل السماء صافية ليس فيها مطر . .

فقير أنا ؟ نعم . . وابن فقير وأب لفقير أيضًا . ولذلك فعندى شعور بالعجز ، عاجز أن أشترى . عاجز أن أبيع شيئا أشترى به أى شىء . لست كهؤلاء الذين رأيتهم فى الزمالك والمعادى . . كيف وجوه الناس لامعة . . مغسولة . . كيف ابتساماتهم عريضة . . كيف أحذيتهم لامعة . . مع أن

تركيب الإنسان تحت الجلد واحد . الكتب تقول ذلك . ولكن كيف يتحول ماء النيل فى وجوههم نورا وفى وجهى هكذا أصفر باهتا ؟ . . ما هذه الكيمياء؟ . هل هناك كيمياء للفقراء وكيمياء للأغنياء ؟ يبدو ذلك .

هل أنا حاقد على هؤلاء الناس ؟ لا شك فى ذلك . . هل أمد يدى إلى الأرض وألتقط حجرًا وأضرب سيارة أية سيارة . . أحدًا أى أحد . . أريد ذلك . هذا هو المعنى . ولكن ما الهدف ؟ ما الفائدة ؟ وليس لى أصدقاء وهل للفقير أصدقاء ؟ وهل للمريض أصدقاء ؟؟ . إننى مثل شوال فارغ لا يقف، ولكن ينحط . . هل هذا الذى فى قلبى كراهية للناس ؟ نعم . احتقار لهم ؟ نعم . ولنفسى أيضًا فكراهيتى للناس نصف كراهيتى للسلطة التى تعد بالأمن ولا أجده ، وبالأمان ولا أجده . . وبالغد المشرق والمستقبل الوهمى ، والحب . .

إذن فأنا أكره رجال البوليس ورجال القضاء والقانون والمدرس ورجال الدين . إنهم جميعًا قد شربوا من ماء واحد . ولهم هدف واحد . . هذا الهدف هو أن يقطعوا يدى ، مع أننى لم أسرق . . وأن يقطعوا لسانى مع أننى كما ترى أتحدث إلى نفسى . . إنهم جميعًا يريدون أن يقتحمونى . . أن يدخلوا بينى وبين نفسى فنكون اثنين : أحدهما يلعن الآخر أو يقتله . . إنهم يريدون أن ينزعوا فتيلى . . أو ينسفونى حتى لا أعود إلى أهل حارتنا أحكى لهم ماذا رأيت . . فأبكيهم على يومهم وغدهم . . وأملأ قلوبهم بالنار ، ورءوسهم بالشرار . . وأجعل بيوتنا أكثر ضيقا بنا ، وحوارينا أكثر اختناقا . فما الذى فى حارتنا ؟ هدوء القبور ، وفى أرضها مطبات وطين . .

وتنتهى ليلتنا ، كما انتهت قبل ذلك ألوف الليالى : لا فائدة . . لا أمل . .

لقد تدربنا طويلاً على هز الكتفين ومط الشفتين وإخراج اللسان . . وتكوير الطين على شكل كرة وضربها فى الحائط . . تمامًا كما نفعل برءوسنا والمعنى : عيشوا بغيظكم ، وموتوا بغيظكم . . فالغيظ حياة الموت أيضا . .

وفى حارتنا تستطيع أن تكلم نفسك ليسمعك كل الناس . . لا توجد فواصل . . الجدران لها آذان ولها ألسنة أيضا ، فكل الناس مع كل الناس . وكل واحد له لسان هذا اللسان يضرب فى أذن جاره . .

وإذا سمعت صرخة فى الليل . . فى آخر الحارة فنحن نعرف ماذا حدث . ولماذا ؟ . إنه رجل يضرب زوجته . . طبيعى أن يفعل ذلك . فهو قرفان زهقان طهقان ليس فى استطاعته أن يضرب صاحب الدكان الذى يعمل فيه . . وليس فى استطاعته أن يمسك الموسى وبدلا من أن يحلق ذقن الزبون يقطع رقبة صاحب الدكان وكل الزبائن . . إنه أسهل له أن يفش غله فى زوجته . . إنها أغلب من الغلب . . فكل يوم يضربها . . وكل يوم يجدها فى نفس المكان وقد استعدت للضرب . . بل أكثر استعدادًا . . فهى غسلت ملابسها ووجهها وربطت شعرها بشريط أحمر . . إنها تريد أن ترضيه . . أن تغريه وهو يضربها . . لعله قبل أن يضربها يعانقها . . يقبلها . . أو بعد ذلك عندما يضاف إلى وجهها الأبيض شىء من الاحمرار بسبب الضرب . . ويقفز من عينيها بريق جديد . . وقد اعتدنا أن نسمع ذلك كل ليلة . . ونسمع أيضا صرخات مكتومة . . إن رجالاً آخرين يفعلون نفس الشىء مع زوجاتهم وأولادهم . .

. . إنهم فى هذا الحضيض يكرهون أن يتهمهم أحد بالتقليد الأعمى . . إنهم يجدون حريتهم الوحيدة فى تجديد الضرب وتجديد الصرخات . . إننا كما

ترى نحاول أن تكون لنا شخصية مستقلة ولكن ليس عندنا فرص متساوية مع الذين هناك .

وفى الصباح الباكر من كل يوم يتعالى صوت الأطفال يصرخون . . إن أمهاتهم تضربهم قبل الذهاب إلى المدرسة يستعجلون الأطفال . .

إنهم يحملونهم الأمانة . . فالزوج قد ضرب زوجته ، فانتقمت من أولادها . . إن الضرب هو الشعلة التى ينقلها الزوج إلى زوجته إلى أولاده كل يوم . . إن حارتنا مثل عربة كارو لها حصان واقع على الأرض . . كلنا نضربه بالكرباج . . لا الحصان قام ولا الحارة تحركت ولا الكرابيج تقطعت . . ولا نحن مللنا . .

أما هذا الذى أتعثر فيه كل يوم عند صلاة الفجر . . فهو سيدة تبكى . . شابة صغيرة . . هجرها زوجها وهرب ، الأغنياء الذين يهربون من الضرائب . . وقد هرب زوجها ووراءه ملايين اللعنات . . والأطفال حولها تجمعهم وتطردهم . . كل يوم . . ومثلها كثيرات . . فى حاراتنا الرجال يضربون النساء . . ولكن النساء هى التى تعمل وتدير وتدبر وتربى . فنحن هنا أولاد أمهاتنا . أما آباؤنا فلا نعرفهم . ولا نحب . . وقد رضعنا من أمهاتنا : الاستسلام والتواكل والتوكل . . وكراهية أن يكون الواحد منا أبا أو زوجا . . بل أن يكون ابنا لأحد . .

ـ ما هو الغد يا أمى ؟ .

ويكون الصفع على الخد هو الجواب . .

ـ فما المعنى ؟ .

ـ اتلهى على عينك وعين أبوك . . يعنى أبوك كان فلح علشان تفلح أنت؟! .

وفى إحدى المرات سألت : لماذا نتعلم ؟ .

ـ لكى تنفع نفسك .

ـ كيف ؟ .

ـ يعنى عاجبك أبوك . . أخوك . . عاجبك فريد . . حسن . . شعبان . . إنهم «صيَّع » . . أنت تتعلم لكى تطفش من هنا . . إن شاء الله دلوقت . . اهرب وابعث لنا بجوابات تقول فيها إنك وجدت عملا ووجدت بنت الحلال . .

ـ الآن؟ .

ـ هذه اللحـظة . .

ـ وإذا سألك أبى ؟ .

ـ سوف أقول له إن القطار دهسك ونقلوك إلى أحد المستشفيات . . وهو لن يستطيع أن يترك شغله ويبحث عنك ، وأنا لا أستطيع أن أترك اخواتك . .

ـ بس كده ؟ .

ـ طبعا . . أنت فاكر نفسك مين ؟ .

ـ طيب أشوف وشك بخير . .

ـ ربنا ينور لك طريقك ! .

وكل يوم يدور بينى وبين نفسى هذا الحوار . . وأنظر إلى أمى . . ماكينة . . بقرة . . إنها تلد وتلقى أولادها على الأرض . . وترضعهم وتطلقهم دجاجا . . كلابا فى الشارع . . مسكينة إنسانة لا إنسانية فيها . . إن الإنسانية عندنا نوع من الترف . . ما هى الإنسانية ؟ . . هى ألا يكون الإنسان كلبا .

ولكننا كلاب . ألا يكون الإنسان ذبابا . . ولكننا ذباب . . ما هى الرحمة ؟ من الذى يرحم من ؟ وهل رحمنى أحد لكى نرحم أنفسنا؟ ما هو الحب؟ أن يتجاوز الناس ويشعر كل واحد بالدفء . . ولكن من يستطيع أن يتجاور مع إنسان لم يستحم . . مع إنسان كل شعر جسمه شوك . . إننا مثل حيوان القنفذ . . عندنا نوعان من الشوك . . شوك يتجه إلى الناس ويبعدنا عنهم ، وشوك يتجه إلى لحمنا ويكوى بالنار أعصابنا . . ما هى الكراهية ؟ نعم هى أوكسجين الهواء . . هى ملح الطعام . . هى السكر فى الشاى المر الذى لا نجده . . لا السكر هناك ولا الشاى . . ومن الذى يضع السكر فى الشاى ؟ إن وضع السكر فى الشاى ترف . لأن المرارة فى أفواهنا لا يقضى عليها السكر ولو كان فى حجم المقطم والهرم . . وما هى القناعة ؟ معناها أن أرضى بما هو عندى . فأين الذى هو عندى لكى أرضى به ؟ . . إن صاحب هذه العبارة أراد أن يجعلها سلسلة من حديد ساخن حول أعناقنا حتى لا نتحرك . . حتى لا نمد يدا ولا عينا . . وإنما أن نبقى فى داخل السجن عاجزين سعداء بما لدينا . . أو سعداء بأننا أحياء ، حتى لو لم نجد شيئا . . وكل الحكم التى على وزن : الصبر مفتاح الفرج . . من رضى بقليله عاش . . إن هذه الحكم هى أقلام وشلاليت لكل من تحدثه نفسه بأن يطلب القليل ، أو ينظر إلى الكثير الذى يملكه القليلون من الناس ، بينما الأغلبية : ذباب وكلاب ! .

إننى أنظر إلى المرآة الآن فأجدنى أضحك . . ليس فى وجهى ما يبعث على ذلك . . ولا فى نفسى . . ولكنها عبارة قرأتها فى أحد الكتب . إنهم عندما حاكموا أحد قادة الحرب الأمريكان الذى ضربه اليابانيون فى ميناء «بيرل هاربور » ـ أكبر هزيمة للأمريكان دفعتهم إلى استخدام القنبلة الذرية وإنهاء

الحرب ـ هذا القائد صرخ فى المحكمة العسكرية يقول : ومن الذى أتى ببيرل هاربور فى هذا المكان ! .

أى أن كل شىء كان الممكن أن يبقى على ما يرام ، لو لم تكن هذه الميناء فى مكانها . . إنه يلوم القتيل ، ولا يلوم القاتل ، إنه يلقى اللوم على الضحية ، وليس على الذين كانوا سببا فيها . . وكذلك يقال عنا أيضا : ومن الذى أسكن هؤلاء الشبان فى إحدى حوارى القلعة . . ومن الذى بنى القلعة فى هذا المكان . . ومن جعل للقلعة عنقا طويلا تخنقه سحب الدخان الأسود السام كل ليلة . . ثم يحتشد هذا الدخان فى قلوبهم ظلاما وفى ألسنتهم سماً . . إنهم يلومون الضحية ، ولا يلومون القاتل . . تماما كما كان يحدث فى العصور الوسطى عندما يركب صاحب الإقطاع حصانه ويدوس به الفلاحين . . ويدخل الحوافر فى بطون الأطفال والنساء . . وتتلوث حوافر الخيل بالدم . . ويثور صاحب الإقطاع ويجىء الفلاحون يعتذرون له . . ويغسلون حوافر الخيل . . يعتذرون ويلعنون الضحية التى فى عروقها دم ، والتى لها بطون لاتقاوم حوافر الخيل ! .

فى يوم قلت لأمى : عندى حل يا ماما .

ـ حل ؟ أنت عندك حل ؟ .

ـ أيوه . .

ـ قل لى يا ابنى . .

ـ نموت جميعا الآن . .

ـ يا خيبتك . . طالع لابوك . . إنه سوف يفعل ذلك ! .

ـ طيب عندى حل آخر . . نقتل أبويا . .

ـ يخص عليك . . عاوز الناس يقولوا إنك ابـن حرام ـ كترخيرك يا ابنى ! .

ـ إنت تعرفى يعنى إيه حرام يا ماما ؟ .

ـ أيوه أعرف يا بتاع كلية الحقوق . . الحرام هو أنك تسرق وتأكل . . والحلال أنك تأكل بعرق جبينك . .

ـ وهوه فين الأكل ؟ .

ـ البركة فيك أنك . . علمناك . . هات الحلال وغرقنا فيه . . اللى علينا عملناه . . أنت بتعيط يا ابنى ؟ الرجالة تعيط ؟ .

ـ والله ما كان فى نيتى . . دموعى نزلت غصب عنى . .

ـ تفرج يا ابنى . . مسيرها تفرج . . إحنا كنا فين ؟ .

ـ كنا فين ؟! .

يعنى نحن الآن فى أحسن حال ؟! هل من الممكن أن يكون أحد أسوأ مما نحن فيه ؟ . وما معنى كلمة «فيه » هذه . . هل هناك شىء نحن فى داخله . . لا بيت ولا جدران . . ولا حارة . . ولا مكان ولا زمان . . لا يصح أن نستخدم كلمة «فى» هذه . بل كل المصائب فينا نحن ، وليست فى أى شىء . . لأننا لا شىء . . وأمى تريدنى أن أصبر على اللا شىء الذى هو أنا وأنت ونحن . . بينما «هم» كل شىء . . هم فى كل شىء . . لهم كل شىء . وعندهم كل شىء . .

* * *

كل يوم أجدنى . . «فى مهمة عاجلة » إلى الناس الذين هناك . . أروح أتفرج وأتوجع وأرجع أقول وأقول . . أحدث أهل حارتى عن العالم الآخر . .

عن جنة الناس على الأرض . . إننى أشبه الغراب الذى أطلقه سيدنا نوح ليعرف إن كانت هناك أرض بعد الطوفان . . وكل يوم أؤكد لهم أن هناك أرضا وخيرا . . وأن الطوفان هو الذى أغرقنا . . وأن النجاة بعيدة . . أو لا نجاة . . أو كأننا جواسيس موسى عليه السلام الذين بعث بهم إلى أرض الميعاد ـ أرض المعادى والزمالك ـ ثم عاد الجواسيس يقولون له : عندهم عسل ولبن . . وأناس كثيرون أقوى وأكثر وأغنى . . ولكن أهل حارتنا ظلوا فى أماكنهم . . كما ظل موسى عليه السلام ، رأى أرض الميعاد ولم يدخلها . . حتى قال على نفسه : أنا الغريب فى بلاد غريبة .

ونحن الغرباء فى بلادنا . . ولابد أن أقدم أوراق اعتمادى لهم . . لكى أعيش بينهم واحدًا مثلهم . . واحدا منهم . . وأحدهم . . ليس اليوم ولا غدا يا أمى ـ وإنما بعد غد . . وربنا يعطيك طول العمر . . لترى . . يومها لن ترى السحاب الأسود ، سوف تشاركين فى سيمفونية إطلاق ثانى أكسيد الكربون إلى أعلى ليتنفسه الذين سوف نتركهم فوق . . لنعود فننتشلهم . لابد . لا مفر! .

بأمر الله ومشيئة منه تعالى . . » .

وأنا لا أطلب المستحيل !!

« . . من المؤكد أن أمى ساذجة فقد أدهشها كثيرا أن يطلقها أبى بعد ثلاثين عاما من الزواج . . على الحلوة والمرة وراءه فى كل مكان . . والنوم على جانب لا يريح . . والسهر طول الليل . . والقيام والقعود . . والحمل والولادة والرضاعة وغسل الملابس والجرى وراءها فوق الأسطح عندما يكتسحها الهواء . . وبعد كل ذلك تجد نفسها مطلقة . .

مع أنه من الطبيعى أن يحدث ذلك . . فالحياة الزوجية إذا طالت كان من السهل التخلص منها . . فقد زهق الرجل والمرأة . . وقرف الإثنان . . وتحملا من الأخطاء والسخافات ما لا حد له . . ثم إن الأخطاء إذا كانت بلا عدد ، والقرف بلا حدود . . فالصبر له حدود . . والاحتمال له حدود . . وقد احتملت أمى الكثير جدا فى الثلاثين شهرا الأولى من الزواج . . ولكن بعد ثلاثين عاما . . تباعد الإثنان . . حتى لم يعد أحدهما يرى الآخر . . أو إذا رآه وجده ضئيلا تافها لا ضرورة له . . ولا أحدهما يسمع الآخر . . وإذا نطق أحدهما تثاءب الثانى . . وإذا حاول ، ولو مرة ، أن يكون اجتماعيا ، فإنه لا يكمل قصته ولا حكايته . . وقد سمعت أبى يقسم ألف مرة ، وأنا أصدقه ، أنه لم يستطع أن يكمل حكاية واحدة مرة فى حياته . . إلى هذا الدرجة تكون الحياة الزوجية مملة . . ويكون الكلام له شكل الذباب وطعم التراب ، ولذلك

يجب أن تنسد فى وجهه النوافذ والآذن . . والحقيقة أن أمى كانت تفعل ذلك . . فأى كلام يقوله أبى يغريها بأن تفتح الباب أو تقفله أو تنادى على أطفالها . . وأحيانا تفعل ذلك وهى تعلم أنهم جميعا فى المدرسة . . ولكنها تؤدى ذلك هربا وقرفا وضيقا . .

وقد تعلمت من النظر إلى أبى وأمى أن المرأة تظل زوجة حتى تلد طفلا واحدا ، فإذا ولدت فهى أم مائة فى المائة . . فكل طفل يجىء يكون خصما من حياتها الزوجية . . وكلما كبر الطفل كبرت فيها الأم وتضاءلت الزوجة . . والمرأة قد ولدت أما . والطريقة المحتومة لذلك هى أن تتزوج . فالزواج هو الطريق الذى تقدسه الأديان من أجل ميلاد طفل . . والعناكب والعقارب عندما تأكل ذكورها أثناء عمليات التزاوج هو بالضبط ما تفعله كل أم . . بل إن الأم عندها استعداد أن تذبح زوجها طعاما لأولادها . . إنها ليست شريرة . . ولكن هذه غريزتها . فهى أم أولا . . وهى زوجة ثانيا . . وهى تريد أن تكون زوجة لكى تصبح أما . فإذا أصبحت أما ، فهى حريصة على أن تكون أمّا مرة ثانية وثالثة . . والتى تحمل الدكتوراه كالتى تحمل البلاص ـ كلتاهما أم ! .

أمى لا تعرف ذلك . . ولكن أبى كان يعرف . وكان يقول . . ولكن أمى لا تسمع . فقد أعطت أذنيها لموسيقى الطبيعة : بكاء إخوتى الصغار ! .

شىء عجيب أن تكون المرأة زوجة تستخدم كل أساليبها فى الفتنة والإغراء . . بنت الريف مثل بنت المدينة غاوية . . غازية . . بلقيس . . شجرة الدر . . حتشبسوت . كلهن عند الزواج وقبله : غانيات . . من أجل الحمل الصحيح والولادة المريحة . . فإذا ولدت ، أصبح دور الزوج ثانويا تماما . . وحتى إذا مات ، فقد حل محله طفل صغير . . فعدد الناس لا ينقص . . بل إنه من رجل وامرأة يولد أطفال كثيرون . . فالطبيعة لم تنقص

بموت الزوج . . وإنما حياته ساعدت على زيادة النسل . .

وقد تأكدت من أن أمي ساذجة . . فهى تنصحنى كثيرا بأن أفتح لى بيتا . . أى أتزوج ليكون لى بيت مثل بيتنا وأحسن ، ويكون أولادى مثل أولادها . . وبذلك يتجدد الملل والقرف بصورة مختلفة . .

ودون أن تعرف أمي فقد حاولت أنا . . فعلا حاولت . . كان ذلك منذ شهور عندما جلست أنا وزميلتى فى كلية الهندسة نستعرض حياتنا ومستقبلنا . . قلت لها : نحن تعلمنا أن نرسم وأن نخطط . فما هى خطة حياتنا معا ؟! .

قالت : بعد أن أحببتنى وأحبتك لم يبق أمامنا إلا الزواج .

هى التى قالت إننى أحببتها . . وهذا يؤكد لى أن المرأة لا تسمع الواقع ، وإنما تسمع رغباتها . . تسمع غريزتها . . فغريزتها تقول لابد من الأولاد ، وقبل الأولاد الزواج ، وقبل الزواج الحب . فبغير الحب لا يمكن أن تتصور لحظة واحدة أن الحياة بغيرنا نحن الإثنين ممكنة . . إذن فلابد منها هى بالذات . . وأن أكون أنا وحدى أبا لأولادها . . فالحب هو الجوانتى والبالطو فى ليالى الشتاء ، والذى هو المظلة فى أيام الصيف ـ فهو الشعور الذى يجعلنى أحتمل البرد والحر والضيق والقرف والملل ورذالة الزوجة عندما تصبح أما . . وكيف أتفادى أن أرى أمي فى زوجتى ، وأن أرى إخوتى فى أولادى ، وأرانى فى أبى . . ـ لأن الحب وحده هوالذى يجعلنى أنسى . . ويجعلنى أنزع هذه الصور من حائط الذكريات وأعلق صورًا من صنع زوجتى . . هذ الصور تتصدرها هى . . صورها بالألوان . . أما صورى فتكون بلون واحد أول الأمر . . ثم سوداء بعد ذلك . ثم باهتة . . ثم شريط أسود تحتها وفوقها . . أى أننى المرحوم . .

وعندما أمسكت زميلتى الورقة وراحت ترسم الشقة وغرفة النوم وغرفة الطعام . . وتضع الدواليب وتصنف الكتب . . وتضع إلى جوارها سرير المولود ثم هى ترسم شقة أكبر ، فقد كبر الأطفال وزاد عددهم . . ثم ترسم شقة أخرى فيها غرفة لكل طفل . . ونتراجع أنا وهى حتى يكون لنا ركن فى البيت . . البيت الذى لها ولأولادها ـ إننى لا أقول : أولادى . فالأولاد لها من أول لحظة . . و كنت أرى أبى عندما يتحدث عن متاعب الأولاد يقول لأمى : أولادك . . وعندما يتحدث عن نجاح بعض الأولاد يقول : أولادى ! .

ولاحظت أن «هـ» عندما تتحدث عن سرير الطفل تقول : ابنى إلى جوارى . .

وعندما يكبر الطفل ويحتاج إلى غرفة أكبر تقول : وأين أضع ابنك ؟ .

وأحسست أن فـى قلبى فرنًا مشتعلا . . وأخرجت مـن رأسى سكـينا وأغمدته فـى قلبى ليكون حـادا ساخنا ثم سددته إلى قلب «هـ» . . قـائلا :

ـ كيف قفزت إلى هذه النتيجة ؟ .

قالت : أية نتيجة ؟ .

قلت : أن نتزوج ؟ .

قالت : ألم نتفق ؟ .

قلت : لم يحدث . . لا أنا قلت . . ولا أنت . . ولكن أنت بحكم الدراسة إذا وجدت ورقة وقلما رسمت شقة . . وتعجبك الشقة عادة فتجعلينها لنفسك . . لا وحدك . . ولكن مع الرجل الذى تحبين . . وتصادف أننى أجلس أمامك . . فمددت يدك ووجدتنى إلى جوارك فى غرفة النوم . . هذا هو كل ما حدث ؟ .

قالت : يعنى إيه ؟ .

قلت : يعنى الذى قلت لك والذى سمعت بوضوح شديد يا أمى ! .

قالت : أمك ؟ .

قلت : كأنك هى فى هذه اللحظة . . إنها حكاية طويلة ! .

قالت : أصغر منك بخمس سنين وترانى أمك ؟! .

قلت : بسنة ونصف ! .

قالت : افرض . هل هذا يجعلنى أمك . . أو يجعلك أبى ؟ . .

قلت : هل تتصورين أن واحدا مثلى عاش كما عشت ورأى ما رأيت وتعذب كما تعذبت . من الممكن أن يكون زوجا وأبدا ؟! .

قالت : إذن فأنت ضحكت على . .

قلت : أنا ؟ ما الذى وعدتك به . . أنا قلت لك أننى أحببتك ؟ أبدا . . أنا قلت لابد أن نتزوج ؟ أبدًا . .

قالت : ما معنى خروجنا معا . . والكلام عن الشقق ومشاكل المدارس وانحطاط المستوى الأخلاقى . . أليس هذا انشغالا بما يجب أن نفعله عندما نتزوج ويكون لنا أولاد . .

قلت : تعالى نتكلم عن الأرز والقطن والعمالة المدربة والهجرة والبترول والمجارى ومرض الأيدز . هل لو فعلت ذلك يكون المقصود هو أن تتفادى أسرتنا الصغيرة كل هذه المتاعب . . إنها قضايا عامة تشغل كل الناس . . ونحن بعض الناس الخ . .

* * *

إنهالم تضف لى شيئا جديدا عما كنت أعرفه عن المرأة . . صغيرة أو كبيرة . . بنت ناس أو بنت نسانيس . . تسكن فى حارتنا أو فى شارع العروبة أو شارع التحرير أو الحرية . . هى هى . . وأحسست أن المرأة عقلها فى حجم السمسمة إذا تحدثت معها عن أى شىء آخر إلا الحب والزواج والأولاد . . ولا لوم عليها فهى قد خلقت لذلك . . وتدربت على ذلك وتحلم به وتعيش من أجله وتموت أيضا . . وتقتل وتذبح وتخون وتبكى وتحب وتبكى وتتزوج وتكون أمّا ألف مرة . . ولا تكون زوجة إلا مرة واحدة ـ قبل أن يولد أول طفل ! .

قلت لها : فى رأيك سيكون طلاق بيننا بعد كم سنة ؟ .

قالت : تفكر فى الطلاق قبل أن تقرر الزواج .

قلت : تماما كما تفكرين فى سرير المولود . . وغرف الأولاد . . قبل أن نتزوج !هناك نوعان من النساء : أم وغانية . . وكذلك نوعان من الرجال : أزواج ومطلقون . . كما أن النساء يولدن أمهات ، فهناك نساء يولدن غانيات . . والرجال نوعان : آباء وعشاق . . صديقنى أننى فوجئت بأننى ابن . . ولو كان الأمر بيدى ما كنت ولدا لأحد ، حتى لا أكون أبا لأحد ! .

قالت : تقصد زوجا لأحد ؟ .

قلت بالضبط . .

قالت : إذن ؟ .

قلت : طلقينى . . وأنا أطلقك ! .

قالت : لم أكن أتصور أنك هازل فى مواقف الجد . .

قلت : بل هذا هو منتهى الجد ! .

ولم تفهم . ولم أقنعها . لأننى لم أحاول . . ولا يصح أن أحاول . . كيف أحاول إقناع امرأة ألا تكون أمًا . . كيف أطلب الطلاق منها ولم نتزوج . . ولكن المرأة تولد زوجة لتكون أمًا بعد ذلك ـ والرجل لا يولد لا زوجا ولا أبا ـ وإنما يصير زوجا ويجد نفسه أبا ! .

وفى الصباح الباكر ذهبت إلى المسجد لكى أصلى الفجر . . الدنيا برد . . والطريق نظيف مثل يد شحاذ غسلها حتى لا يقرف منها كل من يعطيه الحسنة . . ولم أشأ أن أجعل مقعدى وراء خطيب المسجد . . وإنما جلست فى آخر المسجد بالقرب من الباب ، فقد أردت أن أسند ظهرى للحائط وأفكر وأتأمل . . ما الذى أطلبه من الله عند كل صلاة . . إننى أطلب منه العفو فى الآخرة . . والجنة بعد ذلك ! كأننى فى نهاية الحياة ، ولم يبق إلا أن أدعو الله أن يجعل نهايتى على خير . . ولكنى لم أبدأ حياتى بعد . . ومع ذلك لم أطلب من الله شيئا لحياتى . . فقط أطلب «الستر » ؟! ولم أناقش فيمابينى وبين نفسى ، ولا فيما بينى وبين أحد معنى الستر . . فهل الستر معناه الغطاء عند النوم ، فلا أتعرى . . والغطاء عند السير فلا يكون حذائى ممزقا وملابسى أيضا . . والستر عند ركوب الأتوبيس فلا يسرق أحد منى ثمن التذكرة . . والستر عند الامتحان فلا أرسب . . والستر بعد التخرج فلا أظل عاطلا طويلا . . والستر عند الزواج ـ إن تزوجت . .

هذا هو الستر ؟ .

ولكنى مستور الآن . . فلا أحد يعرف ماذا نأكل . . مع أن الذى نأكله فضيحة . . إنه ستر فقط لمن لا يعرفه . . ولكن عندما تمد أيدينا إلى أطباق لا يتغير لونها ، فهذه هى الفضيحة . . ماذا تقول لمن يغمسون الخبز فى ماء وملح ؟! هل هذا هو الستر أيضا ؟ إذا تشاجرت أمى ـ كانت تتشاجر مع أبى ـ

فإنهما يخفضان الصوت حتى لا يسمعنا أحد . . ولم يسمعنا أحد . . فهذه هى الخناقة المستورة . . والفضيحة المكتومة . . وعندما أضع جوربى فى حذائى ، فإننى أجعل الثقوب تحت أصابعى ، وتجىء الجزمة تغطى الجورب والثقوب معا ـ هذا هو الستر ! . فما أتفه الستر ، وما أتفه الذى نطلبه من الله . . وإذا ذهبت بالأتوبيس إلى الجامعة . . نزلت قبلها بمحطة . . لكى أمشى على قدمى ، لكى أوهم زملائى أننى أسكن فى المناطق الأنيقة القريبة من الجامعة . . ولم يكتشف أحد الحقيقة ـ هذا ـ إذن ـ هو الستر ؟! .

هل تعرف الرجل «الرفاعى » . . إنه شخص معروف فى الريف . إنه رجل يمد يده إلى جحور الثعابين ويمسكها . ويخرجها . وتلتف حول ذراعه ولا تلدغه . . وإذا لدغته فإنها لا تقتله . . هذا الرفاعى قد أخذ عهدا على شيخ الرفاعية . . ثم جاء الشيخ وبصق فى فمه . . وكانت هذه البصقة هى سبب المناعة التى عنده ضد سم الثعابين . .

ونحن أيضا . . «رفاعية ». . نمسك ثعابين الجوع والعطش والبرد واليأس والقرف والضيق بالناس . . كل الناس . . دون أن يصيبنا شىء من ذلك . . فقد بصق الزمان فى أفواهنا وعيوننا وآذاننا وفتح أدمغتنا وحطم قلوبنا وبصق فيها . . بل إننا بصقات الزمان . . لا أحد يضرنا ولا نحن قادرون على الإضرار بأحد . . ولا نحن ننفع أحدا . نحن هامش على هامش الحياة نفسها . . نحن «كمالة» عدد . . ولماذا لا يصدقنا أحد . . لماذا لا تصدقنى «هـ . . » عندما أقول لها : وحياتك . . أنا ولا حاجة . . أنا لا شىء . . ولدت وسوف أموت هكذا . . بينما أنت شىء وتمنيت أن تكونى أشياء . .

نصيحة ـ قلت لها : إذا أنجبت ولدا فأعطه اسمى . . ثم اضربيه على قفاه

كل يوم . . ولكنك لن تفعلى ذلك مع ابنك . . إذن فلو كان عندك خادم فغيرى اسمه واضربيه . . ولكن لا أحد هذه الأيام يستطيع أن يضرب خادما . . إذن فلو كان عندك قط . . لو كانت عندك ممسحة أمام باب الشقة فاكتبى اسمى عليها . . والباقى أنت تعرفينه وأنا أعرفه . .

تقول هى : لماذا كل هذا ! .

قلت : لكل الذى قلت لك . .

تسألنى : وهل تظن أننى سأفعل ذلك ؟ .

قلت : طبعا . .

قالت : معك حق . . كان من المستحيل أن تحبنى أو تتزوجنى ما دام هذا رأيك . . إننى أحترم صدقك معى ومع نفسك ! .

قلت : آه لو كان الحب يحل لى مشكلة واحدة . . آه لو كان الزواج يحل مشاكل الحب . . آه لو كان فى استطاعتك أن تكونى العاشقة الزوجة الأم . .

قالت : هذا مستحيل !! .

قلت : فأنا لا أطلب المستحيل . . » .

صار فقيرا ؟ . . هل لأنه فقير أصبح مؤمنا ؟ . . هل لأننا وراءه نقف مفتوحى الأفواه والأيدى صار متعبا ؟ . .

هل أنا مؤمن ؟ نعم . . هل أنا صابر على هذا الذى أراه ولا أفهمه، والذى أفهمه ولا أحبه ؟ .

تمنيت فى يوم من الأيام أن يكف أبى عن الصلاة والدعاء ، وأن يستدرجنا إلى النيل ويغرقنا جميعا . . ويدهشنى أنه لا يفعل ذلك . . فى يوم من الأيام دار هذا الحديث بينى وبين والدى . . قلت له : على أن شىء نشكر الله ؟ .

ولا أعرف كيف أصف لك وجهه . . ولا أين ذهبت الألوان والأضواء . . ولا كيف توارى الصفاء وظهر القلق والغضب . . ثم كيف استطاع أن يمسك ذلك كله . . وقد تحول كل شىء فى عينيه وشفتيه وأصابع يديه إلى أنياب وأظافر ثم قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . . يجب أن نشكر الله الذى أعطانى الصبر . . فأسمع ولدا من أولادى يكفر بالله . ثم لا أقتله بعد ذلك طمعا فى الجنة . .

قلت : أستغفر الله يا أبى . . ولكنى أريد أن أسالك حقا . . ألم تر الذى أعطاه الله للناس فى أماكن أخرى فى حارتنا وفى الأحياء الجميلة فى مصر . . وفى المدن الأجمل والأروع فى أوروبا وأمريكا ؟ . .

قال أبى : لا تكمل يا ولدى . . لا أعرف ما الذى أقوله لك . . أنت الآن يا ولدى على باب الدنيا . . فى استطاعتك أن تدخل من الباب . . وفى استطاعتك أن تتسلق الأسوار . . وفى استطاعتك أن تعمل ليكون لك بيت أجمل وقصر أعظم ومستقبل أروع ؟ الأمر لله . . والله قد أعطاك العقل والإرادة والصحة والأمل . . أما أنا أعطيتك أقصى ما أستطيع . . حرمت نفسى

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة .

فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن

فبمن يلوذ ويستجير المجرم ؟

أدعوك رب كما أمرت تضرعا

فإن رددت يدى فمن ذا يرحم ؟

مالى إليك وسيلة إلا الرجا

وجميل عفوك ، ثم إنى مسلم

لابد أن هذه الأبيات الصوفية الجميلة هى التى أعجبت والدى . . ولا يمكن أن تنطبق كلها عليه . . وإلا فما هى هذه الذنوب العظيمة التى ارتكبها أبى ويريد من الله الرحمة . . ويشهدنا نحن جميعا على ذلك ؟ . . إنى أرى والدى بلا ذنوب . . لا ذنب له فى أن يكون زوجا وأبا لعدد كثير من الأطفال . . وأن يكون ضيق الرزق محدود الضحك نادر الابتسام . . منعدم الصحة والعافية . . فإن لم تكن هذه هى جهنم فماذا عساها أن تكون هذه الحياة؟ . . إننى أنظر إلى والدى فى الفجر وهو يصلى ويبكى . . فلا انفرجت حالتنا ، ولا دموعه جفت . . ولا انفتحت السماء وأسقطت بعض ما فيها من ذهب وفضة . ولا تراجعت جدران البيت فاتسعت الحجرة والصالة وارتفع السقف . . ولا ارتفعت الأرض فأصبحت مصطبة وسريرا . . إننى أنظر إلى والدى من تحت الغطاء فأجد أصابعه تضىء . . وأجد شعاعا من النور يخترق السقف ويهبط على جبين أبى . . وعندما يفرغ من الصلاة أرى الصفاء والرواء فى وجهه . . كل ذلك يلقاه رجل مؤمن مخلص متعب فقير . . هل لأنه مؤمن

صار فقيرا ؟ . . هل لأنه فقير أصبح مؤمنا ؟ . . هل لأننا وراءه نقف مفتوحى الأفواه والأيدى صار متعبا ؟ . .

هل أنا مؤمن ؟ نعم . . هل أنا صابر على هذا الذى أراه ولا أفهمه ، والذى أفهمه ولا أحبه ؟ .

تمنيت فى يوم من الأيام أن يكف أبى عن الصلاة والدعاء ، وأن يستدرجنا إلى النيل ويغرقنا جميعا . . ويدهشنى أنه لا يفعل ذلك . . فى يوم من الأيام دار هذا الحديث بينى وبين والدى . . قلت له : على أن شىء نشكر الله ؟ .

ولا أعرف كيف أصف لك وجهه . . ولا أين ذهبت الألوان والأضواء . . ولا كيف توارى الصفاء وظهر القلق والغضب . . ثم كيف استطاع أن يمسك ذلك كله . . وقد تحول كل شىء فى عينيه وشفتيه وأصابع يديه إلى أنياب وأظافر ثم قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . . يجب أن نشكر الله الذى أعطانى الصبر . . فأسمع ولدا من أولادى يكفر بالله . ثم لا أقتله بعد ذلك طمعا فى الجنة . .

قلت : أستغفر الله يا أبى . . ولكننى أريد أن أسالك حقا . . ألم تر الذى أعطاه الله للناس فى أماكن أخرى فى حارتنا وفى الأحياء الجميلة فى مصر . . وفى المدن الأجمل والأروع فى أوروبا وأمريكا ؟ . .

قال أبى : لا تكمل يا ولدى . . لا أعرف ما الذى أقوله لك . . أنت الآن يا ولدى على باب الدنيا . . فى استطاعتك أن تدخل من الباب . . وفى استطاعتك أن تتسلق الأسوار . . وفى استطاعتك أن تعمل ليكون لك بيت أجمل وقصر أعظم ومستقبل أروع ؟ الأمر لله . . والله قد أعطاك العقل والإرادة والصحة والأمل . . أما أنا أعطيتك أقصى ما أستطيع . . حرمت نفسى

وأعطيت ، عذبت نفسى لكى أريح ، قهرت نفسى لكى أنتصر بك وبإخوتك . . فإن خذلتنى فلله ما قدمت وما قررت ودبرت ، والعوض فى وجه الله . . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فى ذلك اليوم وجدت أبى يغير المسمار الذى أمسك اللافتة التى عليها هذه الأبيات الجميلة . . وفى تلك اللحظة أحسست بأننى أيضا يجب أن أطلب المغفرة من الله . . فقد أذنبت عندما سألت، وقد كفرت بنعمة الله عندما نسيت .

ومن يومها لم أعد أسأل أبى . . إيمانا بأنه أطيب الناس وأصدقهم قولا وأعمقهم إيمانا وأجملهم صبرا . . وكلما رأيته وقفت له . . ولم أكن أفعل ذلك . . وإذا وقفت انكفأت على يده أقبلها وجها لبطن . . كأنى أطلب مغفرته . . أو أطلب إليه أن يدعو الله فيغفر لى . . وكأننى لم أجد دعاء والدى كافيا . . ثم جعلت أقبل يدى أمى . . أول الأمر اندهشت ، ثم أسعدها أن تعتاد على ذلك . . بينما تضايق إخوتى منى ، فلم يكن أحد يفعل ذلك . . ولا يرى له سببا وجيها .

وكانوا يتغامزون ويقولون : يا ترى ما الذى يريد منها ؟ . . وماذا أخذ سرا؟ هذا المنافق الكذاب الذى لا يصلى بانتظام والذى لا يصوم ولا يذهب إلى المسجد إلا يوم الجمعة ويومين آخرين من كل أسبوع . . لقد أكل عقل الأب المسكين والأم المريضة !

وفى يوم أيقظنى والدى وهو يقول : هذا أفضل يا ولدى . . فتح الله عليك ! .

وكان والدى يشير إلى لافتة من ورق قد علقتها أنا إلى جوار اللافتة القديمة وعليها هذا البيت .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقى صوله المستأسد الضارى !

ولما استوضحت والدى ، بعد أن نهضت وقبلت يديه ، أشار إلى اللافتة الجديدة . . ثم أشار بأن أعود إلى النوم . وعدت .

* * *

هل أنا صادق فى انضمامى إلى هذه الجماعة ؟ إننى أجد بين هؤلاء الزملاء نوعا من القوة . . ولا أعرف ما الذى أفعله بهذه القوة . . إننى أشبه واحدا أمطرت عليه السماء فوجد بابا مفتوحا فدخل . . ووجد شبابا فى مثل سنة وهمه وغمه فصافح وعانق وجلس وتحدث وأكل وشرب . . أما الشعور المؤكد فهو الدفء . . أما الطريق إلى البيت بعد ذلك . . وأما البيت وأما الأسرة وأما المستقبل فكلها جميعا كما تركها فى الصباح وبالأمس . . الشارع كالبيت بارد . والبيت كالمستقبل مظلم ، والمستقبل كالحاضر كالماضى لا شىء ، ومع ذلك أجدا واحدا مثل أبى يطلب من الله أن يغفر ذنوبه . . أى ذنوب يا أبى ؟ . . ألا يكون وجودك هو الذنب ؟ . . هذا جناه أبوك عليك ، وأنت جنيت علينا . . وتريد يا أبى أن يغفر الله ذنبك وذنب أبيك ثم تطلب لنفسك المغفرة؟ ! .

وجاء دورى فى أن ألقى «موعظة » الخميس . . فالذى أسمه من الإخوان ليس إلا نوعا من الوعظ والإرشاد . . إنهم ينصحوننا أن نحترس من مرض «الايدز» . . وهم يعلمون أنه لا سبيل إلى ذلك . . كيف ننصح أنفسنا بالوقاية من هذا المرض ونحن على يقين جميعا من أننا لا نرتكب معصية . . وكل الخطب تدعو إلى مثل ذلك . . فواحد قد طلب إلينا أن نجعل المعدة : ثلثها للماء وثلثها للطعام وثلثها للهواء . . وألا نسرف لأن المعدة بيت الداء . . وأن

الجوع صحة والصوم عافية . . ثم واحد يحدثنا عن مضار الخمر بالصحة . . ومع أن أحدا لا يشرب أو يفكر فى ذلك . .

ولم أقل لأحد : امتنع عن الطعام أو عن الخمر أو ابتعد عن ا لنساء. . وإنما قلت : أيها الإخوان إما أن نعيش زماننا ، وإما أننا موتى . . فإن كنا موتى فما هذا الذى نقول ؟ . . فلا يعرف الغضب من كان ميتا ، ولا يعرف اليأس من كان حيا . . وأنتم أحيانا تتحدثون عن عذاب القبر ، مع أننا لم نعش حتى نفكر فى الموت . . وأنتم أحيانا تتباهون بأنكم تنامون قليلا وتسهرون كثيرا عملا بقوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع» . . يا إخوانى ليس هذا هو الطريق الذى يحقق آمالنا ، وآمال الناس معنا ـ إن كان هناك أمل عند أحد منا أو أحد منهم . . فإن كنا أحياء حقا ـ ونحن أحياء فعلا ـ فليس هذه هى الحياة التى يجب أن نقبلها . . ولا هذا هو الأسلوب الذى نرفض به هذه الحياة التى تستدرجنا دائما إلى الكلام عن الطريق إلى القبر وعذاب القبر وعذاب جهنم . .

قال شاب صغير فى حماسة جنونية : اجلس يا كافر !

قلت : كيف يكفر من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ؟! .

قال : أنا آسف . . وأستغفر الله لى ولك . .

وسألنى أبى : ما الذى يشغلك يا ولدى ؟ .

قلت : هذا الذى بينك وبين أمى . .

قال : أنت صغير يا ولدى .

قلت : لست صغيرا لدرجة ألا أقدر على فهم ما يمكن أن تقول .

قال : لم أجد حلا إلا الطلاق . . ولكنى هناك دائما . . فقط قررت أن أظل بعقلى وقلبى وجسدى بعيدا عنكم . . يا والدى إن لم أفعل ذلك فسوف أسقط ميتا . . وليس بعد موتى إلا الجوع لكم والتسول لأمكم . . وأنت تعرف إخوتها ، ما أقساهم . . وتعرف أختها ما أبشعها . . ولو أقمت وحدى لجاءت أمك وأطفالها . . فكأننى لم أفعل شيئا . ولذلك كان لابد أن أقيم حقلا من ألغام الحرام بيننا . . هذا كل ما هنالك . والله أحل الطلاق كما أحل الزواج يا ولدى . .

قلت : ولكن أمى لا تفهم .

قال : هذا واجبك . . إننى لست سعيدا . . والفرق بين الزواج والطلاق : أننى أنام الآن ساعتين أطول . . ساعة فى أول الليل وساعة عند عودتى من العمل . . ثم إننى أتعذب بعيدا عنكم . . يكفى أننى لا أعرف ما الذى تفعله فى هذه الجماعة التى تغير ملامح وجهك كل يوم . . والتى تجعل حديثك جافا، وتجعلك أكثر مرارة وحقدا . . ثم إنها لا تقدم لك ما يريح نفسك ويريح الناس حولك . . ولا أعرف ما الذى تفعلونه من أجل أنفسكم وبلادكم ودينكم . . إن كان الغضب والصراخ هو الذى تتزودون به كل يوم، فليس أسهل من ذلك . . إننى أستطيع أن أقفل الباب على أصبعك لتصرخ اليوم والأيام التالية . . ولكن ما المعنى ؟ . . ما الهدف؟ . . ما فائدة ذلك لك ولمستقبلك ؟ ـ هذا هو السؤال يا ولدى ! وأنت تعرف أن الذئاب تهاجم من لا كلاب له . . أما الذى يخيف الذئاب فهو : العلم والقوة والإيمان والإرادة والصدق والتضحية . فأين أنت وأنتم من كل هذا ؟ .

ولم أجد ما أقوله . وسكتنا . . هو ينظر إلى السقف وأنا أنظر إلى الأرض . وبعد لحظات رفعت رأسى وأنزل رأسه والتقينا فى نظرة متبادلة . . نظرته :

الإيمان العميق والصدق الناصع . . ونظرتى : هى الحيرة والقلق واليأس . . فقلت له : إننا ننتظر .

قال تنتظرون من ؟

قلت : من يأخذ بيدنا . . لابد أن يكون هناك أحد . . لابد أن يظهر . . أن يجىء . . ونقف وراءه طابورا . . أو نقف أمامه أوركسترا . .

قال : من هذا الذى يجىء ؟ . . تنتظرون واحدًا من الكواكب الأخرى؟ . . واحدا تنشق عنه الأرض ؟ . . إن جاء أى أحد فلابد أن يكون أنت أو غيرك . . لابد أن يكون من بينكم . . من نوعكم . . لابد أن يتقدم بكم وعليكم . . لابد أن تفرزوه كما يفرز اللبن القشدة . . كما ينشق الضوء عن الشمس . . وكما تتولد الكهرباء من اندفاع الماء . . منكم . . من هذه الجماعة . . من هذه الحارة . . من هذه المدينة . . من مصر . . من المسلمين . . إلا إذا كان من رأيكم أنه سوف ينزل من السماء ؟ وأنه لكى يمشى بين الناس فلابد أن يركب حمارا . . وهذا الحمار هو أنت وزملاؤك . . إذن فأنتم تلتقون كل يوم فى زريبة تتبادلون فيها أجمل الكلام ، بينما أنتم أسوأ المخلوقات . . أناس كرمهم الله ، فقرروا أن تكون لهم أنكر الأصوات . . «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» صدق الله العظيم . .

فياضيعة العقل والدين !! .

وعندما أحنيت رأسى أنظر إلى الأرض أحسست أن الأرض ليست إلا كوما من البرسيم . . ولما تلمست المقعد الذى أجلس عليه شعرت بضيق كأننى جلست فوق ذيلى . . وضايقنى هذاالعنف الذى اتخذه أبى . . كأنه أحس أننى ذلك الحيوان وأن زملائى كذلك . . فجعل كلماته على شكل كرابيج

وانهال بها على ظهرى . . ولما لم يكن هناك أحد من زملائى الأربعين ، فقد أعطانى مايستحقه الجميع . . فأنا الواحد الذى ناب عن جميع الحمير .

فقلت : فما الذى نفعل يا أبى إذا كنا عاجزين . . فلا نحن قادرون على رفع الظلم أو إقامة العدل ، أو تحقيق المساواة بين الناس أو نشر الرحمة . . ثم إننا عاجزون عن السكوت أيضا . .

فقال : وأين ذهب حديث الرسول عليه السلام : من رأى منكم منكرا فليقومه بيده أو بلسانه أو بقلبه وهذا أضعف الإيمان ؟ . . فهل ليس لديكم أضعف الإيمان ؟ .

قلت : بل هذا هو الذى نملك منه الكثير . .

قال : وهل أضعف الإيمان أن تقولوا لأنفكسم ما تعرفون ؟ . . إنما أن تقولوه للناس فى كل مكان . . أن يكون هناك رأى عام من صنعكم . . فهذا هو أضعف الإيمان . . يا ناقصى العقل والدين ! .

* * *

ومن ذلك اليوم وأنا لم أعد أجد فى نفسى الشجاعة على أن أتحدث إلى زملائى . . فأنا أضعف كثيرا من أبى . . فهو بركان ساكن . . ويكفى أن تجلس على مقربة منه وتعطيه أذنك لتسمع الغليان والدخان واللهب . . ولترى الحمم .

وكلما نقلت إلى زملائى ما سمعت من أبى تلفتوا بعضهم إلى بعض وتهامسوا . . فأحس كأننى لست واحدا منهم . . أو كأننى منشق عليهم . . وأنهم لذلك يعرفون مالا أعرف ، وأننى يجب ألا أعرف ما يعرفون ، ويقولون فى كورال غنائى : ليس الآن ! .

أى أنهم يعرفون كل الذى قاله أبى . ولكن يرون أن الوقت لم يحن بعد . . أى أنهم فى حالة ضعف وعجز . . وأنهم أرادوا ذلك . . ولم يأت الوقت المناسب لينكشف الغطاء عن البراكين والزلازل . . وأنهم أوركسترا قد حفظ النوتة الموسيقية . . فإذا ظهر المايسترو المنتظر ، عزفوا لحنا ناريا واحدا . .

سألت : فى هذا الجيل ؟.

وفى «كورال » واحد قالوا : طبعا !.

* * *

ولما قلت لأمى : أريد أن أعيش مع والدى فهو مريض وفى حاجة إلى وجودى معه .

قالت وهى تبكى : طول عمرى وأنا أقول إنك ابنه ولست ابنى .

وأقول لها : يا أمى أنت لا تعرفين . .

وتقول : أنت وحدك الذى تعرف . . وهل أنا تعلمت فى الجامعة ؟. . ومن أين يجىء البخت إذا كان لا بخت لى مع أولادى ! . . وأنت الذى كنت أدخره للزمن . وأنت العقل والحنان . . حتى أنت . . الله يسامحه أبوك . . افعل ما بدا لك يا ولدى .

وأقول وأمسح يديها فى وجهى : ولكنك يا أمى لا تفهمين . .

* * *

وقررت أن أكون الكلب الذى يحمى إخوتى من الذئاب . ولكن لن أكون واحدا من الحمير التى تنتظر عودة المهدى المنتظر . . فهناك ألف طريقة أخرى لفتح الأبواب والنوافذ فى جدران المستقبل بلا دم ولا عنف ولا حقد ـ والله أعلم . . ».

نهاية كل نكتة بايخة

« . . قالوها فى الأمثال :

أعزب : سيد الناس

متزوج : ككل الناس :

مطلق : أتعس الناس » . .

ولكننى قررت أن أتزوج . . ولا شىء يدل على أننى إنسان مستقيم إلا هذه الرغبة القوية فى أن أكون ككل الناس . . وقد لاحظت أننى كأعزب لست سيد الناس . . بل إننى دون الناس . . فأنا وحدى طول الوقت لا أجد أحدا أكلمه . وإذا كلمته ففى السياسة والاقتصاد والدين . . الكلام كله من لون وطعم ورائحة واحدة . . كله يبعث على القرف واليأس . . وإذا كانت هذه هى حال العزاب فكيف يكون حال المتزوجين ؟ . . لابد أن نقتسم الهم والغم معا . . أو نضاعف كل ذلك . . ونرتبه وننظمه ثم نلقى بعضه فى الزبالة ، والباقى أجعله عُقدا يلتف حول رقبة المحبوبة . . أنا قلت محبوبة ؟ وهل مثلى يستطع أن يحب ؟ . أتمنى أن أحب ولكن . . ما الذى أقوله لمن أحبها ؟ أقول لها : أحبك . .

فإذا قالت لى : كيف تحبنى وأنت لا تعرفنى إلا منذ لحظات ؟ .

فسأقول لها : إنه الحب من أول نظرة . .

وتقول لى : وأنت تصدق ذلك ؟ . . من أول نظرة ؟ ما الذى رأيته من أول نظرة ، ثم قررت أن تحبنى ؟ . . رأيت وجهى ؟ وهل الوجه يدل على أننى أبادلك الحب ؟ كيف ؟ هل الحب قرار من طرف واحد . . ويكون القرار للرجل لأنه أشجع وأجرأ ؟ . . ما رأيك إذا قلت لواحدة أنك تحبها وأنك قررت أن تتزوجها وتبنى عشك السعيد وأسرتك ؟ . . نفرض أنك قلت لها هكذا فقالت : رح العب بعيدا . . ابحث لك عن وظيفة لكى تشترى لك حذاء أنظف وقميصا أفضل وصابونا أنعم تغسل به وجهك وحلاقا يقص لك شعرك . . ماذا تقول لها ؟ . . هل تقول لها أرجوك ؟! .

أقول لها : إن هناك نوعا من الناس عندهم القدرةعلى أن يفهموا فى لحظة واحدة ما يفهمه الآخرون فى ساعات . . وأنا من هذا النوع من الناس . . رأيتك ففهمتك . . عرفت أعماقك . . فأحببتك وأعتقد أنك سوف تحبيننى . فأنت جادة وأنت على خلق وأنت بسيطة وأنت من بنات الطبقةالتى أنتسب إليها .

وسوف ترد هى علَّى قائلة : هذا الذى تتحدث عنه يجىء فى الأهمية رقم تسعة فى قائمة الضروريات فى حياتى . فالضرورة الأولى أن أتعلم . وقد تعلمت . والضرورة الثانية أن أعمل . والضرورة الثالثة أن أعطى لنفسى فرصة لكى أفهم الدنيا حولى . . والضرورة الرابعة أن أساعد أسرتى وإخوتى الصغار على إكمال تعليمهم . . والضرورة الخامسة أن أعالج أمى . . والضرورة السادسة أن ننتقل من هذا البيت الحقير الذى ولدت فيه إلى بيت فى مكان آخر لكى نطفو على وجه الدنيا بعد أن عشنا فى قاع الحياة . والضرورة السابعة أن أنتظر حتى تتزوج أختى الكبرى ، والضرورة الثامنة أن أجد عملا بعد الظهر

لأن مرتبى كموظفة فى الحكومة لا يكفى إلا الإيجار والشاى والسكر واللبن والنور . والضرورة التاسعة أن أجد صديقة واحدة قريبة منى . . فى العمل أو فى السكن . . وعلى هذه الصديقة أعتمد اعتمادا أساسيا فى حياتى العلمية والاجتماعية . . ولا شىء يخفف من عذاب الدنيا كلها إلا الصديقة الصدوق . والضرورة العاشرة هى أن أجد أولاد الحلال وأن أختار منهم الشاب المناسب أو العجوز المناسب الذى يدللنى ويعطينى المال ويترك لى الشقة ويرحل عن هذا العالم دون أن يترك لى أولادا . . والشقة هى الخطوة الأولى فى سبيل الزواج من الشاب الذى أحبه .

وإذا قالت لى ذلك فلا أعرف ما الذى أقوله لها . . وسوف أجد أننى إنسان سخيف جدا وأنانى وتافه ، وأننى أبحث عن وردة فى سلخانة الحياة . . وأننى كالذى يجرى وراء الأتوبيس وهو يتلو قصيدة غزل فى واحدة لا تعرف كيف تضع قدمها على سلم الأتوبيس . . هذا يزغدها وهذا يقرصها وهذا يلتصق بها وعينها طول الوقت على حقيبة يدها والسلسلة الذهبية فى رقبتها .

وأحسست كأننى صفعت نفسى بالقلم وركلت نفسى بالشلوت . وبصقت على المرآة التى أمامى .

وقلت لنفسى : أنا الذى اخترت هذا الحوار . . واخترت هذا النوع من الفتيات ، ذات المشاكل التى تعيش من أجل غيرها . . والتى لا تفكر لحظة فى أن تكون أنانية مثلى . شعارها : أنا وبعدى لا أحد . . أنا أولاً . . وإخوتى وأمى وأبى ثانيًا . . يجب أن أعيش بأى شكل وعلى أى درجة من القناعة . .

وقررت أن أكون عمليًّا . ولا حب ولا زفت . فليس هذا زمان الحب . . عندما يكون الرغيف هو قمر ١٤ فى كل بيت ، فالمعدة هى التى يجب أن

تتكلم . . أما القلب فهذه كلمة لا يعرفها إلا الذين أكلوا وشربوا وشبعوا وأرادوا أن يكملوا الصورة الإنسانية للحياة . . أما الأفاعى التى تزحف على معدتها ومصارينها مثلى ، فلا قلب ولا حب . . هذا هو الكلام . . وهذا هو المنطق .

ذهبت إليها . . إنها تسكن فى بولاق الدكرور . . أبوها بقال . . وهى تقف فى الدكان بعد الظهر من كل يوم . . قلت لها : صباح الخير . .

قالت : أهلاً ، . . ما الذى أتى بك هنا ؟ .

قلت : هنا ! ولكن هنا مثل هناك . . فبولاق الدكرور لا تختلف عن القلعة . . والطين تحت أقدامكم ، والهباب الذى فوق دماغنا هو طين معلق فى الهواء فى انتظار المطر . . والطين الذى تحت قدميك هو هباب أدركه المطر . نحن متشابهان كما ترين . . ليس فى هذا فقط . . ولكن فى هذا الذى على لسانى ولسانك والذى فى نفسك ونفسى . . أنا أعرف . . أنا على يقين . . فقد رأيتك ، لم تنطقى بكلمة . ولكن رأيت وجهك وأراحنى الذى رأيت . . ونظرت إلى عينيك ، وجدت فى الحزم مرشدًا سياحيًا إلى أعماقك . . وعرفت الذى عندك . . إنه الذى عندى . . والذى تخفينه عن الناس كالذى أخفيه أيضًا . . فلا أمل عندك ، ولا عندى ، وأنت تشعرين بالضياع . . أعرف ذلك . . تتعلمين وبعد ذلك تقفين فى الدكان . . فهل تحتاجين إلى درجة جيد جدًّا فى البكالوريوس لكى تبيعى علبة كبريت أو قطعة جبن . . ولكنها عقدة أننا فقراء . . وغلطة الدولة أيضًا أنها جعلت التعليم مجانًا لأبناء الفقراء . . لقد حولتهم من ساخطين جهلة ، إلى غاضبين متعلمين . . لقد حولتنا من دجاج يلعب فى الطين إلى صقور تلعن الطين . . من نباتات ينعشها الطين ، إلى حيوانات يحرقها الطين . هل تعرفين ما علاجنا نحن

الاثنين ؟ صدقينى . . إننى لا أخدعك . . ولا أكذب عليك . . لقد حوشت لك كل هذه الكلمات منذ رأيتك . . ورتبتها . . ونسقتها وتدربت على إلقائها أمامك . . وتخيلت كل ماسوف تقولين . . لا علاج لنا إلا الزواج . . انتظرى حتى أكمل كلامى وسوف أنصرف دون أن أسمع منك تعليقًا . . ولن أراك بعد ذلك . . فأنا أنانى أردت أن أريح نفسى وأن أرى فى عينيك اتهامى بالجنون . . فهذه عقوبة أستحقها ، لأننى فاجأتك بكل شىء . . أنا أقول لك : لماذا الزواج ؟ . . انتظرينى . .

وجاء واحد يشترى ورنيشًا للأحذية . . وجاءت واحدة تسأل إن كانت تبيع بزازة للطفل . . وجاءت عجوز تسجل عن بخور . .

واستأنفت كلامى ، والدهشة على وجهها تتحول إلى ذهول . . إلى رثاء ، إلى استعداد لأن تسمع ؟ وتظاهرت أنى لا ألاحظ ذلك . . قلت : أنت هنا ماذا تعملين ؟ . . أنت تنوبين عن والدك . . ولابد أنه يقول عنك : إنك رجل . . وأسعدك هذا الوصف . . ولابد أنه قد أوصاك على إخوتك وقال لك : أنت الأب والأم وأنت أم لأمك أيضا وأنت زوجها . . وأنت رجل البيت . . وقد أثبت أنك قادرةعلى القيام بهذه الوظيفة . . وملء هذه الأماكن . . أنا متأكد أن هذا قد حدث . . ولكن لن تستمرى فى ذلك بعد حديثى معك . . لقد فكرت فى كل شىء . . وإخوتك لابد أنهم ينظرون إليك على أنك كبير البيت . . ورجل العائلة . . وأسعدك أن يعتمدوا جميعًا عليك . وأسعدك أكثر أن تكونى أمًّا للجميع . . فلا شىء يسعد المرأة أكثر من الأمومة . . وأنت تجمعت فيك الأنوثة والرجولة والأمومة . ولكن صدقينى : هذه رشوة . . هذا تزوير فى أوراق رسمية . . عندما جعلوك أمًّا متوجة ، سرقوا منك حقك فى أن تكونى أمًّا بالفعل . . أى زوجة لمن تحبين ثم أمًّا

لأولاده . . ضحكوا عليك . . ناموا لتظلى أنت ساهرة ، استراحوا لتشقى ، هم فى البيت وأنت فى الدكان ، وقبل ذلك وبعد ذلك فى الجامعة . . أهدروا حقك فى أن تكون لك حياة أفضل . . لماذا تعلمت ؟ لماذا تفكرين فى أن تعملى ؟ أنت الآن لا تريدين أن تعملى ولا أن تستفيدى بما تعلمت لماذا ؟ لقد جعلوك الأم المثالية والرجل المثالى . . بينما أنت سعيدة بهذه الألقاب سرقوا بطاقتك الشخصية وملأوها على الوجه الآتى : متزوجة ولها أولاد من أبيها ، وتموت من أجل أن يعيش إخوتها . . وهم يذكرونك بذلك لكى تنسى أنك فتاةفى العشرينيات . . ولابد أن تكون لك حياة . . وأن تتزوجى من ترينه كفأً لك . . وأنا أرى أننى كفء وأدعوك لأن تفكرى فى ذلك . . وأنا على يقين من أنك لن تعرفى النوم هذه الليلة . . فقد أقمت على كل خلية من خلاياك رجلاً مسحراتيا يدق الطبلة ليوقظك لا لكى تمتنعى عن الطعام ، ولكن لكى تتناولى إفطارك . . فقد جعلوك صائمة الدهر كله . . ولم يعد عندى ما أقوله لك . . أتركك فى عافية . . وأراك عندما تريدين فى مكتبة الكلية . . وسوف أكون فى انتظارك دائمًا ، وأرجو ألا يطول . . أقول لك . . غدًا ظهرًا ! ! .

سافل . . حقير ـ قلت هذا لنفسى . . إن بعضى يشتم بعضى . إن بعضى يكذب بعضى . . لم أكن سافلاً . . وإنما كنت فقط عمليًا أكثر مما يجب . . ثم أردت أن أصدمها . أن أوقظها . . أن أوهمها بأننى فكرت وفكرت . . ولم أطق صبرًا . . وكان لابد أن أبلغها بقرارى . .

ولابد أن يسعدها كثيرًا جدًا أن تشعر بأننى فكرت فيها . . وأننى اخترتها . . وأننى وجدتها الأفضل . . وسوف يسعدها أكثر أن أكون هذا الشاب الشجاع الذى استطاع من نظرة واحدة ومن مقابلة واحدة أن ينفذ إلى أعمق أعماقها . . وأنا أعرف بالضبط ما الذى تحس به . . لقد كنت عنيفًا . .

لقد زلزلتها . . أطرت النوم من عينيها . . فتحت عينيها على «الآخر» لترى نفسها عبدًا ذليلاً يخدم الجميع وينسى نفسه . . إنها مستباحة . . إنها قطاع عام لأسرتها . . لهم حقوق عندها . . ولا حق لها . . كل ما تعلمه هو واجب عليها . . وإذا مرضت فكان الله فى عونها ، ولا أحد منهم فى عونها . . إنهم يخصمون عمرها ويضيفونه إلى أعمارهم . . لا حق لها فى أن تنام ولا أن تمرض ، ولا حق لها فى أن تفكر فى أى شىء آخر إلا راحتهم . . وسوف ينهارون جميعًا إذا سمعوها تفكر فى العمل . . أو فى الزواج . . فمعنى ذلك خراب البيت والدكان معًا . . مع أن لها إخوة أكبر . . ولكن لا يصح لهم أن يقفوا فى الدكان . . هى فقط . . لماذا ؟ لم تسأل نفسها إلا اليوم . . ولماذا هى وليس إخوتها؟ لقد تعلمت مثلهم . . ومن حقها ، مثلهم تمامًا ، أن يكون لها بيت وأن يكون زوجها متعلمًا ، كزوجاتهم المتعلمات . . لم تسأل نفسها قبل الآن : لماذا هى ؟ الآن فقط . . سوف تنهال هى عليهم بأسئلة كالصواعق . . وأول قرار لها : أنها تعبت وتريد من إخوتها صغارًا وكبارًا أن يساهموا . . وأنها لن تقف وحدها لا فى الدكان ولا فى الحياة . . ولن تكون وحدها الضحية ، لن تكون عروس النيل التى جملوها وزينوها وزغردوا لها لكى يلقوا بها فى النيل . . ؟!

فهى عروس الموت ؟!

ليس بعد اليوم ! .

* * *

وفى المكتبة التقينا . .

لقد وجدت على وجهها الحزن الهادئ . . كأنها اتفقت مع نفسها على كل

شيء . أرهقتها المناقشة . وأعياها الاتفاق . . وجاءت لكى «تبصم» فقط . .

قلت لها : هيا بنا .

هزت رأسها بالموافقة . .

قلت : هل تعرفين إلى أين ؟ .

هزت رأسها بما معناه لا يهم أين وإنما المهم أن نخرج معًا إلى أى مكان . .

قلت : إلى المأذون .

هزت رأسها قائلة : فليكن ! .

قلت : كيف قررت ذلك ؟ .

قالت : وهل كنت تهزر بالأمس ؟ .

قلت : لا . .

قالت : إذن فقد اتفقنا .

* * *

وأمام المأذون قلت له : قل يا مولانا ما هى شروط الزواج ؟ .

قال : القبول . . الاتفاق فيما بينكما ما دمتما راشدين . .

قلت : هل لك أولاد ! .

قال نعم . .

قلت : لو كانوا طلبة فى الجامعة هل توافق على زواجهم ؟ .

قال : طلبة يتزوجون ؟ ومن أين يأكلون ويسكنون ؟ وكيف يطعمون أولادهم ! . .

قلت : أنت تستضيفهم بعض الوقت .

قال : وإذا كان هناك أولاد غيرهم فى المدرسة ؟

قلت : إذن فأنت لا توافق على زواج من هم فى مثل سننا ولم يجدوا عملاً بعد؟ . .

قال : طبعًا لا . .

قلت : إذا نحن صممنا على الزواج ؟ .

قال : أنتم أحرار . . واللى يشيل قربة على رأسه . . وأنت عارف المثل . . وأنت يا ابنتى ليس لك رأى ؟ .

قالت : أنا من رأيه .

قال : وما هو رأيه .

قالت : أن نتزوج ويعيش هو عند أهله . . وأعيش أنا عند أهلى . . حتى إذا وجدنا عملاً انتقلنا معًا إلى عش الزوجية .

قلت : لم أقل ذلك .

قالت : فماذا قلت . .

قلت : نتزوج ونعيش مع فضيلة الأستاذ . فهو بلا أولاد . . ثم إن زوجته تدير دكانًا . . أنا أساعده كمأذون وأنت تساعدين زوجته فى الدكان حتى يفرجها ربنا ! .

قالت : ألم يقل لك أحد قبل اليوم أنك سافل وحقير ؟! .

قلت : قبل الآن ؟لا . .

قالت : سوف تسمعها كثيرًا . . ولكنى لم يفوتنى أن أشكرك ، فقد

أيقظتنى وفتحت عينى . . وكنت أنت أول وجه وصوت وشاب أراه . . و أول طراز من الناس يجب أن أبتعد عنه . . والحمد لله الذى فضحك وكشفك أمامى . .

قلت : ولكنى أداعبك . . فأنا فقط أردت أن نرتبط . . وأن يظل هذا الرباط سرًا بيننا . . وأنت تعلمين أننى شاب مؤمن بالله . . وأنا لم أخدعك . . صدقينى . .

قالت : إذا كنت تهزل فى موقف يعتبر نقطة تحول فى حياتى . . وفى حياتك . . فإنى لا آمن على نفسى إذا حدثت لنا مواقف أعنف وأعقد أن أجدك قد هربت أو طلقتنى أو تزوجت غيرى على سبيل الهزار . . وعلى كل فعندك فرصة تتعلم فيها كيف تهزر وتهزل وتضحك وتنكت . . أما أنا فقد عرفت ما الذى يجب أن أعمله فى البيت والدكان . سلام عليكم يا فضيلة الأستاذ . .

* * *

وخرجت . ولم أنم ليلتها ولا أسبوعها ولا شهرها . . ماذا حدث ؟! .

إذا كنت قد خبطت دماغها فى الحائط فسقطت منه المخاوف والأفكار السخيفة . . فهى قد فتحت دماغى نصفين : كل نصف يلعن الآخر . وقد تدلى النصفان ليتمكن الفم من البصق عليهما . .

* * *

وندمت كثيرا وبكيت . . فقد حاولت أن أكون خفيف الدم ، فكان الثمن فادحًا . . » . .

المصاحف فوق السيوف!

جلسنا مثل كل يوم . . كل واحد يقول . ويسكت . . بيننا واحد نطلق عليه اسم «المعايرجى» .

أى الذى يزن كل ما نقول ويختار له اسمًا . . ونترك القضية ونتنافس فى مدى انطباق الاسم على المشاكل التى نتحدث عنها . . وطال الكلام حبالاً لا ترى أولها من آخرها . . وتناثر الكلام ترابًا حجب عنا الرؤية . . فلم نعد نرى ما يقول الواحد منا ، إن كان يقول :

قال أحدنا : دعونى أقل لكم شيئًا مختلفًا ولا يهمنى ما الاسم الذى تطلقونه على الذى أقول :

ليت شعرى هل زمانى

بعد ذا البعد يجود

ما أرى الشدة إلا

كلما جازت تزيد

ينقضى يوم فيوم

فى حديث لا يفيد

فمتى اليوم الذى

أبلغ فيه ما أريد ؟

وقلنا جميعًا : متى ؟ فى المشمش !

فعاد يقول : هذه الأبيات لم تعجبكم . . إذن فهذه :

أصبحت لا شغل ولا عطلة

مذبذبًا فى صفقة خاسرة

وجملة الأمر وتفصيله

أن صرت : لا دنيا ولا آخرة !

قلنا : ياه . . بايخة . .

قال : إذن فلم يعجبكم كلام أرق الشعراء : البهاء زهير . . أنا أعرف ما الذى يعجبكم . . اسمعوا :

صغر الرغيف كأنما هو قطعة

من قلب تاجره أو جلد البائع

هل صار وهمًا أوخيالاً ، أنه

قد عاد غير مؤمل أو نافع

قد كان شيخًا للطعام فما له

قد صار شبه وليد شهر سابع

القمح أوفر غلة فى أرضكم

والأرض لم تنكب بمحل فاجع

والنيل ما زال الوفى بعهده

يجرى بسلسال وفير هامع

يا للرغيف ويا هول ضموره

قد صار أمنية لبطش الشابع

جوعوا تصحوا واذكروها محنة

فالمجد لم يخلد لغير الجائع !

قال المعايرجى : هذه الأبيات لعبد الحميد الديب . . صعلوك الفقراء ، وفقير الصعاليك . . وهذه الأبيات لأنها قد جاءت على ذهنك فهى دليل على نزعة الهروب المتمكنة عندك . . فأنت هارب جبان . فبدلاً من أن تهرب بقدميك ، فإنك تستعير أقدام الآخرين وتهرب . . بل إنك لم تستأذن أحدًا فى الهرب بقدميه . . فأنت جبان لص . . وكل اللصوص جبناء . .

قال أحدنا : يريد أن يقول إن كل الأمناء شجعان . . فهل أنت شجاع يا أيها الأمين على أفكارنا . . والأمير على نشاطنا ؟ .

قال المعايرجى : وهل أنا سرقت ؟ .

قيل له : أنت أمين لأنك لم تسرق فقط . . فأنت لص فى الانتظار . . أنت لص تحت التمرين . . ونحن لا نسمى الراهب فى صومعته شريفًا . . ولكن أقوى من الراهب وأعظم ، من يتعرض للفتنة كل يوم ثم لا يسقط . . هذا هو الزاهد الشجاع، هذا هو الشريف القوى . . وأنت شريف لأن أحدًا لم يمتحن قدرتك على المقاومة . . أنت الذى ينطبق عليه قول الشاعر :

لا يعف الناس إلا عاجزينا !

وقال أحدنا : دعونا من الشعر . . والكلام الفارغ الموزون . . دعونا من العبث الموسيقى . . فلنعد إلى ما كنا فيه بالأمس . . هذه هى القضية . . هل تفضلون أن أعيد عرض المشكلة أو أن يتولى ذلك أحد غيرى . .

قلت : أنا أعرضها . . ما هذا الذى تفكر فيه . . ولماذا نحن نقف عند التفكير . واختيار الكلمات والعناوين . . لماذا نكتفى بوضع مسميات الأشياء . . ولا نذهب إلى أبعد من انتقاء الألفاظ والاختلاف والاتفاق حول ذلك . . أنا لا يهمنى أن نسمى شجرة القمح : شجرة قمح أو شجرة حنطة أو شجرة بر . . لا يهمنى . . إنها شجرة فيهابذور نطحنها ونصنع منها الرغيف الصغير أو الكبير الذى نجده أو الذى لا نجده . . إن موضوعنا هو لماذا الرغيف صغير . . ولماذا هو بعيد . . وإن كان الرغيف ضروريًا أو الجاتوه هو الضرورى . . وإن كان «الغموس» متوافرا . . وإن كانت الدنيا قطارًا يمشى على عجلات وهذه العجلات هى الرغيف . . وإن كان الغضب والسخط والثورات من أجل وبسبب الرغيف . . وإن كان صحيحًا ما يقال : قل لى ما هو شكل الرغيف الذى تأكله ، وأنا أقوله لك من أنت . . هل صحيح ما يقال : كما تأكل تكون . . أو كما تفكر تكون . . أو كما تعبد تكون . . أو كما تحب تكون . .

قال المعايرجى : هذا هو المدخل الصحيح للقضية . . المدخل الاقتصادى.

قال أحدنا : ليس اقتصاديًا فقط . . إنه اجتماعى . . دينى .

وقيل : وشاعرى أيضًا . .

قلت : المهم أن نضع أيدينا على شىء محدد . . وأن يستقر أمامنا فننظر إليه من كل نواحيه . .

قيل : كل شىء يبدأ من فوق . . من السماء . . من الله . . إلى القلب . .

قال المعايرجى : آه . . هذا هو التفسير الدينى للتاريخ . . لا بأس فالإنسان حيوان متدين . . فقد عبد الإنسان كل القوى الطبيعية . . ومصادر الحياة والموت . . ثم انتقل من عبادة الملوك . . إلى عبادة الشمس . . إلى عبادة الله الواحد الأحد . .

قيل له : نريد تفسيرًا . .

وكان التفسير : ما لم نكن نعبد الله جميعًا ، وتعرف قلوبنا الرحمة ، فلن نفرض العدل على الناس . . وإذا لم يكن عدل ، فلا رغيف فى كل بيت . . أى وإذا لم يكن رغيف فى بيتى ، نظرت إلى رغيف غيرى ، وإذا منعت يدى ، فإن غيرى لن يفعل . . وإذا سرق غيرى ، فلابد أن نجد تفسيرًا أو تدبيرًا أو عذرًا . . هل إذا سرق الجائع يكون سارقًا ؟ وهل إذا سرق الشبعان يكون سارقًا ؟ .

قال المعايرجى : نحن ما نزال على عتبة التفسير الدينى للتاريخ . .

فقيل له : إن كل المذاهب السياسية لكى تسيطر على الناس تعطى لنفسها مذاقًا دينيًا . . فيقال : إرادة الشعب من إرادة الله . . أى أن الله هو الذى أراد ما يريده الزعماء السياسيون وفلاسفة الاقتصاد . . وأتباع ماركس وأتباع خومينى وأتباع ماو جميعًا متعصبون وتعصبهم دينى . . كل واحد يرى أنه لا ينطق عن الهوى ، وإنما عن حكمة السماء فى تحقيق العدل بين الناس . . بالدم . . أو بفرض الرأى بالحديد ، وغسله بالدم وتبشيره بمكان أنيق فخم فى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار . . وهذه الجنة بوابتها الكبرى فى طهران وموسكو وبكين . . وهناك جنات أخرى لها مداخل أكثر فخامة فى نيويورك وباريس . .

ويكفى أن ترى ما يسيل دما بين إيران والعراق . . إنهم جميعًا رفعوا المصاحف على السيوف . . ويموتون شهداء فى سبيل الله . . وضحاياهم فى الجنة ونعم القرار . . وهم جميعًا من المسلمين : الإسلام دينهم والقرآن دستورهم ومحمد رسولهم والصلوات والحج والصوم والزكاة فريضتهم . . وأن لا إله إلا الله محمد رسول الله . . فهل هى مشكلة الرغيف ؟ أو هى مشكلة العداء القديم بين الفرس والعرب . . بين السنة والشيعة . . أو هو انتقام رجل واحد هو الخومينى لما لقيه فى العراق . . هل هى الحتمية التاريخية لاستنزاف الأموال الكثيرة فى الخليج . . فى التاريخ حوادث مماثلة . . فالمصريون عندما تكاثرت أموالهم ، أقاموا الأهرامات لتأكل أموالهم وطاقة شعبهم . والصين أقامت الحائط العظيم ، استنزافًا لمواردها من المال والرجال . . والأمريكان والروس بددوا أموالهم فى إطلاق الصواريخ وسفن الفضاء . . ألوف ملايين الدولارات قادرة على إطعام الجياع الأمريكان الذين ينامون بالملايين على الأرصفة وفى المجارى تحت الأرض يأكلون الفئران الثعابين ـ أفلامهم تقول ذلك! هكذا ، نجد التاريخ قد فرض العدل والعنيف بين الناس . . أى المساواة فى الحقد والرغبة فى الانتقام وفى العذاب وفى الدموع وفى الفقر . . وفى الموت قبل وأثناء وبعد ذلك ! .

قال أحدنا : يعنى إيه . . نريد كلامًا واضحًا . . أريد أن نجيب عن هذا السؤال : نحن تخرجنا فى الجامعة . . ونعمل كلنا . . وفى نيتنا أن نتزوج زميلات عاملات . . كيف نعيش . . أين نسكن وماذا نأكل ؟ . . وماذا نفعل بأولادنا ؟ . . هل نبقى فى مصر أو نهاجر . . هذه هى القضية . . ولا تحدثنى عن طهران وبغداد ونيويورك وتل أبيب . . قل لى كلامًا مفيدًا . . لا أريد أن أتوه وراءك ، فأنا تائه أبًا عن جد ، قل لى متى ينتهى الضياع ؟ . .

وقل لى ما هو دورى ؟ . . دورنا . . ما الذى يجب أن نفعله الآن وفورًا؟ . . وإذا لم نجد كلامًا نقوله ، فليذهب كل منا إلى أى مكان آخر . . وينام أوينقلب فى فراشه بلا نوم . .

قال المعايرجى : نريد حلاً الآن . . الآن ؟ وتريد منى أن أجد لك الحل؟ . . وهل عندى كل المعلومات ، وإذا كانت عندى كل السلطات فهل أنا وحدى الذى يفكر ويقرر ؟ . ثم من أنت حتى تطلب حلاً لمشكلتك وحدك؟ . . ومن نحن جميعًا حتى نعطى لأنفسنا كل هذه الحقوق على شعب مصر وشعوب الأمة العربية ؟ أنت نسيت أنك تجلس على برميل فارغ على ناصية شارع ٢٦ يوليو . .

قال أحدنا : يعنى إيه . . يعنى لا يصح أن نفكر . . وهل إذا سألك واحد منا ، احتقرت أمره . . ويكون هذا الاحتقار باعثًا لليأس . . أنت تشبه بنات الجرجون فى الأساطير الإغريفية . . فالواحدة إذا نظرت إلى شىء جعلته حجرًا . . وهكذا كل ما حولهاحجر . . الناس والنبات والماء . . ويوم قرروا القضاء على الجرجون جعلوها تنظر فى مرآة فلما رأت نفسها تحولت إلى حجر . . وليس أمامك إلا أن تحتقر من سألك . . مع أنك ولا حاجة . . أنت لم تقرأ وأنت خنزير وأبوك رجل غنى . . وعندما ولدوك حملتك الخادمة . . وأعطتك لخادمة أخرى . . ثم توفيت أمك بعد ذلك . كأنها قد عرفت مستقبلك . . خنزيرًا من تربية الخادمات . . ثم أجلسناك على منصة الحكم لتقرر لنا مستقبلنا معًا . . كيف تفعل ذلك وأنت لم تتقدم خطوة واحدة . . لا قرأت ولا كتبت ولا فكرت ولا تعذبت . . أنا قد رأيت مثلك على جدران معبد الملكة حتشبسوت . . فقد رأيت عددًا من النادبات . . يستأجرونهن ليشعلن الحزن والأسى فى قلب أهل الفقيد . . وأنت ندابة هذه المجموعة . . فأنت كذاب

الدموع ، مزيف الآهات . . لا عزيز لك ولا فقيد . . فهل بعد ذلك ما تزال تريد أن تجلس فى مقعد القاضى العادل الفاضل ؟ انزل واتركنا نفكر وحدنا بعد أن استغنينا عن خدمتك المضللة . .

إذا كان لابد من استخدام الألوان للدلالة على نهاية تلك المناقشة ، فاللون الأسود لا يدل علينا تمامًا . . وإنما هو أسود مع قليل من الاخضرار الذى هو الأمل ، ومع قليل من الزرقة التى هى الشرف ، والقليل من الأحمر الذى هو الغضب ، واللون الأصفر الذى هوبعض المرارة . . تلك كانت ليلتنا . . حتى النجوم توارت . . فقد كانت مثل علامات الضم والفتح و الكسر فوق وتحت كلمات لا نريد أن ننطقها . . وإنما كانت تتساقط منا دون أن ندرى بها أو تدرى هى بنا . .

قال أحدنا : نمشى ؟ هل نمشى إلى البيت . .

قيل له : يا أخى هل من الضرورى أن تعود إلى البيت . . نمشى والسلام ، نمشى كأنه ليس عندنا بيت ـ والحقيقة ليس عندنا بيت . . إنه مأوى . . مخبأ . . إنها مقبرة . . ندخلها أحياء وننام نصف أحياء . . ثم نصحو . . هذه هى معجزة الخلق . . معجزة الإبداع اليومى لله سبحانه وتعالى . . نموت كل يوم ، وتشاء رحمته أن تنبعث فينا الحياة كل يوم . . أما غيرنا فالحياة قضية مسلمة . . ينامون وهم على يقين من أنهم سوف ينهضون أحياء فى اليوم التالى . . أما نحن فلسنا على يقين من الحياة مرة أخرى . . ولكن الله يملى لنا ويحيينا كل يوم . . فما الذى نفعله بحياتنا ؟!! .

أقول لك ماذا نفعل بالضبط : نجلس متجاورين لا أحد يدير وجهه للآخر . فنحن نسمع ونرد . . دون أن ينظر واحد منا إلى الآخر . . هل تعلم أنه فى العام الماضى سقط أحدنا على الأرض ساعة . . ولم نعرف أنه قد أغمى

عليه ، وأنه مات ، إلا عندما وجدنا أحد الكلاب الضالة يقترب منه ويلعق وجهه . . فى ذلك اليوم فقط عرفنا أنه قد مات منذ وقت طويل . . وأنه كان يتكلم وأحيانًا يضحك وكثيرًا ما يبكى . . وكثيرًا ماكان يصرخ يلعن اليوم الذى جمعنا . . مسكين لقد أحب فتاة وعدته بالزواج . . ولكنها تزوجت صاحب البيت الذى تسكنه أسرتها . . وهكذا لم يعد أبوها يدفع الإيجار . . ولذلك تمكنت أسرتها من إدخال إخوتها الصغار المدرسة وإجراء عملية لوالدها فى أحد المستشفيات الكبرى . . ثم أنها طردته وأسرته من فوق السطوح . .

* * *

قل لنا يا معايرجى . . ما اسم هذا الذى حدث ؟؟!!» . .

ولكنك .. لم تسمع كلامى !

هذه المذكرات «أمانة» أؤديها ، كما أرادها صاحبها . . وإن كنت أتدخل أحيانا فى تصويب بعض أخطائها الإملائية والنحوية . . ولو كنت شابا ما وافقت على بعض ما جاء فيها . . ولكن كل جيل له شباب ، وكل شباب له جيل . . فلا أنا شاب ولا هذا جيلى . .

« . . لا تسألنى كيف تزوجت . فإن أحدا لا يعرف كيف تزوج . ولقد سألت عشرات من زملائى . وكان جوابهم: وجدت نفسى قد تزوجت . وكانوا يسألوننى : وأنت كيف تزوجت ؟ وجوابى أيضا : أننى لا أعرف . . وعندما أسترجع كل ما دار بينى وبينها أجد أن الكلام كله لا يؤدى إلى الزواج . .

مثلا : كنت أقول لها : من آمالى فى الدنيا أن يكون لى بيت أحسن من بيت أبى وأمى . . وأسرة أصغر وأولاد أقل . . وأن تكون زوجتى موظفة . وأن تكون متعلمة ليكون التفاهم بيننا أسهل . . ولنحمل معا حاضرنا ومستقبل أولادنا ونكون نموذجا للشباب المؤمن المستقيم . . أى تكون هى مؤمنة ، كما أننى مؤمن . ويتفجر الإيمان ينابيع صغيرة صافية نقية هى أولادنا . .

وكنت أنتهز مثل هذه الفرصة وأمد يدى إلى يدها وأتلمس أصابعها بأصابعى . . وأعانق أصابعها بأصابعى . . بما يشير إلى أننى أعانقها هى . .

أو أتمنى ذلك . . ثم أرفع يدها إلى فمى . . وأجعل من أصبعين من أصابعها على شكل شفتين منفرجتين وأقبلهما معا . . والمعنى مفهوم لدينا طبعا . . بل كل المعانى مفهومة . . ونحن فقط نشير . . ونرمز . . فأنا عندما ألف يدى حول وسطها ونحن سائران معا ، ويكون ذلك لمدة ثانية مع لفتة لامعة من العين وتنهيدة خفيفة ، فالمعنى واضح : أننى أتمنى أن أعانقهاوأن أضمها إلى صدرى . . ويكون رد فعلها ابتسامة هادئة على وجهها وانحناءة من رأسها فيها الهيام والخجل . إذن فالمعنى الذى أردته قد بلغها . وسرى كالكهرباء فى جسمها . .

بالله عليك كيف تؤدى هذه المشاعر العابرة إلى أن أجدنى أقول لها مرة واحدة : تتزوجيننى ؟ .

فتقول : وأمك وأبوك ؟ .

أرجو أن تتوقف قليلا عند هذا الحوار الذى ولد ميتا . . أو ولد مبتسرا . . أى ولد قبل أن يتم نضجه . . فأنا عندما . عرضت عليها الزواج كان قرارى : لابد أن أتزوجها .

أما قرارها : فكان لا مانع إذا وافق الأبوان . . أو إذا أخذنارأيهما . .

قرارى : نفسى ! .

قرارها : اجتماعى ! .

قرارى : ولا يهمنى الناس ! .

وقرارها : بل يهمها الناس ! .

فقلت : وما دخل أبى وأمى ؟ .

قالت : أنت نسيت ماقلته لى من ٢٣ يوما . . إن والدك هددك إذا فكرت فى الزواج دون أن يعرف من هى البنت ؟ ومن هو أبوها وأمها ؟ . وما أسرتها ؟ وما وظيفتها ؟ . . ونسيت أن أمك قد عرضت عليك بنت أختها الجميلة الرشيقة خفيفة الدم التى أحبتك منذ الطفولة . . نسيت أن أسرتك تتحدث عنكما أنتما الاثنين وأنكما ولدتما لتكونا زوجين . . أنت نسيت ؟ ونسيت أن أمك تعير إخوتك بفشل حياتهم الزوجية لأنهم لم يأخذوا رأيها . . وأنهم رفضوا كل بنات العائلة . .

قلت : ولا يهمنى . . إن أبى وأمى لم يستأذنا منى فى زواجهما .

قالت : أتمنى أن أتزوجك . . بل أحلم بذلك . . ولا أجد من هو أفضل ولا أقرب إلى عقلى وقلبى منك . ولكن أنت إنسان مندفع . . فأنت مرة تندفع مع والديك ، ومرة ضدهما . . ومرة تأخذ برأيى ، ومرة تأخذ رأيى وترميه فى الزبالة . . ومرة تقلب فى الزبالة بحثًا عن رأى لى . . فأنت عاشق ولكنك لست زوجا . . وأنت تعرف أن دينى يمنعنى أن أكون عاشقة ودينك أيضا . ولكن من الضرورى أن يكون الإنسان عاشقا قبل الزواج . . ولكن بعد الزواج يكون محبا ، ثم زوجا وأخا . . وأخيرا أبا لى ولأولادى أيضا .

قلت : إذن نتزوج .

قالت : بعد كل الذى قلت لك . . أنت مصر على الزواج ؟ .

قلت : نعم .

ثم تزوجنا . .

أما الذى حدث بعد ذلك ، فشىء مكرر . . كما أن الحب مكرر والعشق مكرر . . فالطلاق مكرر أيضا . كيف حدث كل ذلك ؟ لا أعرف . فأنت لا

تعرف لماذا تتزوج ، ولا تعرف لماذا ترى أن الطلاق هو الحرية التى يعطيها الله لك . فالزواج من نفسك والطلاق من السماء . .

ومن الأمانة أن أنقل لك وجهة نظرها فى الذى كان وما سيكون لى ولها اليوم أو غدا . .

وهذه واحدة من عشرات الرسائل التى بعثت بها .

«عزيزى . . حبيبى . . زوجى . . أبو أولادى . . زميل الدراسة . . أخى فى الله حتى يوم القيامة . .

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أكرم المرسلين سيدنا محمد أكمل الخلق أجمعين ، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين .

وبعد . فقد استخرت الله أن أكتب إليك .

أنت الذى قررت أن نتزوج . وأنا وافقت . وأنا التى قررت أن ننفصل ولابد أن توافق . انتهى ما بيننا . ولا أعرف ما هذا الذى كان بيننا . .

ألم أقل لك كثيرا إنك إنسان متقلب . وكنت تغضب . وأرى أن زواجنا كان أكبر دليل على التقلب . فأنت كنت ضد الزواج . . ضد المرأة . ثم قررت أن تكون زوجا وحبيبًا وأبا . وكان قرارك خاطفا صاعقا قاطعا . وكنت تتهمنى بأننى «باردة » لا أتجاوب مع عواطفك . ولم أكن باردة وإنما كنت واقعية فقط . هل أعيد عليك قصة من قصص العرب التى سمعتها منك . . وهى أن أبا الأسود الدؤلى اختلف مع زوجته أمام الخليفة . اتفقا على الطلاق. لكنه طلب من الخليفة أن يكون الأولاد فى حضانته لا فى حضانتها . قالت الزوجة : أنا حملت الأولاد وتعذبت . فهم أولادى .

قال زوجها : حملت الأولاد قبل أن تحمليهم .

وردت الزوجة : أنت حملت الأولاد فى ظهرك قطرات معدودة . . وأنا حملت الأطفال ثقالا شهورا طويلة ! .

فحكم لها القاضى . .

فالأولاد لا ترهق الزوج ولكنها عبء على الزوجة : حمل وحمل وحمل ورحمة ومرض وولادة ورضاعة وحضانة . . كم ألوف الساعات من التعب والقرف والضيق . . ضيق التنفس وضيق النوم على هذا الجانب وعلى ذلك الجانب وعلى الظهر وعلى البطن . درجات من العذاب لا يعرفها الرجال . . ولكن المرأة تتحمل كل ذلك . . لأن إنجاب طفل هو أعظم ما تقوم به امرأة ، موهبة أودعها الله بطن المرأة وقلبها وعقلها . . إبداع عبقرى أبدى لا يعرفه الرجال . ولذلك كان عذاب الحمل والولادة والحضانة هو أول ما يتبادر إلى المرأة عندما تتزوج أو تفكر فى الزواج . وقد نبهتك وحذرتك .

فماذا كنت تقول ؟ .

تقول إن المرأة متقلبة متغيرة . .

وهى كذلك . ولكن لماذا ؟ لأن الظروف تتغير والمرأة كائن ضعيف لابد أن تواجه التغييرات فى الحياة الاجتماعية بالتوافق والتكيف . . انظر إلى أى إنسان يقف فى الطابور . والطابور يتقدم ويتأخر ويدور . . إنه لا يكف عن الحركة إلى الأمام وإلى الخلف ويدور حول نفسه . لا لأنه متقلب ولكنه يحاول أن يتوافق مع الطابور . أن يكون فى الصف .

فما قولك فى حياة بها ألف طابور وألف وألف صف . . فكيف يتعايش الإنسان وكيف يعيش إذا لم يتوافق . . إذا لم ينسجم مع الآخرين والأخريات .

هل أذكرك بما يحدث فى عالم الحيوان والحشرات والنبات .

إن الحيوانات فى مواجهة الخطر لابد أن تتكيف فى مواجهة الموت . . فبعض الحيوانات له درع متين مثل السلاحف ، إذا داهمها الخطر ، سحبت سيقانها إلى ما تحت هذا الدرع الحجرى . . وبعضها مثل القنفذ له جلد شائك . وإذا هددها الخطر فإنها تنسحب إلى الداخل وتصبح كرة من الشوك ـ إنها تفعل ذلك لكى تعيش . والمرأة أيضا ! .

وبعض الحيوانات تهرب إلى أوكارها أو جحورها .

وبعض الحيوانات تتظاهر بأنها ماتت ـ مثل الثعلب . لا يكاد يحس خطرا قريبا حتى يتحول إلى جثة هامدة ويستطيع أن يوقف تنفسه ثم يطلق رائحة كريهة . فإذا اقترب الحيوان الذى يهدده هرب من الرائحة . . وكذلك تفعل بعض الحشرات التى تتجمد وتطلق سائلا كريها ساما . . وبعض الطيور إذا هاجمتها الصقور فإنها تلقى بنفسها مهيضة الجناح كأنها أصيبت . فلا يكاد يقترب الصقر حتى تعاود الطيران بسرعة . . وتهرب ولا نهاية للأمثلة التى يمكن أن تفعلها الحيوانات والطيور والحشرات فى مواجهة الخطر والموت ، من تلوين لريشها وشعرها وتبديل وتغيير لسلوكها . . كل ذلك من أجل أن تعيش . ولا يمكن أن تصف هذه الحيوانات بأنها متقلبة أو متلونة أو كذابة أو منافقة . . وأنه لا مبدأ لها ولا خلق . إنها تحاول أن تعيش . وهذا حقها . وهى لم تكذب ولم تخدع ـ إنما فقط تقاوم الخطر وتتكيف مع الظروف المميتة والبيئة المدمرة .

أقول لك : ما الذى عملته معك ؟ .

هل تذكر يوم وقفنا أمام جبلاية القرود ؟تذكر طبعا .

هل تذكر ما الذى أغضبك من كلامى ؟ قد لا تذكر . فالإنسان ينسى ما يضايقه . أنا أقول عندما رأيت القردة «تفلى » صغارها فتنزع البراغيث من شعرها . . قلت لك : أنا أفعل معك بالضبط مثل هذه القردة .

فقلت أنت : وهل عندك براغيث ؟

قلت : بل أنت الذى عندك براغيث فى عقلك . . وأنا أتولى القضاء عليها واحدًا واحدا .

وأنت غضبت يومها .

مع أننى لم أكن أقصد سوى أن لديك أفكارا تتطفل على عقلك المستنير وقلبك الطيب . وأنت لا تعرف ذلك . لأنك لا ترى نفسك كما أراك . . فمن هذه البراغيث : أنك ترى نفسك أعظم الناس . . ليكن . فالإنسان فى حاجة إلى رصيد ضخم من الكبرياء والاعتزاز بالنفس . وأنا أحب الرجل الواثق من نفسه . القوى . والمغرور أيضا . . لأن الغرور هو مبالغة فى قدراتك . ولا أحب الرجل الضعيف الذليل . وإذا خيرتنى بين أن أثير حقد الناس وبين أن أثير عطفهم لاخترت أن أكون مصدرا لحقد الناس . لا سببا فى عطفهم وشماتتهم . لم تفهم . فحاولت أن أجعلك تفهم . فقلت لك : أنت تبنى عظمتك على إذلالى . . أنت تبنى مجدك على أشلائى . . أنت تجد سعادة فى أن تقول دائما : إننى لا شىء وإننى لا أستطيع أن أفكر ولا أن أقرر . . وإننى مترددة . . وإنى أفهم بعد مرور الوقت . وأنك إذا قلت لى نكتة ، فإننى أضحك بعد ثلاثة أيام . . إلى آخر الذى قلته . . وأنت تعلم أننا زميلان فى الجامعة . وأنى كنت أكثر تفوقا . وأنك أنت الذى فرضت الزواج . وأنا التى خالفتك وتخوفت من هذه القرارات المصيرية السريعة . ووافقتك لكى

أرضيك . ولا أدعى أننى كنت أعلم النتيجة . ولكن كنت أحس بها وأتخوف منها . . وقد صارحتك بذلك .

ووافقتك يوم قلت : إنها الظروف السياسية التى تهز القيم الأخلاقية والاجتماعية وأنك ضحية لكل ذلك . ومعنى ذلك أنك تزوجتنى لاعتبارات سياسية . . وانفصلنا لاعتبارات اقتصادية . أى لا دخل لنا فى الذى حدث . . سواء فى الزواج أو فى الطلاق . . كأن الزواج قد تم بناء على قرار من الرئيس الأمريكى والطلاق بناء على تعليمات الرئيس السوفيتى . . ونحن لسنا إلا لعبة فى أيدى وأرجل الاثنين أو غيرهما من محركى الأحداث فى العالم كله .

أنت قلت لى مرة : إننى طويلة جدا . . وأنك مهما ارتديت حذاء بكعب فلا أزال أنا أطول منك . .

وكنت أسألك هل أنا قد ارتفعت قامتى بعد الزواج ؟ . . وهل لم تكن ترانى بوضوح قبل الزواج ؟ . . ولكنك لم تسألنى : هل يضايقنى أنا أن أراك أقصر منى ؟ . . لم تسألنى . . ولكن وجدت أن كلامك هذا يدل على أنك لم تر بوضوح . . ولا كانت رؤيتك واثقة . فقرارك إذن لم يكن بالعقل ولا حتى بالقلب . . وإنما هو «بالتقريب » . . أو هو محاولة للتقريب بين العقل والقلب . . ثم إنك قلت لى مرة : هل لأنك من عائلة كبيرة . وأنا من عائلة مجهولة .

ولكنك تعرف من هى عائلتى . . ورغم أن عائلتى أكبر وأشهر ، وأن إخوتى أكثر من إخوتك . وأن أبى وأمى ، كما تعلم قد تعلما فى أمريكا . . فلم أسأل واحدا منهما عن زواجى منك . ولا أجبت عن أسئلتهم التى تريد

أن تعرف من أنت ؟ . . ومن هى أسرتك ؟ . . ولا كم دخلك ؟ . . ولا أين سوف نسكن ؟ . . وأنت تعرف بيتنا . . لا تؤاخذنى إن بواب عمارتنا يسكن فى غرفتين أحسن من شقتنا .

وبالأمس جمعت أبى وأمى وإخوتى وحكيت لهم حقيقة مابيننا وحتمية النهاية . وقبلونى وعانقونى ومسحوا دموعى . . وجدت فى ذلك عقابا وعفوا . . عقابا لى ثم عفوا منهم ! .

نصيحة : أرجوك لا تظهر فى بيتنا لأى سبب ، فأنت لا تستطيع أن تقاوم نظراتهم التى تلمع وتبرق بالكراهية والاحتقار . . فى استطاعة ساعى البريد أن يحمل لى ورقة الطلاق .

أما أطفالنا فهم أصغر من أن يعرفوا من أنت وأين أنت وماذا حدث لك ولى ولهم » .

* * *

ولما رآنى زملائى فى الشركة سألونى :

ما هذه الكدمات على وجهك ؟ .

قلت : إنها الجزمة !! .

ولم يقل واحد منهم : تستاهل . .

ولكن عيونهم والابتسامة الشامتة على وجوههم تقول ذلك . .

ولم يعرفوا أنها جزمتى التى أمسكتها وضربت بها نفسى . . ولما رأيت الدم ينزف مسحت به أصابعى . ونظرت إلى أصابعى فأحسست كأننى ذبحتها . . لأنها تستاهل القطع !! . وبدأت أبكى على أولادى » .

لا خلاص من الأقفاص !

غلطة كبيرة !! ـ قلتها لنفسى بعد أن جلست طويلا أفكر لعلى أجد جوابا واحدا عن هذا السؤال : ولماذا التطرف الدينى ؟ وأنا لم أستخدم كلمة التطرف. وإنما هو تعبير التصق بكل من يختلف معنا فى الرأى السياسى أو الأخلاقى . . مع أن التطرف صفة لكل الناس . فأنا إذا قلت إنك متطرف ، فمعنى ذلك أنك تقف على الطرف المواجه للطرف الذى أقف عنده ـ فأنت متطرف وأنا أيضا ! .

ولكن ليكن هؤلاء الأخوة متطرفين ! . . فلماذا هم كذلك ؟ .

لأسباب عديدة ، أولا : العناء الاقتصادى الذى أذل الناس ومسح بهم الأرض. . ولابد أن حرص المصريين على نظافة الشوارع سببه أنهم لا يريدون أن يتسخوا إذا مسحنا بهم الأرض ـ فنحن الزبالة ونحن المقشات أيضا ! .

وسبب آخر هو : التفكك الاجتماعى . . تفكك الأسرة والعلاقات الإنسانية بين الناس . . وغياب الفوارق بين كل الطبقات ، فأنت لا تعرف : من الذى فوق ؟ ولماذا ؟ ومن الذى تحت ؟ وكيف ؟ . . فبيننا أناس يمشون على رءوسهم ، وآخرون على أيديهم ، والقليلون الذين يمشون على أرجلهم يمشون على أربع . . فما اسم هذه التركيبة الاجتماعية . . أو هذا الخلل من بناء المجتمع ؟ .

وسبب ثالث : أن الثقافة الغربية قد استولت على الناس وأفسدت عليهم حياتهم . . فلا نحن أمريكان ولا نحن أوروبيون ولا شرقيون ولا مسلمون . وإنما كل هؤلاء معا . . أى غربيون متمسكون بالإسلام أحيانا ، أو مسلمون يميلون إلى الغرب أحيانا . . انظر إلى فساتين السيدات ، انظر إلى مشروبات الرجال . . اقرأ ما تنشره الصحف والمجلات بحفاوة شديدة : إما هدم للمجتمع بإصرار وعناد . . وإما دعوة إلى الحياة الأمريكية بنفس الحفاوة والحماسة . . وترك الناس يختارون ما يعجبهم . . والناس لا يختارون وإنما يعيشون هذا التناقض الذى أضعف إرادتهم ورغبتهم فى الحياة ، وبدد سعادتهم بما هم فيه . . وأكد يأسهم من أن يعودوا مسلمين ، أو ينقلبوا غربيين . .

ثم السبب الأخير هو : أن لدى الناس حرية التعبير عن الذى يؤمنون به . . فقد ظهرت هذه الاتجاهات الحادة فى الدين والسياسة مع الديموقراطية . . فمن حق كل إنسان أن يقول وأن يتخيل وأن يدعو إلى ما يؤمن به . . أما هؤلاء المتطرفون فإنهم اختاروا «رفض» المجتمع . . ليرفضهم المجتمع . . اختاروا عالما انفردوا به وانفرد بهم . . فعزلهم عن الناس . . ورأوا أنهم على حق ، وكل الناس على باطل ، أنهم وحدهم بشر وكل الناس شياطين، أنهم العقلاء وكل الناس مجانين . . وبدلا من أن يوحدوا صفوف الناس، مزقوهم ، وبدلا من أن يجعلوا الحقيقة واحدة قوية متكاملة متماسكة، جعلوا الحقيقة وهمين : الوهم الذى اخترعوه لأنفسهم . . والوهم الآخر دفنوا فيه بقية الناس . . فهم لم يخدموا الحقيقة وإنما شوهوها . . ولم يكسبوا موقعة وإنما خسروا معركة ! .

ولم أسترح إلى تحليل أسباب الصراخ فى القول والعنف فى العمل ! .

فأنت ـ عادة ـ ترفع صوتك عند الكلام إذا كان جارك ضعيف السمع . . أو إذا كنت تحدثه فى ورشة . . فلابد أن تجعل صوتك أعلى من صوت الآلات . . فلا أنت بطبعك حاد الصوت ، ولا صديقك أطرش . . ولكنها الظروف التى تدعوك إلى أن تصرخ . . وترفع صوتك ويدك ولسانك وسلاحك أيضا .

ثم إنه حماستك وإيمانك واستعدادك للتضحية . .

ولا حتى هذا التوضيح أقنعنى . . فأنا لا أجد سببا واحدا يدعونى إلى أن أدعوك بالقوة . .

القرآن الكريم يقول : لكم دينكم ولى دين . .

ثم إننا من دين واحد . .

والقرآن يقول : وجادلهم بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . .

وكنت قد استرحت فيما بينى وبين نفسى ألا يكون لى مذهب أتقيد به . . فأنا مسلم وخلاص . . ولست على طريقة أحد من الناس . . فأنا أعرف مبادئ الإسلام ، وأنا أطبقها سعيدا بأن أكون على خلق وفى سلام مع نفسى ومع الناس ومع الله . يكفينى . . فليس عندى طموح فى أن أكون زعيما ولا داعية ولا وزيرا . . ولا أريد أن أكون بطلا . فليست عندى صفة واحدة من صفات الأبطال : لا أنا خطيب ولا أنا عبقرى . . لا سياسى مخضرم ولا عسكرى محنك . . وإنما واحد من ملايين الناس . . من الأغلبية الصامتة . . أو ملايين الناس الصغار . . رجال الشارع والحارة والحقل والمكتب . . واحد ككل واحد . . ليست لى أية ميزة أختلف بها عن أى أحد . . الستر يارب ـ

هذا هو دعائى ودعاء جارى وجارتى وأبى وأمى وأجدادى من قبل . .

حتى هذه الرغبة فى ألا أتقيد برأى أحد ، اكتشفت أنها وهم كبير! ! .

فليس صحيحا أننى طائرطليق . . كنت فى قفص وكسرت القفص أو انكسر القفص وانطلقت فى سماوات الله بعيدا عن أرض الناس . . حتى هذا وهم . . فقد رأيت الطيور إذا انفتح لها القفص فإنها تقف فوق القفص . . ورأيت السجين يخرج من الزنزانة ويقف أمامها وينظر يمينا وشمالا . ثم يتساند عليها ويجلس أمامها . . وكنت أظن أن السجين إذا خرج ، فإنه يرمى نفسه على الأرض ويقبل تراب الحرية . . ولكن وجدت السجين ينهار أمام باب السجن . لماذا ؟ لأنه حر . . أى لأن لديه ما لا نهاية له من البدائل . . أن يجرى . . وأن يمشى على أربع . . وأن يزحف على بطنه وأن يلقى بنفسه تحت العجلات . . أى عنده اختيارات كثيرة . . وبسبب كثرة هذه الإمكانيات فإنه يحتار على حريته . . وتدفعه الحرية إلى الدوخة فيقع . . كأنه بلا حرية ولا قدرة على الاختيار . .

ولكن المعنى أعمق من ذلك . .

وهو أنه لابد للإنسان من قفص . . لابد من قيد . . لابد من سلسلة . . فلابد لكل الأشياء من جاذبية الأرض تشدها . . وتشدنا أيضا . . ونقاومها . . ثم ننظم هذه المقاومة . . فالمشى هو تنظيم لمقاومة السقوط . . وكذلك الرقص . . والطيران . . كلها مقاومة للجاذبية بأشكال مختلفة . . أى مقاومة للقيود . .

وأنت عندما تقول : أنا أحب هذا النوع من الطعام . . وهذا النوع من السجائر . . وأشجع الأهلى أو الزمالك . . وأفلام عادل إمام فقط . . وأغانى

أم كلثوم فقط . . وألحان محمد عبد الوهاب . . وأحاديث الشيخ الشعراوى . . ولا آكل إلا السبانخ ولا أشرب إلا الشاى بعسل النحل . . وأنام بمكرًا لأصحو مبكرا . .

فما هذا الذى قلت ؟ .

أنت بالضبط قد ذكرت الأعواد الحديدية للقفص الذى تعيش فيه . . أى للقفص الذى هو حياتك . . فأنت لا تخرج عن هذه الأعواد الحديدية . . ولا تحب ذلك . .

وكذلك عادات الأسرة وتقاليد المجتمع والمزاج العام لبلدك . . كلها أقفاص صنعناها لأنفسنا . وأحطناها بالاحترام والقداسة . . والخروج عليها هو تحطيم للسلاسل النبيلة والأغلال الشريفة التى تربطنا معا . . و إذا خرجنا عنها ابتعد الناس عنا . . فلا نملك إلا أن نعود إليها كارهين . .

ألم يحدث أن أخذت إجازة ، فإذا بك تعود إلى مكتبك ؟ فما المعنى ؟ .

المعنى : أنك عندما تذهب كل يوم إلى مكتبك فأنت مضطر إلى ذلك . . ولكن عندما تذهب فى إجازتك فلكى تفاخر زملاءك بأنك فى نفس المكان ولكنك حر . . تخرج . . تدخل . . تشرب . تقرأ . تكتب . . فأنت حر . . على هواك . . أنت فتحت القفص وخرجت . هذا صحيح . ولكنك لم تفلح فى أن تبعد عن القفص . . أنت مثل كل الطيور التى تخرج من القفص وتقف فوقه . . فقد اعتادت أن تكون فى داخله . . فإذا خرجت وقفت إلى جواره . . إنها مشدودة لهذا القفص . . أو مربوطة بقفص أكبر . . هذا القفص الأكبر هو العادة والتقاليد وقوانين الحياة التى تسلسل كل الكائنات العاقلة وغير العاقلة . .

اسأل أى سجين وأى سجان : أيهما أكثر حرية ؟ . . سوف تجد أن السجان يلعن السجين ويحسده على أنه ليس مسئولا . . فالمسئول عنه هو السجان . . فالسجين فى زنزانة . . أما السجان فهو مربوط فى سلسلة المسئولية . . فالسجان أكثر تعاسة من السجين . . لأنه هو السجين حقا . . وهو الموضوع فى قفص المسئولية . . أما السجين فقد تحرر من المسئولية . . فالذى فى داخل القفص سجين . . والذى فى خارجه سجين أيضا ـ كلاهما فى قفص ! .

والطيور والحيوانات الأخرى حتى الطليقة منها لها أقفاص . . فكل حيوان له «بيئة » نباتية أو حيوانية يعيش فيها ولا يخرج عنها . . والحيوانات والطيور عندما تترك مخلفاتها على الأرض ، فهى تضع علامات مرئية ومشمومة لحدود البيئة ، إنها أعواد القفص الذى اختارته . . إنها الحدود الإقليمية التى يجب أن تراعيها الحيوانات والطيور الأخرى . . واجتياز هذه الحدود عدوان على أصحابها يستوجب القتال . . وعلى الرغم من أن الأرض واسعة ، وفى استطاعة أى حيوان أن تكون له «بيئة » أو «حدود » خاصة . . أو «قفص» ، فإنه لابد أن يعتدى على الآخرين . . وأن يحشر نفسه فى القفص الضيق . . وبذلك تدور المعارك . . فنحن إذن أمام نوعين من الضرورة : ضرورة العدوان وضرورة الدخول فى قفص . . قفص من صنعنا . . أو من صنع الغير ! .

هذه الدبلة التى فى يدك هى رمز ذهبى لقيود أخرى غير مرئية . . هى وصل استلام يجب أن تشهره دائما بأنك قد اخترت قفصا وأنك سعيد بذلك . . وتسمى هذا القفص : عش الزوجية . . أو بيت السعادة العائلية . . أو الحب الدائم . . أو الرباط المقدس . . وكلها ذات معنى واحد : قفص من العواطف والقانون والتقاليد الاجتماعية والدينية . .

وإذا وضعت الدبلة فى اليد اليمنى فهذا وعد منك بأن تضعها بعد ذلك فى اليد اليسرى حتى الموت . . وأنت الدبلة لا تسلسل إصبعا أو يدا . . وإنما تسلسل حياة وأسلوبا وخلقا . . سواء كانت بالدبلة من ذهب أو من فضة أو من بلاتين أو فيها فصوص من زجاج أو من الماس . . فهى عود من أعواد القفص اقتلعه المجتمع وجعله ملتويا ، بما يدل على أنك ارتضيت أن تلفه حول إصبعك بكامل قواك العقلية . وأنك جعلته من ذهب . . أى أنه قيد غالى الثمن ، دفعت فيه الكثير من أجل أن تباهى به الناس . . و إن هذه الدبلة ليست إلا مندوبا لامعا عما لا نهاية له من الدبل الأخرى تحت الجلد ـ جلد الرأس والقلب ! .

* * *

فليس غريبا إذن أن الإنسان عندما يموت ، يلفونه . . كأنه سوف يهرب . . يضعونه فى كفن ملفوف . . وفى نعش مغلق ثم فى قبر مسدود . . كأنه ما يزال حيا فاختاروا له القفص الذى يأوى إليه . . فالإنسان خرج من ظلمات بطن الأم ، ظلمات بطن الأرض ، فى قفص ولد ، وفى قفص يموت . . من قفص طوله نصف متر إلى قفص طوله متر ونصف ـ كل هذا العذاب فى الدنيا من أجل متر واحد ؟! .

ولا هذه المعانى أراحتنى . .

ولا استطعت أن أعدل رأسى . . إن رأسى قد مال على كتفى ، كأنه انكسر . . أو كأن رأسى كان «حلبة» مصارعة ، لم يستطع أن يتحمل الضربات واللكمات تحت وفوق الحزام ، فانقلب محطما . . أو كأن رأسى علم منكس ، دليلا على الهزيمة . . أو على الحداد . .

وبعد أن طلع النهار وجدت الحل المناسب . .

بمنتهى الصراحة : أنا لاشجرة ولا نخلة . . أنا عود برسيم فى حقل به مئات الأبقار والحمير والماعز . . و أنا لا أستطيع إلا أن أميل مع الهواء . . مع الهوى . . يهب شمالا فأنحنى . . ويهب يمينا فأنحنى . . ويجىء أحد الحيوانات فيدوسنى أو يقتلعنى . . وهكذا تنتهى حياتى . . واحدا من ملايين الأعشاب فى الأرض . . لا أكثر ولا أقل . .

وقد هبت عواصف كثيرة على الحقل فاقتلعت النخيل وأشجار الجميز والصفصاف . أما نحن الأعشاب فبقينا وعشنا وترعرعنا ، وحدها ماتت عمالقة الأشجار !! .

يعنى إية ؟ .

يعنى لا يصح أن نلوم الحرباء إذا تلونت أصفر وأخضر مع البيئة التى تعيش فيها . . فالحرباء لم تفعل أكثر مما يفعله كل الناس . . كل الساسة . . إنهم يفطرون مع الحمل الوديع ، ويتعشون مع الذئب المفترس . . كذابون ! الحرباء ليست كاذبة ، إنها فقط تتكيف وتتوافق لكى تعيش . . والطيور الصغيرة تتساقط كأنها ماتت هربا من الصياد ـ لم تمت وإنما تظاهرت بذلك . . والثعلب يتصنع الموت ويطلق روائح كريهة ، فإذا اقتربت منه حيوانات مفترسة ووجدته ميتا ، تركته ليعيش . . فلا هو كذاب ولا منافق ولا سافل . . وإنما هوالحيوان الضعيف يساير الظروف لكى يتغلب عليها ويعيش . . إنه الصراع من أجل البقاء . .

هل أنا حرباء ؟ .

والله لا أعرف . ولذلك لابد أن أبعث بهذه السطور إلى «وفاء . . » زميلة

الدراسة والأحلام والأوهام . . وضحية الصاعقة التى أصابتنا نحن الاثنين . . فإذا بالواحد منها يسقط فى حضن الآخر ويقول : أحبك . . وأعيش وأموت من أجلك ! .

لعلها تعرف أننى لا أعنى ما أقول . . فلا أعرف إن كنت أحبها أو أكرهها . . أحب نفسى أو أكرهها . . هل أريد الحياة بها ومعها ، أو أريد الحياة بعيدا عنها أو لا أريد الحياة ؟! .

إنها تبكى كثيرا على حالتى العقلية والعاطفية وتقول : خسارتك ! .

خسارتى فى أى شىء؟ .

مشكلتى : أننى لست على يقين من شىء . .

والحل : أن يدلنى أحد على نفسى وله الأجر والثواب . . عند من ؟ .

والله لا أعرف . . نحن لا نعرف . . نحن الملايين من أعواد البرسيم فى حقل الأديان والمذاهب . . والله الذى لا إله غيره ، إننى مؤمن كامل الإيمان . . ولكن حيرتى هذه أقوى منى . . مشكلتى أننى وجدت القفص . . ولكن مصيبتى أن القفص فوقى ، فلا أنا فى داخله ولا أنا فوقه . هل رأيت عذابى ؟! .

إلى الأخت فاطمة وغيرها!

أسندت ظهرى إلى الحائط . . كان الحائط باردًا . وشعرت بشىء من الراحة . . فاقتربت أكثر من الحائط . . وتمنيت لو أستطيع أن أصلب طولى على الحائط كله . . كأننى برص أو ثعبان وأنام واقفًا . . رأسى تحت . . وساقاى فوق . . وأحسست أننى فى حاجة إلى حائط أستند إليه . . إلى ظهر . . إلى قاعدة . . إلى أى شىء متين قوى أقف أو أجلس أو أنام عليه . . فاليابانيون على حق عندما جعلوا السرير جافا . . وعلى حق أكثر عندما تركوا السرير وتمددوا على الأرض . . أى اختاروا القاعدة الصلبة . . الظهر السليم القويم . . وأنا فى حاجة إلى هذا الظهر الذى جاء فى المثل الشعبى : اللى له ظهر لا ينضرب على بطنه . . فما بالك إذا كنت مضروبًا على بطنى وعلى قلبى وفى عقلى ؟! .

قل لى ـ قلتها لجارى وصديقى ونصف عمرى زميل الدراسة .

قال : ماذا ؟

قلت : كلمنى عن «الإيدز» :

قال : هنا فى الجامع وقبل صلاة الجمعة ؟ .

ـ نعم .

ـ وهل هذا مكان مناسب ؟ .

ـ أنسب مكان . . ويا ليت الخطيب يتحدث فى شىء مفيد . .

ـ مثل الإيدز ؟ .

ـ الإيدز بالذات هو أنسب شىء يقال اليوم وغدًا . . ولنا نحن بالذات ! .

ـ وهل ترى أننا قطعنا السمكة وذيلها ، ولا يبقى إلا أن يحذرنا نحن من هذا المرض؟ .

ـ نعم .

ـ لا أفهمك . .

إنه لا يفهمنى . وهل أنا أفهم نفسى أو غيرى . . نحن جميعاً فى مركب واحد على ظهر موج واحد فى بحر واحد فى ضباب واحد . . لا طلع علينا قمر ولا شمس . .

ما هذا الإيدز؟ .

هو مرض تظهر أعراضه على الإنسان بسبب خلل فى جهاز المناعة . . أى فى جهاز الدفاع عن الجسم الإنسانى ووظائفه . . يؤدى إلى ضعف الإنسان . . وما دام قد ضعف ففى استطاعة أى ميكروب أن يستولى عليه ، وأن يوجهه على النحوالذى يريد ، وفى الطريق الأسرع إلى الانهيار والموت . . كأن يصاب الإنسان بالهزال . . أو بالانتفاخ والتورم . . أو بالسرطان . . أو فقدان الذاكرة . . ولا يعرف الأطباء علاجًا لهذا المرض . .

يعنى بعبارة أخرى : لنتصور لحظة واحدة أن دولة من الدول قد اختفى منها الجيش والبوليس والنيابة والقضاء . وأحس كل الناس بذلك . ثم اختفى

الضمير الذى هو صوت الله . . صو الحق . . صوت الإيمان . كل ذلك اختفى . . فما الذى يمكن أن يفعله الناس بالناس . . ثم افرض أيضًا أن الأبواب والنوافذ والمفاتيح والأقفال قد ذابت من كل بيت . . هذا بالضبط هو انعدام جهاز الدفاع والأمن والمناعة فى الدولة وفى البيوت وفى الناس كلها . . غابة يأكل فيها الناس كل الناس . .

والتفت إلى جارى وقلت له : هل فهمت المعنى ؟ .

قال : قصدك أننا جميعًا مصابون بمرض الإيدز . . أو بشىء يشبه مرض الإيدز ؟

قلت بالضبط !

قال : إذن ؟ . .

قلت : من أجل ذلك يجب أن نتحدث عن هذا المرض الذى أصابنا . . ولا يهمنى إن كانت البداية هى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ أو نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ أو انفتاح أكتوبر سنة ١٩٧٣ أو التصدى والتردى فى سنة ١٩٧٧ . . كل الذى يهمنى ويهمك ويجب أن يهمنا هو أن نواجه هذا المرض . . بل هناك مرض أخطرمن ذلك . .

قال : تقصد من مرض الإيدز . .

قلت : نعم إنه نوع ملعون من الإيدز . . هو أن الدولة ترى أن الشباب مصابون وحدهم بهذا المرض . . وليس كل الناس . . ولذلك فالشباب فى حاجة إلى من يدافع عنهم . . إلى من يتسلل إلى كرياتهم البيضاء ويغذيها لتصبح قادرة على مقاومة فيروس نقص المناعة . . نحن فقط . . ويرون أن

غضب الشباب مرض . . وأنه ليس إلا ارتفاعًا فى درجة الحرارة بسبب مقاومة الفيروس . . أى بسبب الإصابة بهذا المرض . . ولا يرون أن ارتفاع درجة حرارة الشباب بسبب الصحة والعافية والطاقة . .

إنهم يرون الشباب مرضًا ، والحيوية ضعفًا ، والطموح جنونًا ، هذا هو المرض الذى أصابونا به . . إنه ليس مرضنا إنه مرضهم . . فنحن من وجهة نظر ا لأكبر سنًا مصابون بالإيدز وبمرض آخر أقرب إلى الجنون . . وهذا يدلك على جهل الكبار . .

فليس من أمراض الإيدز الطموح والاتجاه إلى المستقبل والبحث عن علاج وافتقاد المثل العليا . .

وإنما من أعراض الإيدز : فقدان الذاكرة وزوال الغضب . . ماذا تقول؟ .

قلت : قلت لا إله إلا الله . . يا أخى أنت لازم تلاقى موضوعًا تنكد به علينا . . كل يوم . . أنت نافورة غم ؟! .

قلت : شىء غريب كأنك لست فى حالة نكد دائم . .

قال : ولكن جئت إلى المسجد لكى أستريح .

قلت : وهل يريحك نفسيا أن يحدثك خطيب المسجد عن «نواقض الوضوء» بدلاً من أن يحدثك عن الإيدز . . هل يرضيك أن يحدثك خطيب المسجد عن الأوصاف الدقيقة لجهنم أو الجنة ـ مع أنه لم يدخل هذه ولا تلك . . وبدلاً من أن يكلمنا بالعقل فإنه يتكلم كأنه رسام سريالى . . يقول ويتفنن فى الأوصاف ـ ويتوهم أنه بهذه الصورة يقنعنا ويخيفنا على مصيرنا . . هل تذكر إمام مسجد إمبابة الذى اختلفت معه فى موضوع : هل يجوز المشى

بالجزمة فى المسجد والصلاة بالجزمة . . أنا قلت له جائز ما دامت الجزمة نظيفة . . فهى كالجوارب تمامًا . فقال لى : من أين لك هذا ؟ قلت : بالعقل . . وقد قرأت أخيرًا أن الإمام ابن تيمية قد سألوه عن ذلك فقال إن صحابة رسول الله كانوا يمشون بنعالهم فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم . . وقال ابن تيمية إن الإنسان يجب أن يفعل ما أمر به الرسول وهو أن ينظر فى نعله فإن وجد به شيئًا كريهًا مسحه بالتراب . . وأكثر من ذلك رأيتهم فى بعض البلاد العربية ينزلون من السيارة ويصلون وقد ارتدوا أحذيتهم ـ لأن الأحذية نظيفة . وهذا كلام بالعقل والمنطق ، وفيه تخفيف عن الناس ومرونة فى تطبيق الدين . . هذا هو الذى نفتقده فى رجال الدين ، وفى رجال الدنيا ورجال التربية ، وفى النظرة إلينا نحن الشباب . فهمت ؟ .

قال : وتقترح ماذا الآن . . نخرج من المسجد ونستأنف الخناقات التى لا تنتهى بيننا ؟ ! .

قلت : لم أحدثك عن فاطمة ؟ .

قال : من فاطمة ؟

قلت : فاطمة . . زميلتنا . . هل تعرف ماذا فعل بها أبوها وأمها وإخوتها . .

قال : ليس الآن ! .

قلت : بل الآن . . إننى أتحدث فى نفس الموضوع .

قال : الإيدز ؟

قلت : الإيدز ؟

قلت : نعم . . إنها لم تصب بهذا المرض الخبيث . .

ولكنى هى مثل كل الشباب مصابة بهذا المرض من وجهة نظر آبائنا وأمهاتنا . . منعوها من الذهاب للجامعة إلا فى صحبة واحد منهم . . وضعوا جدولاً لدخوها وخروجها . . ورتبوا حياتهم كلها على حياتها . . فأراحتهم جميعًا ، وتوقفت عن الدراسة . . وعن المذاكرة . . وقررت أن تتحجب وأن تختفى وراء خيمة اسمها الفستان ، ووراء قناع مثل قناع أرسين لوبين والباتمان اسمه اللثام . . صارت بعبعا فى البيت . . لا ترى أحدًا ، ولا يراها أحد . . وقالوا لها إن يراك أبوك ليس حرامًا ، و إن يراك أخوك أيضًا . . ولكنها قررت أنهم جميعًا حرام عليها . . وأن الجامعة حرام والدراسة حرام والخروج حرام . . وقررت أن تدفن نفسها بالحياة ـ فالحياة حرام !! .

وقلت لجارى : لماذا إذا تقلب الكبار بين الرأسمالية والإشتراكية الفابية (التدريجية) والاشتراكية العلمية والاشتراكية الوطنية والماركسية لا يصيبون أنفسهم بالإيدز . . أى يتعرضون لكل المذاهب . . ولماذا إذا صدرت قوانين وقوانين مضادة وقوانين مضادة للمضادة ، لا يتهم أحدهم الآخر بالإيدز. . لماذا الشباب وحدهم ؟ .

وانشغلت عن خطيب المسجد بهذا الذى دار بينى وبين فاطمة لآخر مرة . . هى أرسلت خطابًا تقول : أخى فى الله . . لقد تباعدت المسافة بيننا . بينى وبينك ألوف من الناس فى أيديهم السكاكين وفى عيونهم النار . . إنهم يخافون منك ويخافون علىّ . . مع أن الذى بيننا هو ما بين أخوين فى الله . . نؤمن بالله وكتبه ورسله وأنه لا شريك له وأن محمدا نبيه ورسوله ، و إن لله و إنا إليه راجعون . . والله حسبنا والقرآن سبيلنا . . وقد بدأت المشكلة بأن قلت لأبى على مسمع من أمى و إخوتى الصغار : إن السكوت عن الكفر نوع من

الكفر . . ولابد أن يقول الإنسان رأيه وأجره وثوابه عند الله . . وقلت رأيى .
وكان رأيى أن نضرب إخوتى الصغار حتى يصلوا . . لابد أن يصلوا . . وأن
نقول لهم إن السجائر ضارة وأن الخمر حرام . . ولأنها ضارة فقد حرمها الله . .
وأن وضع الأحمر والأبيض فى الوجه لغير الزوج حرام . . وأن الخروج بالأحمر
والأبيض حرام . . لأنه يضاعف فتنة المرأة ويلفت العيون إليها . . ورأوا أننى
مجنونة وأن شيئًا قد أصابنى . . وأنهم العقلاء . . وقد اعتزلونى . واعتزلتهم . .
ولم أعد أهتز كثيرًا لدموع أمى . . بل أنا الحزينة عليها . قلت كلمتى وأبرأت
ذمتى . . والله المستعان . . أختك فى الله : فاطمة .

إنه الإيدز يا فاطمة ! .

لا أظن أن تاريخ الإسلام قد عرف رجلاً استطاع أن يمسك نفسه عن
الضحك مثل الإمام ابن تيمية . فما أسخف الأسئلة التى وجهها إليه المسلمون
فى زمانه . . وبقيت الأسئلة فى كتابه الشهير «الفتاوى الكبرى» . . ولو كان
ابن تيمية حيا بيننا لضحك كثيرًا على فهم المسلمين للإسلام ولشباب
المسلمين . . ولأضحكه أكثر أن يكون كل شبابنا مرضى . وأن مرضهم هو
نقص المناعة . . وأنهم لذلك مستهدفون من كل ناحية ومن كل عاصمة ومن
كل دين ومذهب . . وأنهم بلا أبواب ولا نوافذ ولا أقفال ولا مفاتيح ولا
حراس . . وأنهم هكذا «مستباحون» . . مضيعون . . ضائعون .

مع أن الشباب قد وجد نفسه فى رفض الذى لا يعجبه . . ورفض الذى لا
يراه مقنعًا . و رفض أن يكون مصابًا بنقص فى المناعة . .

مثلاً : يريد الشباب قطعة أرض فى أى صحراء غربية أو شرقية . وعلى هذه
الأرض يبنى أحلامه الجديدة هو أسرته . . فكل شاب سمعت عنه قد تزوج .

أى أنه اختار الخطوة الصحيحة . . والبيت الصالح : زوجة وولد . . وأن يعمل الجميع من أجل مجتمع صغير اختفت منه كل عيوب المجتمع الكبير. . ومن ألوف الأسر التى بنت مستقبلها على الصحراء ، سوف يولد مجتمع مثالى . . قائم على العلم وعلى الإيمان بالله . . وعلى الإيمان بالبداية الصحيحة . . وعلى الإيمان بأن الإصلاح والصلاح ممكن . وأنه يبدأ عادة بخطوة فى الاتجاه القويم . . وخطوة من هنا وخطوة من هناك تتكون مسيرة مؤمنة . . وهذه البيوت الجديدة هى «الكارانتينة » أى « الحجر الصحى » ـ فالمرض فى المجتمع الكبير والصحة فى مجتمعنا الصغير . . وقد ارتضينا جميعًا هذا القرار من الشباب ومن الدولة . ولا يبقى إلا أن تساعدهم الدولة على أن يكونوا جزءًا سلبيًا فى الجسد المريض . . وكما أن المرض يعدى ، فالصحة أيضا . . وانقلبت الأوضاع : فالكبير المريض يخاف من الصغير السليم . . فبالله عليك من هم المرضى ؟ هل هو الصغير الضعيف أو الكبير القوى . . هل الصغير السليم ، لأنه صغير يعتبرونه مرضا ، وهل الكبير المريض لأنه كبير يرونه صحة ؟! .

انقلبت الأوضاع يا فاطمة ، فى بيتك وفى كل بيت وفى كل المجتمع العربى والإسلامى . . صدقينى يا فاطمة . . يا كاميليا . . يا كوثر . . ياعزة . . يا حواء . . صدقينى . . إن أكبر غلطة رتكبها الكبار فى حقنا نحن الشباب : أنهم لا يصدقوننا . . أنهم لا يأخذوننا مأخذ الجد . . لأنهم يروننا صغارا دائما ، وإذا كبرنا اعتبروا ذلك تطاولا عليهم ، وغرورا . . مع أنهم كانوا صغار مثلنا ، ثم طالت قامتهم وأيديهم وأرجلهم وألسنتهم أيضا . ولكنهم نسوا ذلك . . ويريدوننا أن ننسى ماضيهم ، وأن ننسى مستقبلنا أيضا . . صحيح أننا جميعا مؤمنون . . ولكن المؤمن القوى ـ الذى هو نحن ـ أفضل عند الله من المؤمن

الضعيف ـ وهم ضعفاء ! إنهم ضعفاء يا فاطمة . . أنت شمس أشرقت فى بيتك ، ولكنهم لا يرونها فهم عميان . . وهم أغلبية لا ترى . . والديموقراطية تقول إنهم على حق . . إنها ديموقراطية الإنسان وليست ديموقراطية الله ! .

ولما رجعت إلى البيت لم أنم . . وأخرجت من تحت المخدة ورقة وقلما . ونزلت من السرير وجلست أمامه وأسندت الورقة إلى ركبتى وكتبت لفاطمة أقول لها . . إنها أفضل منا جميعا . . إنها تحارب فى جبهة ضيقة . . إنها أفضل منا نحن الأحرار الذين ننتقل من مسجد إلى مسجد . . فهى مثل «المرابطين» أو الجنود يحرسون أرض المسلمين وبيوتهم . . ولم أجد أفضل من أن أنقل إليها ما جاء فى كتاب «الفتاوى الكبرى » للإمام ابن تيمية :

فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حراسة ليلة على ساحل البحر أفضل من عمل رجل فى أهله ألف سنة . . وقد سئل الإمام ابن تيمية وأيهما أفضل : سكنى مكة والمدينة المنورة وبيت المقدس بقصد العبادة والانقطاع لله أو سكنى دمياط والإسكندرية وطرابلس بقصد الدفاع عنها . وكان جواب الإمام ابن تيمية : إن حراسة مدن المسلمين أفضل من مجاورة المساجد الثلاثة . لأن الحراسة نوع من الجهاد . والمجاورة نوع من الحج . قال تعالى : «أجعلتم سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله » .

وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله . قيل له : ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مبرور.

وقد روى عن الرسول قوله : إن غزوة فى سبيل الله أفضل من سبعين حجة .

وقد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : رباط (حراسة) يوم

وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطا (حارسا مجندا) مات مجاهدا وأُجرى عليه رزقه من الجنة .

ويقال إن الخليفة عثمان بن عفان خطب فى الناس فقال : رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف فى غيرها من الأماكن .

وقال أبو هريرة : لأن أرابط ليلة فى سبيل الله أحب إلىَّ من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود ! .

وخشيت ألا يصلها خطابى . . وخشيت عليها أيضا . فهى مريضة ، وقد أكون أنا وما قلت وما سوف أقول سببا فى مرض أشد وموت أسرع . . واحتفظت بما كتبت مع كثير من أوراق لا أرى الوقت مناسبا لنشرها على الزملاء . .

* * *

حتى أنا لست قويا كما أتصور . . فكثيرا ماقلت وترددت ، وكتبت وشككت ، واندفعت وندمت . وتحيرت بينى وبين نفسى . . كأننى اثنان أو ثلاثة أو أكثر . . لست مريضا يا فاطمة . . لست واحدا يقبل القسمةعلى ثلاثة ، وإنما أنا واحد مضروب فى ثلاثة × ثلاثمائة = تسعمائة مليون مسلم فى القارات الخمس . . والله أعلم ! » .

على الناصية فوق مقعد !

منتهى أملى أن أجد فأرا يأكل قطا . . بشرط أن يلاعبه . . قبل أن يلتهمه . . قبل أن يلتهمونى . أريد كلمة حلوة . لمسة رقيقة ، وبعد ذلك يفعلون بى ما يشاءون . . أريد أن أشعر بإنسانيتى قبل أن أموت كالكلاب على جانب من الطريق . .

قلت ذلك لنفسى وأنا أجلس على مقعد على ناصية شارع وعينى على البلكونة المواجهة وفى يدى مجلة تكرمشت وتمزقت . ولا أعرف لماذا أمسك هذه المجلة . . هل لكى يفهم الناس أننى أقرأ . . هل لأننى اعتدت أن أمسك الكتب فى يدى . . ثم هذا المقعد الذى أحمله معى وأجلس عليه كلما شعرت بالتعب . . فقد قررت ألا أركب الأتوبيس وأن أمشى . . فإذا تعبت أنزلت المقعد من فوق كتفى وجلست عليه . .

وفى بعض الأحيان كان الناس يتوهمون أننى مخبر وأننى أراقب أحدا من الناس . . أو يتصورون أننى نجار . . أو أننى سرقت هذا المقعد . . لم يقل لى أحد ذلك ، ولكن عيون الناس تقول كثيرا ، وأنا لست قادرا على ترجمة أمينة لكل ما يقال . .

ولم أرفع عينى عن البلكونة التى أمامى . . ففيها سيدة حلوة تنشر غسيل

أطفالها . . الملابس صغيرة ومعلقة من ذيلها . . فالرأس والذراعان إلى أسفل . . وكنت أطيل النظر إلى الملابس الملونة النظيفة . . ولا أعرف عدد الأطفال ولا إن كانوا ذكورا أو إناثا . . ففى هذه السن الصغيرة من الصعب أن تفرق بين ملابس الأطفال . . ولم أر هؤلاء الأطفال مرة واحدة . . فقد اعتدت إذا مررت بهذا الشارع أن أختار الناصية وأن أسند ظهرى لحائط حديقة صغيرة وأراقب هذه البلكونة . . ولا أعرف لماذا تظهر هذه السيدة دائما مربوطة الشعر وبالقميص الطويل فى لون البشرة الوردية . . ولا أعرف بالضبط ما هذا الثوب فلم أر سيدة فى غرفة نومها ولم أر غرفة نوم . . لأن غرفتنا هى مكان النوم والأكل والمذاكرة والضيوف واستقبال بائعة البيض والجرجير . . كله فى مكان واحد . . ولم أجد أى سبب لأن أغير ملابسى فى أو وقت . . فالذى أرتديه فى الصباح يظل حتى وقت النوم . . وليس هذا هو حال الناس الذى يسكنون فى أكثر من غرفة وعندهم مناسبات عديدة . . لكل مناسبة غرفة فى البيت . . أو مكان بالقرب من الباب . . أمامه . . أو وراءه . .

وفجأة حدث تغير واضح فى البلكونة . . اختفت ست البيت وظهرت خادمة ريفية . . وعلى كتف الخادمة طفل أبيض نظيف مغسول . . والخادمة تداعب الطفل . . وتجلسه على حافة البلكونة وتوهمه بأنهاسوف تسقطه ليبكى الطفل . . وتختفى به ، ولكن صوته يجيء عبر الشارع . . ثم يسكت . . وتظهر مع طفل آخر أكبر . . وتداعبه ولكنه أجرأ من أخيه فهو لا يخاف إن هى أدلت به من البلكونة . . إنه يضحك . . وكأنها لا تريده أن يضحك فتمسكه من ذراع واحدة فيصرخ وتغيب به فى داخل الشقة وتعود بالطفل الأول . . ثم تحمل الاثنين على كتفيها . . ثم تختفى . . ولم أعد أرى ست البيت قط . .

وأصبحت البلكونة مثل فيلم قديم أراه كثيرا . . ووجدت المكان والقعدة

بائخة . ولم أستفد من النظر والتفكير شيئا . . إلا أننى أحب أن أتفرج على هذه السيدة الجميلة وأحلم وأتمنى وأتوهم وأذهب بعيدا . . أبعد مما تستطيع يدى وشهادتى وطموحى . .

وحاولت أن أفسر لماذا هذه البلكونة . ولم أهتد إلى المعنى الحقيقى الذى شغلنى . . فانصرفت عن البلكونة وعن الشارع وعن الفكرة . . وقلت لنفسى : لعل السبب أن يكون هو انبهارى بالملابس الكثيرة النظيفة . . وبالأم الجميلة والشقة الأنيقة ـ وكلها مما لم أعرف فى حياتى . .

ودون تفكير وجدتنى أذهب لآخر مرة إلى نفس المكان . . وبدلا من أن أجلس على الناصية الأخرى ، جلست تحت البلكونة وأمسكت المجلة لكى اقرأ ما سبق أن قرأت عشرات المرات . .

ونظرت إلى أعلى ورأيت الذراعين والعنق وجانبا من الصدر . . وسمعت صوتها . . وصوت الأطفال وهم يلعبون ويضحكون . . وكان للأصوات رنين خاص . . يدل على اتساع المكان . . وعلى أشياء أخرى لم أتعودها . . بل وشممت رائحة هى خليط من العطر والطعام وما لا أعرف . وفجأة وجدت أمامى الأستاذ «كامل . . » . إنه أمين مكتبة الجامعة . . ونهضت تحية له . . واندهش لرؤيتى وسألنى كثيرا وبسرعة عن وجودى . . وأين أعمل . . ولماذا الجلوس هنا . . وإنها لصدفة سعيدة حقا أن يكون ذلك بيته وتحت بلكونته . . وإننى ابن حلال وإن حماتى تحبنى . . ولذلك فهو يدعونى إلى الغداء . . وإنه شخصيا ميت من الجوع . . وإن والدته قد أرسلت له فطيرا مشلتتا من البلد مع العسل والجبنة القديمة . . إنه فى حاجة إلى أن يحدثنى فى مواضيع كثيرة بعد أن عرف أننى عضو نشط فى إحدى الجماعات . . وأننى إن لم أكن الزعيم فأنا أحد الزعماء والقادة . . و . . . و . .

وأعتقد أن الذى قلته كان قليلا وتافها . فلم يزد كثيرا عن : نعم صحيح . . ربما . . مبالغة فلست إلا واحدا من كثيرين . . إنهم أحسن حالا منى . . فهم يعرفون من أين جاءوا . . ومن هو الأب الروحى ومن هى الأم المثالية . . أما أنا فقد انقطعت جذورى كلها . . أنا ورقة سقطت من شجرة لا أعرف اسمها . .

كان ذلك موضوع المناقشة الذى دار بينى وبينه بعد الأكل فى الغرفة التى لها بلكونة على الشارع الآخر . .

قال : ماذا جرى . . حدثنى . . أريد أن أطمئن عليك . .

قلت : إنها مشكلة تربوية . . أنا على يقين من أمى وأبى . عشت بهما ومعهما . ولكن ما الذى تعلمته منهما . ما الذى قالاه . . ما الذى تركاه . . لا أمى علمتنى شيئا سوى الخوف من الأيام ومن الناس . . وأبى لم يعلمنى سوى الصبر على المصائب والإيمان بأن الغد أفضل . . وعاش أبى ومات ولم أجد الغد أفضل من اليوم ، ولا اليوم أحسن من الأمس . . فقد كانت حياة أبى «أمس» متصلا . . بينما الأطفال اليوم تعلمهم وتلقنهم الخادمات . . فالأم تعمل والأب أيضا . والخادمة هى « بدل فاقد » . . بديل عن الأم المتعلمة التى ليس عندها وقت . . فكأنها لا تعلمت ولا قرأت ولا كتبت . . إنها نزلت عن علمها للوظيفة وتركت الخادمة تعلم أطفالها بالجهل والقهر والخوف . . ويتولى التليفزيون دور الأم . . فالأم تجلس إلى جوار طفلها سعيدة بأنه لا يتكلم وتترك للتليفزيون وظيفة الأب والأم والخادمة والمجتمع . . تمام؟ .

ـ تمام ! .

ـ ثم الكتب المدرسية تقول لنا إن الزعيم الخالد لم يخطئ . . والزعيم المؤمن

لم يخطئ وعرابى لم يخطئ وسعد زغلول لم يخطئ وكذلك رمسيس الثانى . فمن أين جاءت الكوارث والمصائب : ومن أى نوع من الناس كان هؤلاء الناس . . كيف لا يخطئ الزعيم الخالد وهو ابن يتيم . . فقير . . وهو الذى انهزم وانكسر وضرب مصر وسجن من أبنائها مئات الألوف . . قتل وخرب البيوت . . وكيف لا يخطئ الزعيم المؤمن ، وهو الذى يوما أغضب كل المؤمنين بكل دين . . وهو الذى فضح كل عورات سلفه برقة ولطف . . وعندما أعلن أنه مسئول عن كل أخطائه ، كشف هذه الأخطاء . . وكيف لا يخطئ وقد تغير المجتمع المصرى من العزلة والسجن إلى الانطلاق والانفتاح . . ألم يكن هو الآخر متطرفا كما كان ضحية للمتطرفين . . ثم كيف رفع سقف الدخل العام وفتح أبواب الكسب على الآخر . . الحلال والحرام . . ثم سبق الضمير العربى مئات السنين وأكمل الصلة بينه وبين إسرائيل قبل أن يتخلص المصريون والعرب من الكراهية التقليدية لليهود . . ولما سبق الجميع فى المشوار الطويل وقف ينتظرهم فوجدهم ما زالوا فى أماكنهم . . هل هو الذى خان الأمانة . . هل كانت الأمانة أن نمشى معا فإذا به يجرى ، أو كان الاتفاق أن نجرى معا فإذا بأجنحة تنبت فى ذراعيه فيكون نسرا يحلق بعيدا عاليا أمامنا وفوقنا . . فما الذى لم تقله الصحف فى مصر وغيرها عن الزعيمين : الخالد والمؤمن . . أو الخالد بلا إيمان والمؤمن بلا خلود . . وإذا كان الزعماء آباء الشعوب ، فأى نوع من الآباء هذان الرجلان : عبد الناصر والسادات . . وكيف قالت الكتب المدرسية إن عرابى لم يكن صاحب ثورة وإنما صاحب «فورة» . . وإن سعد زغلول كان رجلا مقامرا . . وإنه ركب الأحداث وامتطى الموجة . . وبعملية حسابية بسيطة تجد أن آباء الشعوب ليسوا آباء . . وهكذا نجرد الشعب من آبائه . . نجعله يتيما . . لقيطا . . ويقوم بدور الخادمة والمربية : المؤرخون والصحفيون . .

قال : هذا الذى يشغلك . . ويعذبك . . ويجعلك تحمل مقعدك معك

فى كل مكان . . تماما كأبناء الصعيد المستعدين للتضحية ، يحملون كفنهم معهم . . أو هل أنت قررت أن تكون على الهامش . على الرصيف . . لا أنت تمشى ولا أنت تدخل أى بيت . . وإنما جالس كأنك تنتظر . . وتنتظر كأنك على موعد . . ولا أنت تنتظر أحدا ولا أنت على موعد . . ولا حتى اختيارك لهذا المكان له معنى . .

قلت : تقريبا . .

قال : إذن ليس دقيقا هذا التفسير لسلوكك ؟ .

قلت : لا شىء دقيق . . ولكن كل شىء بالتقرب . . هل تذكر سيادتك الأطفال الذين أرضعتهم الذئاب والغزلان . . حدث كثيرا فى التاريخ أن وجدوا طفلا يجرى بسرعة بين الذئاب . . أمسكوه . . وجدوه يطلق أصواتا كالذئاب . . لا لغة . . لا إنسانية . . ويأكل اللحوم والجيف . . أو ذلك الطفل الذى أرضعته غزالة . . يجرى مثلها ويطلق أصواتا مثلها . . ويأكل الأعشاب وينام بين الغزلان . . . ولما أمسكوهم لم يجدوهم ينطقون . . واحد من هؤلاء الأطفال أمسكوه فى مدينة افريون بفرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر . كان عمره عشر سنوات . . أخذوه . . حاولوا أن يجعلوه إنسانا . لم يفلحوا . كان بليدا غبيا لم تستطع أمه الغزالةأو الذئبة أن تجعله إنسانا . . إنما كأنه جالس على مقعد بين أمه الذئبة الحاضرة وأمه حواء الغائبة . . والتف حوله الأطباء . . وجعلوه يعيش أربعين عاما . . ولكنه لم يتقدم نحو الإنسانية خطوة واحدة . . فهو لا يعرف كيف ولد ولا يعرف كيف استمر ، ولا يدرى كيف نهايته . . عاش كما مات لا هو إنسان ولا هو حيوان . . لا وجد أمًّا ولا أبا ولا خادمة ! فهمت سيادتك ؟ .

ـ فهمت . .

ـ فهل نحاكم الطفل الإنسان الذى لم يعد إنسانا . . هل نحاكم الطفل الذئب أو الطفل الغزال ، لأنه ليس ذئبا ولا غزالا . . وإذا حاكمناه ، فما اسم القانون . . وإذا عرفنا اسم القانون فما هى التهمة . . وهل هو الجانى أو المجنى عليه . . القاتل أو هو القتيل ؟ هل فهمت سيادتك ؟ .

ـ نعم فهمت ! وماذا ستعمل ؟ .

ـ أنا أعمل ؟ أنا مثل رجل مفلس يحلف على المصحف كل يوم أنه سوف يوزع ثروته على الناس بالعدل ! فأنا صادق عندما أحلف على المصحف ، كاذب عندما أعد الناس بأى شيء ! .

ـ حتى الأمل ؟ .

ـ الأمل ؟ . . اغتالوه ! .

ـ الحل ؟ .

ـ أنا عندى حل ؟ ! .

ـ لابد أن يكون هناك حل . . عندك . . وعند أمثالك من الذين يتعرضون لقضايا التوجيه والتصحيح . . والتقويم . . والتسير وإلا فما معنى كل هذا العناء . . أو هذا ما أتصوره . . وأتوقعه . . ولكن إذا نقلت دوختك للناس ، فالناس ليسوا فى حاجة إلى مزيد . . وإذا قلت إنك لست على يقين ، فقد أفسدت على الناس إيمانهم وأملهم . . وإذا أنت تشبه الزمار المعروف فى العصور الوسطى باسم زمار «هاملن» . . الذى راح ينفخ فى المزمار فمشى وراءه الأطفال ظنا منهم أنه يدعوهم إلى السيرك فإذا به ينزل بهم إلى البحر . . ليموتوا وراءه . . أو كالرجل الذى ادعى النبوة والألوهية فى أمريكا واستدرج وراءه عشرات الشبان ثم دعاهم إلى الانتحار الجماعى فى غابات الامازون . .

أنت كالذى أقنع قوات عرابى أن تقيم حفلات الذكر طول الليل فى مواجهة القوات الإنجليزية التى أكلت ونامت واستراحت ثم هاجمت جنودا أرهقهم الذكر والسهر طول الليل . . فمن الطبيعى أن ينهزموا . . بل لقد هزموا أنفسهم قبل أن يهزمهم الإنجليز . . وقد حدثنا الجبرتى عن أناس مثلك واجهوا قنابل الفرنسيين بأن ظلوا يذكرون «ويفقِّرون » قائلين : يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف . . لا أكثر ولا أقل !.

ـ إننى أبحث عن آباء لنا وأمهات . .

ـ يا أخى وما حاجتك إلى أم وقد بلغت . . بل أنت تبحث عن بديل عن الأم . . عن الزوجة . . التى تكون أمك وأختك وابنتك أيضا . . أى عن التكامل العائلى . .

ـ يا سيدى ليس هذا بالضبط . . وإنما أفسر هذا الشعور باليتم عندنا . . هذا الشعور بأنهم اقتلعونا من جذورنا . . فنحن أشجار مالت على جانب الحقل، فقد نزعوها من أرضها . . ثم طالبوها بأن تعتدل . . كيف ؟.

ـ وهل انعدمت القدوة فى التاريخ . . أين الأبطال . . أين الأبرار . . أين الشهداء . . أين الرسول والخلفاء والصحابة . . أين كتاب الله . . أين الله؟ . .

ـ الآن أنت اقتربت من المعنى الذى أريد . . كل ذلك يجب أن يوضع فى كتب المدرسة . . فى برامج الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات . . ولست أنا ولا أنت قادرين على ذلك . . إن هناك إصرارا على أننا لقطاء . . ويجب أن نكون . . يتامى . من الضرورى أن نظل كذلك . . كأننا أبطال فى أحد أفلام نجيب محفوظ . . أعطونا صورة للأب وطلبوا منا أن نبحث عنه وسط الملايين. . لا بأس . . ولكن من عجيب أمرهم أنهم يغيرون هذه

الصورة من حين إلى حين. . تعددت الصور والهدف واحد . فكيف يكون الأب واحدا ، والصور كثيرة . . وقد أسقطنا اليأس من جدوى البحث . . ولذلك فنحن فى انتظار المعجزة ! .

ـ موافق تماما . و لماذا تأخذ البحث عن الأب وفقا لهذه الصورة . . إن أحدا لا يعرف كل صور العظماء فى التاريخ ، فقد بقيت أعمالهم . . إن علماء الحملة الفرنسية قد نقلوا كل آثار مصر الفرعونية بأيديهم . . ولم تكن هناك كاميرات . . ولما ظهرت الكاميرات ازددنا إعجابا بهم ، فقد صنعوا المستحيل. . والقوات الفرنسية عندما ذهبت إلى الأقصر بهرتها الآثار العظيمة، ولذلك ألقوا السلاح احتراما للتاريخ . . لم نر هذا الصورة ، ولكن نستطيع أن نتخيلها . فالحديث نفسه أبلغ من الصورة . . وفى التاريخ أحداث أعمق وأبلغ من أن يصورها قلم أو كاميرا . . إلا إذا كنت . .

ـ إذا كنت ماذا ؟ .

ـ إذا كنت لا تعنى ما تقول . . إلا إذا كنت اخترت الرصيف . . إلا إذا كنت قد اخترت هذا المقعد عكازا لكل جسمك وعقلك . . وأنك قد أنهيت مهمتك ودورك قبل أن تبدأ شيئا . .

وأخرجت من جيبى صحيفة الأمس وأشرت إلى الصفحة الأولى ووضعت أصبعى على خبر يقول : النار شبت فى مخازن إحدى دور نشر الكتب المدرسية . .

فسألنى : أنت الذى فعلت ذلك ؟

قلت : يعنى ! .

قال : غلط . .

قلت : لماذا ؟ .

قال : سوف يقال إنه ماس كهربى . . وسوف يقال إنه فأر دخل بين الأسلاك . . وسوف يقال عود كبريت . . وسوف يقال إن الحارس عندما اكتشف سرقة بعض الكتب أشعل فيها النار . .

ثم أخرجت من جيبى ورقة أخرى . وطلبت منه أن يقرأها . . فقال أنت الذى كتبت هذا المنشور تعلن غضبك على هذه الكتب التى تجرد الشعب من أن يكون له أب . . أو مثل أعلى . . وتستنكر تزييف التاريخ الوطنى .

قلت : لست أنا . . ولكن لابد أنه أحد أعرفه . . وهذا غلط أيضا . . فإحراق الكتب ليس حلا . . ولكن المهم أن يتولد شعور عام وبإيمان عام بضرورة الصدق . . بضرورة أن نرى الإنسان إنسانا لا إلـها ولا ربع إلـه . .

قال : كيف ؟ .

قلت : لا أعرف . . ولكنى أرى وأسمع موجات اليقظة . . نسمات الصحوة . . فقد انكشفنا جميعا أمام أنفسنا . . نحن لا نصدق أحدا . . نحن جميعا يكذب بعضا البعض . . ولا نثق فى الذى يقال ولا فى الذى نقول . . ومن التكذيب المتبادل والاستنكار المتزامن ، والكفر والتفكير سوف نصل إلى حقيقة واحدة هى : أنه لا خلاص لنا إلا بالصدق . . بالاتفاق على حقائق ثابتة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ولا من قدامها . . وليس ذلك ببعيد . . إنه فى أيدينا . . فى قلوبنا . .

ـ فقط ؟

ـ وهل هذا قليل ؟! .

ـ هل تتركنى أفكر ؟ .

ـ هذا كل ما أتمناه لى ولك ولنا ! .

وانصرفنا وسمعته يقول : مجنون ؟ نعم مجنون ! .

الفخر والهوان والندم !

كل يوم أكتشف شيئا جديدا فى نفسى . . فأنا ما أزال غارقا فى أعماقى ، لم أفلح فى أن أخرج منها بعد . ولكن أعتقد أننى سوف أستطيع . . لابد أن يكون السبب هو عبارة قرأتها قديما تقول : اعرف نفسك أولا وبعدها تستطيع أن تفهم الناس . صح . ولكن المشكلة أننى أحاول أن أعرف نفسى . . فلم أجدنى قد نجحت كثيرا . فكيف أعرف الناس . حتى أصبحت مثل واحد ركب قطارا وأخرج رأسه من النافذة لتضربها أعمدة التليفونات واحدًا بعد واحد . . وكل ليلة أعود إلى فراشى أحاول أن أجمع فتافيت دماغى ومسحوق أفكارى لعلى أفهم شيئا ـ إننى أحاول . .

أما الذى اكتشفته فهو أننى أذهب من حين إلى حين إلى جبلاية القرود . . وأقف أتفرج على الإنسان فى صورته البدائية . . نفس الوجه والنظرات والزحام وسيطرة القوى على الضعيف . . الأب أو الذكر يجلس عاليا كأنه عمدة . . أو كأنه قاطع طريق وبقية الشعب يجلس بعيدا . . والأمهات حائرات بالصغار . . وكلما شخط العمدة ارتعدت الأمهات وتحداه عدد من شباب القرود . . فإذا جاء الطعام تزاحموا وتقاتلوا ونسى الصغير حجمه وداس الشباب على الشيوخ وانهارت الأمهات تحت الأقدام . . وليس بين القرود قانون ـ إلا قانون القوة والعضلات والحناجر . .

ثم أتفرج على طابور الجمعية . . إنه مثل جبلاية القرود وقد دخلها بعض

النظام . . أما القوى الجبار فهو موظف الجمعية . . فى حالة غضب دائم وقرف مستمر . . وهو لا يتكلم . . ولكن نظراته كرابيج ، وصمته قاتل . . والناس يرون السلع تخرج بلا طابور . . ويجدونها قد التفت فى أوراق أنيقة وسلمت إلى سيارات أكثر أناقة تقف بعيدا . . والمعنى واضح . و لكن لماذا هؤلاء القادرون يجيئون ، مع أن فى استطاعتهم أن يبعثوا بالخادم أو السفرجى يتولى ذلك عنهم . ولكنهم لا يفعلون لأنهم يجدون متعة فى إظهار عظمتهم وذل الناس ، وقدرتهم وهوان الناس ، فهم يجلسون فى سيارة والناس وقوف، هم يدخنون والناس يحترقون ، والسلع تسعى إليهم ، بينما الناس يكافحون حتى يصلوا إلى نهاية الطابور ليسمعوا : تعالوا بكرة . . إنها متعة الفرجة على تعذيب الناس وإذلالهم ! .

أما بقية المشوار إلى البيت فمعروف وهو أننى أمر على مقابر الإمام الشافعى . . نهاية كل حى . . أرض السلام الأبدى . . لا أكل ولا شرب ولا عمل ولا عائلة ولا مستقبل . . انتهى كل شىء . . أغلقت كل الحسابات وقضى الأمر . . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . آمنت بالله . . أين العمدة . . لا عمدة . . أين الرعية ؟ راحت عليهم نومة . . أين الطابور ؟ تحت الأرض لا طوابير . . المعنى : إن كل من عليها فان . ولكن قبل أن يفنى كل من على الأرض لابد أن نعيش . . فقد ولدنا لنعيش وبعدها نموت . . وليست المشكلة كيف نموت ولا أين ومتى نموت . . المشكلة هى كيف نعيش وأين وكيف ومتى . . المشكلة هى جبلاية القرود وطابور الجمعية وأتوبيس المدرسة والاستقبال فى المستشفيات . . المشكلة هى أن نعيش اليوم ونموت غدا . . واليوم طويل جدا ، وغدا قصير جدا . .

أنا تعلمت . وأريد أن أعمل . وإذا عملت أن يكون عملى هو الذى

تخصصت فيه . . وأن أعرف بنت الحلال وأجد البيت وأتزوج وأكون قادرا أنا وزوجتى على تربية طفلين . . وفى نفس الوقت الذى نعلم فيه الطفلين ، نكون جميعا قادرين على الحياة ، ليكون أطفالنا فى صحة جيدة ، وفى حالة عقلية متوازنة . وبدلا من أن نضاعف عدد البائسين ، نخلق جيلا أكثر شجاعة وأعمق تفاؤلا ، وأسرع تسامحا ، وأقدر على بناء بلده أفضل من هذا البلد الذى ولدنا فيه ومتنا على أرضه ـ وهذا هو التطور . . ولكن لا نريد أن يكون أولادنا مثل الدود الذى خرج من المش . . ابن النكسة ، رضيع العار ، سلالة الفشل ، طين البرك . . وإنما نريد لكفاحنا أن يتولد عنه ما هو أجمل وألطف وأسلم . . إننى أرى الأطفال لا يكاد الواحد يرى الآخر حتى يتلامسوا ويدور حوار ويلعبون ويتعانقون . . إنهم ليسوا فى حاجة إلى مجهود كبير ليتعايشوا ويتحابوا . . ولكن الشباب يحتاج إلى وقت أطول . . أذكر أننى ذهبت مع طفل صغير إلى حديقة الحيوان وانشغلت عنه بالنظر إلى الأفاعى . .

ولما بحثت عنه وجدت معه قطعا من الشيكولاته وبرتقالة وحصانا من خشب . وسألته : من أين ؟ فأشار إلى أطفال آخرين . إنه لم يطلب . ولكنهم الأطفال يتعارفون ويتحابون ويشاركون بغير كلام ؟ هذا هو الحب وهذا هو السلام وهذه هى البراءة .

أنا أقول لك بالضبط ما الذى أحس به الآن . . إنى مثل عنكبوت أفرز خيوطا . . شبكة . . مصيدة . . أفكارى ومشاعرى هى المصيدة . . ولكنى تعلقت فيها فى حالة تربص . . والذى يرانى يحس أننى مشنوق . . معلق . . مصلوب من أفكارى . . و لكن هذه حال كل إنسان . . فكل واحد يفرز أفكاره ويتعلق منها . . يعيش بها ويموت بسببها أيضا . هل هناك حل ؟ لا

حل . فكل واحد كالمسيح يحمل صليبه . . يحمل مبادئه التى يعيش بها ويموت عليها . .

فإذا كان هذا رأيى فما الذى يضايقنى ؟ . يضايقك ؟ أنا أقول لك . . يضايقك أن أفكارك ليست هى أفكار كل الناس . . فإذا كانت أفكار كل الناس ، فلا يبقى إلا تطبيقها . على من ؟ على نفسك ثم على الآخرين . . أو بالتضامن مع الآخرين .

ـ لا تنس أننى أكلم نفسى ! .

ولابد أن يجد كل واحد منا العمل المناسب فى الوقت المناسب . . ولكنك وجدت العمل المناسب. هذا صحيح . ولابد أن يجد زملائى العمل المناسب أيضا .

سؤال آخر من فضلك : أنت وجدت العمل فهل أمسكت قلما وورقا وعملت بقرش واحد مما تتقاضاه فى نهاية كل شهر ؟ . أنت نسيت . أنت لم تفعل أى شىء . . أنت تشخط فى الناس الذين يتحتم عليك أن تخدمهم وأن تتذكر كيف كان الموظفون يعاملونك يوم ذهبت تستخرج شهادة وفاة . . هل نسيت ؟ هل نسيت ما وعدت به نفسك وتعهدت به أمام الله أن تكون «قدوة» لأنك صاحب رسالة . . فلا أنت كتبت ولا أنت رحبت بأحد ، ولا أنت وفيت بما وعدت وتعهدت . . فليس صحيحا أن لك شكوى وإنما أنت تبحث لك عن مبرر . . هذا المبرر هو ألا تعمل فى انتظار أن يعمل كل زملائك . . كأنك قبطان فى سفينة تغرق . . لابد أن تكون آخر من ينجو من السفينة . . والحقيقة أنك لا قبطان ولا هناك سفينة تغرق . . وإنما أنت الذى أقام السفينة وأغرقها وجعلت نفسك قبطانا لها . .

أنا أصارحك بحقيقتك ـ كل هذا حديثى مع نفسى وهو حديث طويل عنيف . .

الحقيقة هى أن الذى تحقق فى بلادنا كثيرا جدا . . فأنت كل يوم تفتح الحنفية فينزل الماء وتضىء الغرفة وإذا ذهبت إلى البقال وجدت أكثر ما تحتاج إليه . . وكذلك عند الفرن وفى الأتوبيس والقطارات مقاعد . . وفى المدارس والمستشفيات . . كل شىء موجود . . أو أكثر مما تحتاج إليه موجود . . لا تقارن بين مصر وأمريكا . لا منطق . . لا سبب . ولا تقارن بين مصر وبريطانيا . لا وجه للمقارنة . والأرض محدودة والأرزاق . . والناس يزيدون . . ولا أحد يريد أن يتوقف عن زيادة أفراد أسرته . . وجاءت الحروب وأكلت الناس وأرزاقهم . . والتهمت آمال الناس وأطاحت بأحلامهم . . إن أوروبا عرفت حربين فى هذا القرن . . ولكننا عانينا فى ربع قرن أربع حروب مضافا إليها الحربين العالميتين أيضا . . أى ست حروب . . والآن عندنا حرب فى مكان ووقف إطلاق النار فى مكان آخر . . ثم الحروب بين العرب . . وبين المسلمين . . ثم استنزاف الطاقة البشرية واستنزاف للأموال وإحراق للأعصاب وتبديد للعقول . . وكل ذلك ليس بعيدا عنا ـ ونحن الدولة الأفرو آسيوية الوحيدة فى العالم . .

وأنت تشعر بالفخر كثيرا عندما تتحدث عن مصر ، أمام أحد من الأجانب العرب أوالخواجات . . تشير إلى الأهرام والحضارة القديمة والنيل العظيم . . وإننا لم نبرح هذه الأرض من ألوف السنين . . بينما الشعوب اليهودية فى إسرائيل قد اقتلعوها من كل أرض وجمعوها وحشروها فى قلب الوطن العربى . . وعادوا يغرسون جذورها فى أرض غريبة . . لقد كان موسى عليه السلام بالغ الحكمة عندما وصف نفسه بأنه «غريب فى بلاد غريبة» . . وهم غرباء فى

أرض غريبة . . ولكى يذيبوا الفوارق المذهبية واللغوية بينهم ، كان لابد من اسكاتهم بالحرب ـ أى بأن يصبحوا جنودا يوجهون سلاحهم نحو عدو واحد دون أن ينطقوا بكلمة . ولو نطقوا فلن يفهم أحدهم الآخر . . ولو تحقق السلام فجأة بين إسرائيل والعرب لتقطعت إسرائيل ألف قطعة وألف لون ومذهب فى الدين وفى السياسة وفى اللغة . ومع ذلك فنحن لا نريد السلام ـ وهى غلطتنا . . وهم يريدون السلام ـ وهى غلطتهم ! .

فأنت تشعر بالفخر أمام الأهرامات وأمام الكفاح المصرى المسلح والكفاح من أجل السلام والاستقرار . . ويكون شعورك هذا معناه ، أنك راض عن كل شىء ، كأنك ساهمت فى كل شىء . . فأنت لم تساهم فى بناء الهرم ولا الحضارة المصرية . . ولكنك تقول : أجدادى فعلوا . . أجدادى ابتكروا . . أى أنك واحد من هؤلاء الذين حققوا العظمة المعمارية والأبهة التاريخية .

ويقابل ذلك شعور بالعار . . فعلى الرغم من أنك تفخر بأن أجدادك هم الذين صنعوا الحضارة القديمة ، فإن أباءك لم يفعلوا شيئا من ذلك . . وتقفز إلى ذهنك حروب ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ . . وكلها هزائم بسبب سوء الفهم وسوء الاستعداد والضغوط عليك من داخلك ومن خارجك . . صحيح أنك لم تحارب . . ولكن أباءك هم الذين فعلوا ذلك . . فأورثوك الخزى والقرف واليأس . . فإذا قرأت عن الذى فعله الروس والإنجليز والذى فعله الأمريكان والألمان واليابان ، أصبح شعورك بالعار عميقا . . فلا صبرنا ولا نابزنا ولا ضحينا ولا غضبنا ولا ثرنا على القاتل والسفاح . . ولا تجمعت أيدينا فى يد واحدة . . ولا توحدت أصابعنا فى إصبع واحدة تشير إلى رجل واحد وتقول : الخائن . . اشنقوه . . بل وزعوا علينا خلاياه لنشنقها فى كل بيت . . هذا هو العار . . هذا هو الانكسار للرأس ، والعنق والظهر . . وهذا هو العار الذى

أغرقنا فى كل مرة نتطلع إلى القادة فلا نرى إلا دخان الحشيس وإلا الشذوذ الجنسي والمواخير . . وإلا رجلا أكرهوه أن يؤذن غير متوضئ لصلاة الفجر عند منتصف الليل . . ثم تقرأ فى الكتب وفى الصحف أننا انتصرنا ، وأننا عندما أعطينا العدو قفانا تركناه يصفعنا حتى أوجعته يده . . وتركناه يبصق علينا حتى جف ريقه . . ثم دعونا عليه أن يخرب الله بيته ، ويشرد أولاده وألا يعيدهم إلى هذا البلد ـ جزاء وفاقًا لما فعل بمئات الألوف من الشباب ماتوا بغيظهم وغيظ أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم . . وعارنا ! .

أنت تريد الآن أن تصنع لنفسك كوبا من الشاى ؟! اجلس ! أنت تريد أن تهرب منى . . من نفسك . اجلس دعنى أكمل كلامى . . فالكلام المؤلم هو الذى سوف أقوله الآن . . اسمع ـ إننى أكلم نفسى . . أؤلم نفسى :

والشعور الثالث : هو الندم . . أى شعورك بالذنب . أنت مذنب . . لأنه لا أحد برىء . . تقول إنك لم تحارب . تقول إنك لم تكن مسئولا عن شىء . وإنما وجدت أباءك يعبدون الثور . فمضيت تعبد الثور والحيوانات الأخرى . إن أجدادنا الذين أقاموا الهرم كانوا يعبدون العجل . وعبادة العجل لم تمنعهم من إقامة الحضارة الفرعونية كلها . . فقد قامت على قرنى ثور . . وأساطير الأغريق تقول إن الأرض يحملها ثور على قرنيه . . والزلازل والبراكين تقع عندما ينقل الثور الكرة الأرضية من قرنه الأيمن إلى قرنه الأيسر . .

ولكنك ندمت يا سيدى . . فأنت ترى كل ذلك وتسكت . . هذا ذنب . أن تقرأ عن كل هذا وتبلع ريقك ، هذا ذنب . . أن تنسى ذلك بالتردد على جبلاية القرود ومقابر الإمام هذا ذنب . . أن تجد عملا ثم تنشغل بزملائك الذين لا يعملون ، هذا ذنب . . أن تؤجل عمل اليوم إلى مابعد غد هذه خطيئة . وأن تعتاد على هذا الشعور وأن تقف محلك سر . . فأنت نادم على

ذلك . . وأن تدعو الناس كلها لكى تستشعر المشاركة التاريخية فى كل ما يدور حولهم من أحداث السياسة والحرب والخلافات بين الطوائف والفئات . . هذا واجب . ولكن أن نكتفى بهذا القدر من المشاركة والمصافحة والنظر إلى الوراء فى يأس وإلى الإمام فى غضب والسكوت عن الحاضر هذا هو الإثم . . وأن تستمرئ هذا الشعور بالذنب والتوقف عند ذلك ، فهذا هو المرض . أخطر أمراض العصر : أن تشعر بالندم ، وأن تجعل الندم سلوكا عاما . فتضع فرامل على طاقاتك وعلاقاتك . . ثم تشكو من عجزك عن فعل شىء . . وتدعى أن الذين عمقوا فيك الندم هم الآخرون . . وأنهم آباؤك وأجدادك قبلهم . . وهكذا تؤمن ـ كاذبا ـ بأنك ضحية . . الجيل الضحية . . الجيل الفريسة . . الذى قصفوا أظافره ونزعوا أنيابه وسرقوا حنجرته ، وسدوا معدته ـ مع أنك تأكل وتشرب وتضحك وتحب وتكذب وتتخيل وتجلس فى مقاعد الزعماء . . وتصلى وتطلب من الله أن يعينك أنت والآخرين على مواجهة الممكن والصعب والمستحيل ـ وأنتم جميعا كاذبون . . فى حياة كل منكم مشاكل صغيرة ـ مثلا : هل دفعت فاتورة النور . . الفلوس فى جيبك . ولكنك لا تذهب . . هل سددت البقال . . لم تفعل . مع أن الفلوس فى جيبك . . هل ذهبت تقرأ الفاتحة على روح والدتك يوم الخميس الماضى . . لم تذهب مع أن المقابر فى طريقك ذهابا وإيابا . . هل فى استطاعتك أن تقول اسم الدولة العظمى التى منعتك من تعاطى المضادات الحيوية حتى لا يكبر الدمل فى عينك . . هل تدلنى على اسم القوى الاستعمارية التى جعلتك تقفل التليفون فى وجه أختك ، مع أنك أنت الغلطان . . ثم من هى العصابة الشيوعية أو الشيعية التى جعلتك تكذب على فتاة مسكينة غلبانه قويمة الخلق متفوقة عنك فى الدراسة وفى الظروف المادية فتعدها بالزواج ؟!

جعلت أتلمس رأسى وعنقى . . فقد انهالت الضربات على كل مكان . .

فوجدتنى مدشدشا . . وفتحت صدرى للهواء القليل الذى جاء من ناحية المقابر . . ونظرت إلى وجهى فى المرآة : مجرم أنا ؟ كذاب ؟ لا أمل فى شىء . .

ولم أشأ أن أشرب الشاى وإنما وضعت إصبعى وتركتها تحترق . . ولا أعرف كيف سيطرت على شعورى بالألم . . وتمنيت أن أقفز فى هذا الكوب وأحترق مثل إصبعى . . لينتهى كل شىء .

ثم تركت الشاى والبيت وخرجت لكى ألقى بنفسى بين الناس هاربا من نفسى . . ورحت أنظر إلى كل شىء حتى لا أنظر فى نفسى . . وحاولت أن أحشر الدنيا كلها بينى وبين نفسى حتى لا أسمع شيئا وحتى لا أقول شيئا . .

وعند أقرب محطة أتوبيس جلست . مع أننى لا أركب الأتوبيس . . وأخرجت منديلا من جيبى وعريت جانبا من الساق وربطتها . . فقد وجدت سيدة تحمل رضيعًا على صدرها وفى يدها طفل . . فحاولت أن أبدو أمامها عاجزا عن الوقوف . إنه كذب على نفسى وعلى الناس . وخجلت من نفسى فنهضت . ومشيت ومشيت . .

ولا أعرف كيف وصلت إلى بيتها . . تلك المسكينة التى وعدتها بالكثير . .

وفتحت هى الباب . وقلت لها : تعالى معى ! .

قالت : إلى أين ؟ .

قلت : إلى المأذون ! .

قالت : المأذون هنا ؟ .

قلت : هنا ؟ كيف ! .

قالت : اليوم كتب كتابى . .

قلت : على من ؟ .

قالت : لا يهم ادخل . . أختك هنا . .

قلت : أختى ؟ هنا ؟ ! كيف ؟ .

قالت : أنا أعطيتك مهلة ستة شهور . . ومضت تسعة شهور !

قلت : تسعة شهور ؟ ! يعنى إيه ؟ .

قالت : يعنى أنك ، مثل الآخرين ، عاجز عن اتخاذ قرار واحد فى حياتك . . أنت تنتظر دائما من يقرر لك . ثم تحتج وأخيرا تستسلم تماما . وهذا ما حدث . . لقد قرر شخص آخر أن يتزوجنى ! .

قلت : صح . صح . . الفخر بك والعار بعدك ثم الندم عليك . . صح ! ـ مع الأسف ! .

أفكارنا المستعارة

أصبح من عاداتى أن أندم على الذى قلت، وأندم أكثر على الذى فعلت، وأندم أكثر وأكثر على أننى لم أقل أشد ولم أفعل أعنف . لقد انقلبت على نفسى : واحد يلوم والثانى يرد أغلظ . . و لم أعرف أى هؤلاء أنا . . لقد انقسمت على نفسى . . وهو شعور كريه . . يجعل الإنسان ضعيفا . . بليدا . . عاجزا عن القيام والقعود والنوم . .

وقد صالحت نفسى ، على نفسى . وقلت : لم أكن كاذبا ولا خادعا . وإنما هى الضرورة . فليس من الحكمة أن يقول الإنسان ما يعتقده . . ولا أن يكون صادقا مع الناس . . وإنما فقط أن يتفادى الناس . . وأن يسايرهم ويجاريهم ويواريهم ويداريهم . .

هل كذاب أنا ؟ . . بل كان من الواجب أن أكذب ! .

وليس هذا هو الكذب . وإنما هذه هى « التقية » . . أى مسايرة الناس فقط وإيهامهم بأن رأيك هو رأيهم . وأنك مثلهم تماما . والحقيقة غير ذلك . . ومبدأ « التقية » من أهم مبادئ الشيعة . والمثل عندهم يقول : لا دين لمن لا تقية له . . ويقال إن رجلين سئلا عن رأيهما فى الخليفة فقال واحد : أحبه . قال الثانى أكرهه . . فتركوا الأول وقتلوا الثانى . . والأول فقيه فى الدين والثانى قد تعجل دخول الجنة ! .

وكان الخلاف بيننا أن أحد الأصدقاء يريد أن يهاجر إلى استراليا . ولم أفهم. فهو غنى الأب والأم . البيت عنده الأرض والأموال والشباب والوظيفة . و إذا أنت سمعته أيقنت أنه فقير ابن غفير ابن غسالة . و أن مصر لا تريده . . ولذلك فمن الأفضل أن تبحث له عن أقرب صندوق زبالة . ولم أطق صبرا على ذلك . فقلت له : هل تسكن غرفة فوق السطوح ؟ . . هل تقف فى طابور الجمعية ؟ . . هل تمشى عل الصراط المستقيم بين الحلال والحرام. . تخاف الحرام ولا تقدم على الحلال ؟ . . هل تهرب من كل بنت يميل لها قلبك حتى لا تميل كلك وحتى لا تتحدثا فى الزواج ؟ . . هل أرسلتك الخدمة العامة إلى أسيوط بينما يجب أن تعمل فى القاهرة فى الصحافة بدلا من الحكم المحلى ؟ . . هل أبوك ينتظر يوم تعيينك لسداد ديون أمك، ومصاريف اخوتك؟ . . أنت كذاب . . حتى مشاكل الفقراء قد استوليتم عليها. . أنت لا تتحدث عن مشاكلك . . إنك استعرت هذه المشاكل من البواب والسفرجى . . أنت سمعتهم وتبنيت قضيتهم ، لا كأحد المحامين تترافع عنهم . وإنما استعرت مشاكلهم وشكاواهم ونسبتها إلى نفسك . . أنت كذاب ولص . . وتريدنا أن نصدقك لكى نكره حياتنا ونكفر ببلدنا ونتعجل مستقبلنا بدخول السجن أو دخول النار . . أنت وقومك كارثة علينا . . ثرواتكم تبعث على اليأس ، وكذبكم يعدو إلى القرف . . حتى الشكوى من الزمان والتفكير فى التكفير والهجرة قد استحوذتم عليه ، فلم يعد لنا إلا شىء واحد : أن ننصت إليكم ونلعن آذاننا إذا سمعت ، وعقولنا إذا صدقت ، وأيامنا إذا طالت . .

ونسيت مبدأ «التقية » . . فالتقية تحتاج إلى قدرة ومرونة . . قدرة على إخفاء مشاعرى ، ومرونة فى مسايرة من لا أصدق ولا أحب . . أعترف بأننى

مندفع . . واعترف بأننى حاقد على الآخرين . .

ولذلك لابد من الهجرة . عندى ألف سبب لذلك . . هل يئست من رحمة الله ؟ . . لم أيأس من رحمة الله ، وإنما يئست من قدرتى على انتظار هذه الرحمة: تجىء أو لا تجىء . فى الحياة أو بعد الموت . . ولا أعرف كيف قال عمر بن الخطاب هذه الأبيات عندما حضرته الوفاة :

ألم تر أن ربك ليس تحصى — أياديه الحديثة والقديمة

تسل عن الهموم فليس شىء — يقوم ، ولا همومك بالمقيمة

لعل الله ينظر بعد هذا — إليك بنظرة منه رحيمة !

كيف يا خليفة الله ؟ . . كيف هذا الهدوء وهذا الصبر وهذا الأمل فى الرحمة؟ من أين هذا الصفاء والسلام ؟ .

وقررت أن أذهب إلى صديقى الغنى جدا هذا وأقول له : أنا أسأت إليك . . أنا فهمتك فهما خاطئا . لقد فكرت وفكرت . فوجدت أنك على حق . وأنه لابد أن نتبنى قضايا الفقراء . وأن نندمج فيها كأنها قضايانا حتى تكون قضايانا . . وبعد ذلك لا أمل فى حل . . فليس غريبا أن نجد عددًا من أصحاب الملايين هم أنفسهم زعماء الشيوعية . . إنهم نسوا أموالهم ولم يذكروا إلا فقر الناس . . إنهم نسوا قصورهم ولم يروا إلا أكواخ الناس . . ضاقوا بالأمان، وملوا الشبع ، ومزقوا أنفسهم حزنا على الخائبين والضائعين والجياع . . فمن الصعب أن ننظر إلى مواجع الناس كماينظر الأطباء إلى مرضاهم . . فالطبيب لا يستطيع أن يندمج متأثرا بمرضاه لدرجة أن يصاب بنفس المرض . . ولو فعل كل طبيب ذلك ، لمات فى أول لقاء مع مرضاه . . ولكنه يجاملهم حتى يفهم ويعالجهم . . تماما كما يعالج الميكانيكى سيارة . .

يفهم وليس بإحساس ومشاركة وجدانية . . فقط يسمع ويرى ويفهم ويداوى . . ولكن لا يبكى معه وعليه . . هذا ما لا تستطيع مع مشاكل الناس الذين يملأون عيوننا وآذاننا ويفزعون أحلامنا . . الذى تراه ليس مشهدا تمثيليا يبكينا ثم نصفق له فى النهاية . . إنه مشهد لا ينتهى وعذاب بلا حدود ، وفناء فى الآخرين من أجل إنقاذهم . .

ورأيت الدموع فى عينيه ووجدتنى بين ذراعيه . . وقلت لنفسى : أنت كذاب . . حقير ! !

ورددت على نفسى : لست كذابا ولكنها التقية . . ولا إسلام لمن لا تقية له ! .

فما الذى أريده منه ؟ لا شىء إلا أن يساعدنى أنا أيضًا على الهجرة من مصر . له صلات وأقارب فى كل مكان ، فقط أريد أن أقفل باب الطائرة ورائى وأستمع غارقا مسحورا مبهورا إلى صوت المضيفة القبيح وهى تقول : أهلا بكم سيداتى وسادتى على متن الطائرة المتجهة إلى سيدنى . . الكابتن عوض الله وطاقم الطائرة يتمنون لكم رحلة سعيدة . . وسوف تقطع الرحلة فى ١٩ ساعة تتوقف خلالها فى الرياض ودلهى وبانكوك وجاركارتا وداروين ثم سيدنى . . أتمنى . .

وسوف يكون سعيدا أننى صدقته . . وأنه أدى خدمة لأحد . . سوف أكون سعيدا بأننى سافرت . طفشت استرحت من قذارة الشوارع والناس وطوابير الجمعية وخطب الوزراء . . والمجتمعات الجديدة التى ليست جديدة . . ووجوه الوزراء وأصواتهم المتشابهة ، حتى لم يعد أحد يعرف من الذى ذهب ولا من الذى جاء . . ولم يكن ساذجا ذلك الفلاح الذى سمعناه

يدعو لسعد زغلول بطول العمر . . مع أن سعد زغلول مات من كذا وخمسين عاما . . لقد التصقت فى عينه صورة وصوت سعد زغلول ، ولم يعد يرى أو يسمع غيره . . فهو وحده الذى كان له ما يميزه . . أما هؤلاء فلا ميزة لهم . . وهم جميعا «بدل فاقد » ـ هكذاتصور الفلاح الساذج . . ولم يكن بعيدًا عن الحقيقة . .

إذا اتفقنا على الهجرة من مصر إلى بلاد السعادة والرخاء . . وعمار يامصر . هذا واجب القادرين على أن يقيموا فيها ويحرسوها ويعمروها : أما نحن ـ أنا والزملاء الأربعة ـ لسنا قادرين ولا مؤهلين . لقد فسدنا تماما : فقد انصرفنا عن النظر حولنا . . وأمامنا . . فقط وراءنا فى غضب وحزن ويأس . إننا نمشى فى الدنيا بظهورنا لا نرى إلا الماضى ، وننزلق على الحاضر . . ثم لا مستقبل لنا . لقد ادخرنا الإحساس بالحاضر والمستقبل إلى استراليا . . أما مصر بلد الأهرامات وأبى الهول والكرنك مصر التى مضت ، فهى التى نعرفها . . حتى السد العالى نحن نراه هرما قد اعترض المجرى المائى . . أو هو بلطجى جرد النيل من الطمى ومن ثروته المعدنية والحيوانية . ثم سد الطريق إلى الوجه البحرى .

حتى هذه القضية وجدت نفسى أنا الآخر قد استعرتها من زملائى . . فليس صحيحا أننى قادر على الهجرة . كيف ؟ إننى مرتبط باللغة العربية فأنا تخصصت فى الأدب الجاهلى والعباسى والحديث . . وأفنيت نور عينى فى دراسة العروض وفعل فعولن مستفعلن وألفية ابن مالك . . والهمزية . . وبانت سعاد . . وهبطت إليك من المحل الأرفع . . وقفا نبك . . وخدعوها بقولهم حسناء . . وكيف ترقى رقيك الأنبياء . . إلى آخره . . ما الذى يفيد أهل استراليا من مثل هذه القصائد التى حفظتها . . لافائدة طبعا . إذن فلابد

أن أعمل أى شىء . . سائقا . . مكوجيا . . شيالا . . فى بار . . فلاحا . . أبدأ من الأول . . وكأننى لا تعلمت ولا قطعت نفس أهلى ينفقون على ملابسى وعلاجى وكتبى ، أعطونى ما فى أفواههم وما فى جيوبهم وما فى عيونهم من نوم ونور لكى أكون شيئا . فلما حان الوقت ، تخليت عنهم . . وأوصلتهم لنصف البير وقطعت الحبل فيهم ـ كما تقول الأغنية اللبنانية . .

إذن قضية الهجرة ليست قضيتى ، إنها قضية استعرتها من الآخرين . . إننى مثل بعض الطيور التى تتسلل إلى أوكار طيور أخرى وتطردها وتنام على بيضها . . حتى يفقس البيض . . ثم تدافع بوقاحة عن صغارها . . وهى ليست وقحة إنما تدافع عن قاعدة إنسانية فى الوراثة الجاهلية : . . قاعدة أن الابن للفراش . . فهى فى الفراش وما يتحرك تحتها من صغار هى صغارها ! .

وكذلك أنا . .

تلخبطت المعانى فى رأسى . . وتضاربت الدوافع ، وتداخلت إرادتى وإرادة الآخرين . . ولم أعد أفرق بوضوح بين الذى أريده وبين الذى أتمناه ، وبين الذى أتمناه لغيرى ، أننى مثل بيت «مسكون» . . ففى داخلى قوى لا أعرفها تحركنى يمينا وشمالا . ولا سلطان لى عليها . . هل تعرف البيوت المسكونة التى تنكسر فيها الأطباق على الأرض . . وتتخبط فيها الأبواب . . وإذا نظرت إلى الأرض لم تجد بقايا الأطباق ، ولم تر الأبواب تتحرك . . أما أنها أصوات فهذا مؤكد . . أصوات بلا صورة . . أنا هذا البيت المسكون . .

بل كل الناس كذلك . . نسمعهم ولا نعرف إن كانت هذه أقوالهم . . أو إذا كانت هذه أفعالهم فمن فعلها ؟وكيف ؟ تعبت ؟ فعلا تعبت من نفسى ومن الذى فى داخلى . . وتعبت من الذى خارجى . . وأصبحت أرى كل

إنسان اثنين أو ثلاثة أو ثلاثين . . شيء ما أصاب نظرى ونظريتى ، أو شيء ما أصاب الدنيا حولى . . ولا أعرف من المصاب ومن المصيب . . إنها مصيبة نفسية اجتماعية ووجودية!! .

* * *

وفى اليوم التالى صحوت أحسن حالا وأهدأ بالا . . لقد استطاع النوم الساحر أن يحقق المعجزات فى رأسى وقلبى وجسمى . . لقد عقدت صلحا عاما بيننا ، وقمت بتطبيع العلاقات بين فكرى ووجدانى ورغباتى كلها . . ووجدت وجهى مشرقا . . ونظرت من النافذة . . ورأيت قطعة السماء التى فوقى زرقاء صافية . . و من بعيد وجدت شجرة صغيرة . . أوراقها خضراء . . ولمحت فيها زهرة أو زهرتين . . وعصفورًا أو عصفورين . . ورأيت وراء كل شيء صورتها الجميلة الفاتنة . . نعم صورة «فاطمة» نفس الصورة التى أعجبتنى يوم قلت لها : آه لو ترين الذى أرى . . أنت لا تعرفين كم هى جميلة عيناك . . كم هى ناعمة شفتاك . . كم هى مضيئة جبهتك . . كم هى غامرة ابتسامتك . . كم هى فادحة جريمتى لو فكرت فى الزواج منك . . أتزوجك لأعطيك ماذا ؟ وكيف أعطى ومتى ؟ .

وبسرعة خاطفة تحول الوجه إلى درجات لونية بين الأسود والأصفر والأخضر. و كيف أنها ابتلعت شفتيها وقلبت عينيها ، وخرجت من تحت شعرها عاصفة اكتسحت كل شيء وأقامت حاجزا ترابيا رعديا ممطرا بيننا . .

وقررت أن أقفز من السرير لأقول لها هذا الذى رأيت . لأسعدها هى الأخرى . وأنه ليس صحيحا أننى أفكر فى الهجرة . . فهذا ترف لا أقدر عليه . . ولست إلا حاملا لميكروب الهجرة ولكنى لست مريضا بها . . إننى محام يحمل دوسية قضية عدد من الموكلين . .

ولكن معها الحق كله فى عدم الثقة بى وعدم الاطمئنان إلى ما أقول فأنا كثير التقلب . . وهى تغيظنى عندما تقول لى : إننى لا أهتم بما تقول فى الدقائق العشر من وجودنا معا . . فقط أهتم بالدقائق العشر قبل عودتنا إلى البيت . . فأنت تتغير كل عشر دقائق . . وتكون قريبا من نفسك جدا عندما يبدو عليك الإرهاق والرغبة فى النوم . . فالذى يعود بك إلى البيت هو «أنت» الحقيقى !! .

صح . كانت زوجة نابليون إذا وجدته جالسا مسترخيا راحت تطالبه بالكثير . . وكان يستجيب . ولكن إذا نهض واقفا ، توقفت عن الكلام وعن طلب أى شىء . . لأنه إذا وقف رفض . فكذلك هى ترى أننى عندما أكون مرهقا راغبا فى التمدد والاسترخاء والنوم أكون أكثر استسلاما لرغباتى الحقيقية . . وأكثر صدقا . ولذلك فهى تؤجل تصديقى حتى يغلبنى التعب ويستدرجنى النوم ـ ما أخبثها . . وما أضعفنى ! .

قلت لها : قولى لى يا حبيبتى ! .

ـ أنا ؟ حبيبتك ؟ .

ـ قولى لى . . عندما فكرت فى الهجرة إلى استراليا . . كان معنى ذلك أننى أريد ألا أسمعك وألا أراك . . وهذا يحدث كل يوم . فعندما نفترق لا أراك ولا أسمعك ولا ألمسك . . ولا أجد أننى فى حاجة إلى أن أتحصن وراء أفكارى لأواجه نقدك العنيف . . وأظافرك النافذة إلى أعماقى . . هذا يحدث كل يوم . . ولكن الذى لا أقوى عليه هو خيالك . . الذى يعود إلى رأسى وأنا نائم . . ويجدد مشكلتى معك . . ومشكلتى أننى أحاول أن أجعلك خيالية مثلى . . وأنت واقعية جدا . . أنت جراح ماهر . . أعصابك من حديد . .

ودموعك من جليد . . لا تذرفين دمعة واحدة على مريضك الذى هو أنا . . إننى أرى أصابعك تمسك قلبى وتنزعه وتطهره وتخرجه من أحشائى لتملئيه كل يوم بماء بارد . . حتى أكون فى هدوئك . . وأنا أراك ، وأرى الموت بين أصابعك . . ولكنك واثقة من عينيك ومن يديك ومن مريضك هذا . . أريدك أن تكونى مثلى . . أحاول . . وقد نجحت بعض الوقت . . ولكن لا أكاد أتركك حتى يعاودك كل شىء . . وأنا معجب بك . . وأحسدك على ما أنت فيه ، وأحسد نفسى على هذا الطبيب الحبيب . . فكيف إذا سافرت أنسى صوتك وصورتك . . إن سقف غرفتى هو شاشة تليفزيونية كبيرة تجرى عليها أحداث اليوم ، كل يوم . . الصوت ممكن نسيانه ، والصورة أيضا ، ولكن الذى فى خيالى كيف ؟ .

قلت لها : هل تقولين شعرا ؟ . . عندى شهية مفتوحة . . هل تذكرين أبياتا قديمة لشاعر قديم . . يقول إن محبوبته تمنعها ثلاثة أسباب فلا تجىء إليه فى الليل حتى لا يراها العوازل : جبينها المضىء وصوت الأساور فى يديها ثم العطر الذى يفوح منها ويفضحها . . أما جبينها فيمكن أن تغطيه بكم فستانها . . وأما الأساور فيمكن خلعها . . ولكن ما الذى يمكن عمله فى عطرها الذى يفوح منها فى كل اتجاه ؟ . . يقول الشاعر :

ثلاثة منعتها من زيارتنا

وقد دجا الليل ، خوف الكاشح الحنق .

ضوء الجبين ووسواس الحلى وما

يفوح من عرق كالعنبر العبق

هب الجبين بفضل الكم تستره

والحلى تنزعه ، ما الشأن فى العرق ؟!

قلت لها : ما رأيك ؟

قالت : رأيى تعرفه . . إننى لا أغير رأيى . . لا أتلون . .

قلت : نسيت ! .

قالت : معك حق . . لأنك أكثر من شخص . . فالشخص الآخر الذى كان يحدثنى اعترفت له بفلسفتى المحدودة فى دنياى المحدودة أيضا .

قلت : ما هو رأيك ؟ .

قالت : رأيى : أننى أصادق فيلسوفا ، أحب شاعرا ، أتزوج تاجرًا ! . .

قلت : أنت ؟ ما الذى أفسدك على نفسك . . أنت ؟ .

قالت : تلميذتك . . أنا لست إلا صورتك فى مرآة صغيرة . . إنك تسمعنى وتفزع ، ترانى وتصرخ . . إلى هذه الدرجة ترى صورتك بشعة ؟! .

قلت : كاذبة . .

قالت : إننى لا أكذب إنها « التقية » ياسيدى ! إننى أستخدم هذا السلاح لمواجهة التقلبات فى حياتك وحياتى . . إنها سلاحى الوحيد الذى استعرته منك وتعلمته على يديك ، وإذا كانت تنكره وتستنكره ، فلأن الذى يؤمن بالتقية ، ليس هو الذى يؤمن بالحب ، وليس هو الذى يعدو إلى الهجرة ، ولا هو الذى يحب ولا هو الذى يتزوج . . هل نسيت بيت الشعر الذى تكرره دائما . . هل نسيت ؟ .

قلت : نعم . .

قالت : أذكرك به وأعيده إلى مكانه من ذاكرتك . . فإنه أحسن أسلحتى وأمضاها فى مواجهتك :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقى صولة المستأسد الضارى!

* * *

لقد رأيت صورتى فى صورتها ، وسمعت صوتى من حنجرتها . . آه لو رأى كل إنسان صدى الذى يقول وصدى الصدى ، لفكر ألف مرة قبل أن يقول . . والمصيبة أن الذى يفكر لا يقول ، والذى يقول لا يفكر ! .

واجبى نحو زملائى !

جربت كل أنواع العمل . . فى الإجازة عملت عند أحد أقاربى . . إنه رجل يبيع الخيش والأشولة والقفف . وهو رجل غنى . وقيل إنه معجب بى جدا . . ولذلك يسعده أن أعمل معه . كأنى أحد أولاده . . بل هو يشعر أننى مثل أولاده .

وقيل لى يجب أن تنسى أنك تخرجت فى الجامعة . . فالشهادة الجامعية مثل شهادة الميلاد أحتاج إليها أحيانا . . أو مثل شهادة التطعيم لا أحتاج إليها إلا نادرا . . فالشهادة بلا ضرورة ، لأن العمل الذى سوف أقوم به هو أن أكون سكرتيرا له . فهو لا يعرف اللغة الإنجليزية . واللغة الإنجليزية ضرورة لأنه يتعامل مع الأجانب . . قلت : موافق . .

أما المرتب فليس مشكلة . . فهو رجل غنى ويحبنى . ويعرف أننى فى مستهل حياتى . واحتياجاتى كثيرة . وبالاختصار فهو ليس فى حاجة إلى من يشرح ويقول له : كم تتكلف الكتب والبدل والسكن والمواصلات . .

وكان لابد أن أمر عليه فى البيت . وأنتظره حتى يفطر ويشرب القهوة ويتكلم فى التليفون . هو فى داخل البيت وأنا فى الصالون . . أقوم من مقعد لأجلس على غيره . . وأحيانا أتشجع وأطلب لنفسى قهوة .

ومضت أيام ثقيلة وأنا فى حالة من الضيق . ولم أعرف السبب . وحاولت أن أعرف . . ووجدت أن انتظاره كل يوم بهذه الصورة ، لا يريحنى . وكذلك عندما أطلب القهوة فأحيانا تجىء وأكثر الأحيان لا تجىء . وعرفت أن الخادم لابد أن يستأذن الحاج ـ هو الحاج .

وفى يوم سألت الخادم : لا قهوة ولا شاى إلا بإذنه ؟ .

قال : نعم . . لا تتضايق . . أنت رجل متعلم . . كلمة حلوة منك تفتح نفسه لك . . وتصبح حبيبه .

ـ يعنى إيه ؟ .

ـ يعنى إنه رجل بلدى يحب أن يتفاءل كل يوم بكلمات حلوة :

يا صباح الفل . . يا نهار القشطة . نهارك ورد يا حاج . . منور يا حاج . عارف الست بتاعته تفضل تقول له : يا فل . . يالوز . . يانور النبى . . ياصلاة النبى من اللحظة التى يصحو فيها حتى يخرج . . وعندما يعود وعندما يأتى وعندما ينام وحتى ينام .

ـ وهو يرد على ذلك فيقول ماذا ؟ .

ـ هو يرد ؟! . . لو الكرسى هذا نطق . ينطق هو . .

ـ يعنى أنا أقول له يا فل . . يا قشطة . . يا مهلبية وهو لا يرد! .

ـ أحسن . . يكفى إنه لا يلوى بوزه . . يكفى إنه لا يقول لك كلمة تعكر دمك طول النهار . . إنه رجل لسانه زفر . . مقرف . . ولكنها لقمة العيش . . أنت متعلم فى استطاعتك أن تقول ما هو أحس وأجمل . . أكل العيش يا سعادة البيه .

ـ أنا سعادة البيه ؟ .

ـ ولأنك البيه يا أستاذ ففى استطاعتك أن تأكل عقله . .

وقررت ألا أبقى فى هذا المكان . . وسوف أنتهز أقرب فرصة لأعود من حيث أتيت . ولكن قلت لنفسى أجرب . . ولماذا لا أجرب ؟ وفى يوم رأيت الحاج قلت : نهارك أبيض يا حاج .

قال لى : نهارك زفت يا أفندى ! .

ـ الشر بعيد يا حاج ! .

ـ عندى مغص !

ـ سلامتك ! .

ـ وأين هى السلامة إذا كان المغص لم يتركنى ثلاثة أيام وجاك الدكاترة وأخذوا القرشين ولا فائدة .

ـ الحمد لله على كده يا حاج . . شدة وتهون .

ـ شدة وتهون . . والخسائر التى تصيبنى كل يوم بسبب ظهور النايلون . . النايلون أصابنا بالركود . . لا أحد يشترى القفف والمقاطف والأكياس الورق ولا الجوالات . . خراب مستعجل . . ليس هذا نايلون . . هذا «نيلة » زرقاء .

ـ ليس كل الناس قادرين على شراء النايلون . . إنهم قليلون جدًا ياحـاج .

ـ طيب يا اخويا . . أنا لن أذهب إلى الدكان . . اذهب إنت وأريد أن

أرى الدنيا على وجهك . . أريد أن أعرف قدمك علينا . . اتوكل انت! .

وتوكلت . ولم أر زبونا واحدا . وبعد الظهر . عدت إلى البيت . وندمت على هذه التجربة . ولا أعرف حدود الندم : هل لأننى نسيت الشهادة . . هل لأننى عملت مع أحد أقاربى . هل لأنه رجل جاهل لا يقرأ ولا يكتب . هل لأنه نظر إلى حاجتى للعمل ولم ينظر إلى الذى تعلمته . . ولذلك لم يكن يفرق كثيرا بينى وبين السعاة . . وكان إذا طلب منى شيئا أشار بيده . فأنظر إلى حيث تتجه يده وأسأل : الجزمة ؟ . . السجادة ؟ . . هل أخرج ولا أعود . . هل أنادى أحدا ؟ .

ولكنه لا يشرح معنى هذه الإشارة ويتركنى أجتهد . .

ثم كان يقول : مادام لا تفهم ما أقول : طيب هات المقشة! .

الله يرحمها خالتى أطيب الناس وأرحمهم .

سألتنى فى يوم من الأيام : ماذا تريد أن تعمل ؟ .

قلت : لم أحدد بعد .

قالت : مثلا . . مثلا ماذا تريد ؟

قلت : أسوأ شيء أن أعمل مدرسا . فهى مهنة شاقة وتطعم الناس خبزا فقط وعليهم أن يأتوا بالملح والأرز والسكر والزيت من وظيفة أخرى ! .

قالت : وإذا لم تعمل مدرسًا ؟ .

قلت : أبيع ورنيشا للجزم .

قالت : صحيح ؟ .

قلت : أى والله إن عددا من زملائى يفعلون ذلك ويكسبون . ومن الممكن أن نعمل معا .

قالت : ولماذا اختاروا هذه المهنة ؟ . .

قلت : لأنهم هم الذين يصنعون الورنيش فى البيت . ويكسبون كثيرا فالورنيش الموجود فى السوق سيئ جدا . . مغشوش .

قالت : وكم يكفيك من المال ؟ .

قلت : ألف جنيه . .

قالت : أدفعها لك . .

واتفقت مع الأصدقاء الذين يصنعون الورنيش فى بيوتهم عن السعر وحدود المكسب . المكسب كبير . ولكن ظهرت مشاكل : كم عدد العلب والزجاجات المطلوبة ؟ كم عدد الورنيش الأسود والأحمر والأصفر . ما هو العدد بالضبط ؟ .

وبدأت أنظر إلى أحذية الناس . . وذهبت إلى أحد المقاهى ولاحظت أن الأحذية السوداء أغلبية . . وأن بعض الأحذية تحتاج إلى ورنيش ، وبعضها إلى بويه وبعضها إلى الإثنين معا . . وذهبت أطلب ٧٠ ٪ أسود و ٢٠٪ أحمر . . و١٠٪ أبيض وأصفر . . وظهرت مشكلة أخرى : من الذى يوزع الورنيش . ولابد من عمولة أو نسبة للذى يوزع البضاعة . . ووجدت أن هذه النسبة تعادل ما سوف أكسبه بالضبط . . ونصحونى بأن أنقل الورنيش إلى البيت وأدعو الزبائن أو تجار التجزئة إلى أن يتسلموه من البيت . . ولابد من شراء علب كرتون لكى يضعوا فيها الورنيش . . بعض الناس يجيئون إلى البيت فى

غيابى وكانت والدتى وإخوتى هم الذين يبيعون ويفاصلون ويناقشون ويتخانقون عندما يستشعرون بحقاره الموقف . . حقارة السلعة ورداءة الزبائن . وفى يوم غالطوا والدتى فى الحساب وفى عدد الزجاجات . وعدت إلى البيت فوجدتها تبكى على حظى الأسود والأحمر . . وكيف أننى ألقيت سنوات الدراسة والاجتهاد والتفوق فى الزبالة . . و كيف أننى مسحت الأرض بتعب أمى وسهرها معى وحولى ودعواتها وصلواتها . . وقررت أن أنقل البضائع إلى بيت خالتى . وفى يوم وجدت أمى شديدة البكاء والحزن : مالك يا ماما؟ .

ـ ولا حاجة يا ابنى . .

ـ مالك ؟ ! .

كانت تزور إحدى قريباتها ووسط عدد كبير من الضيوف قالت لها إحدى السيدات : من نهار ما بسلامته ابنك توقف عن تجارة الورنيش وجزمنا جربانة ! ! .

وكان لابد أن أعترف لنفسى أننى فشلت . وأننى لست مؤهلا للتجارة والكسب من هذا الطريق . . بينما أصدقائى أصبح لهم محل معروف . . وأصبح المحل أنيقا . . وأضافوا إلى الورنيش أربطة الجزم وفرش الأسنان والمعجون والكريمات . . وانفتح المحل الصغير على محلات أخرى يمينا وشمالا وظهرت أجهزة الراديو وماكينات الحلاقة والكاستات .

واعتذرت لخالتى عن ضياع الألف جنيه . وقبلت عذرى . وقالت لى : إنما أردت أن أشغلك عن انتظار دورك فى العمل فى الحكومة . . فداك . . ألف وعشرون ألفا . .

طيبة أنت والله يا خالتى . . وخيبان ابن أختك . فلم يبق إلا أن أعمل

فى الحكومة . وجاء خطاب بتعيينى فى وزارة المواصلات . وفرحت بالتعيين . وخاصة أن المكتب على مسافة ربع ساعة مشيا على القدمين فى طريق واسع . . به مكتبة ومقهى كبير ومحل عصير ومحل لبيع الجبنة وعسل النحل لواحد من أقاربى وفى الذهاب والإياب يمكننى أن أشرب القهوة عند خالتى . . لولا أن ابنتها الجميلة فى مثل سنى ولم تتزوج ، وأخشى أن تظن أننى أتردد من أجلها . ثم إننى قلت لها ولخالتى : إننى أشعر بأنها مثل أختى تماما .

وخالتى فهمت موقفى . ورأت أن كلامى صحيح مائة فى المائة . فقد كان هذا هو شعورها عندما تزوجت ابن عمها . ولذلك كان زواجها فاشلاً تماما . . وهى التى طلبت الطلاق . . وأقنعته بأن يتزوج واحدة أخرى . . فهذا أفضل للإثنين . ولم يغضب ابن عمها ولا هى . وانفصلا بهدوء . وتزوج . وهى رفضت أى رجل آخر . . وعاشت لابنتها .

ولكن ابنة خالتى الجميلة الظريفة لم تقتنع وكانت تضحك : ألسنا فراعنة؟ . . لقد كان أجدادنا يتزوجون بناتهم وأخواتهم وخالاتهم وعماتهم . . أى فى استطاعتك أن تتزوجنى وأنا أصغر منك بعشر سنوات وتتزوج أمى وهى أكبر منك بعشرين سنة ؟!

ومضت أيامى فى وزارة المواصلات متشابهة . . أو أيامى كلهاتوائم . . ملامحها واحدة فى الصباح والظهر والمساء : لا عمل . . لا ورقة ولا قلم . . ولا أحد يسألك ماذا تعمل ، إن عملت . . والغريب أن كل الناس حولى يقلبون فى أوراق كثيرة مختلفة الأحجام والألوان ويأكلون السندوتشات . . ويشربون الشاى طول الوقت . . ويدخل أناس يتكلمون ويتهامسون ويتغامزون . ويجلسون وتجىء القهوة والشاى والعصير . ولكن لم أر ورقة واحدة تخرج . . ووجدت جارى يذاكر لأنه فى كلية الحقوق . . وجارى الآخر

ينقل المحاضرات لابنته التى فى الجامعة . و الذى يجلس أمامى عنده دفاتر لأنه موظف فى أحد محلات القماش فى الأزهر . . وهو يراجع الحسابات قبل تقديمها للضرائب .

وفى اليوم التالى نقلت بعض الكتب إلى درج مكتبى وأتيت بكرسى من البيت وربطته من رجله فى المكتب حتى لا ينقله أحد . . . أو حتى لا يسرقه . . أو حتى لا يجلس ضيوفى فوق المكتب . . وعندما زارتنى ابنة خالتى جعلتها تجلس على مقعدى فكانت فرجة . . وفى ذلك اليوم أصبحت مشهورا جدا . . فقد جاء كل من هب ودب يحاول أن يرى أو يستظرف مع هذه الجميلة جدا . حتى رئيسى استدعانى ثم سألنى إن كنت قد قرأت الصحف اليوم وعلمت أن السيد وكيل الوزارة سوف يزورنا .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أراه . . وسألت زملائى إن كان أحد قد قرأ شيئا عن ذلك . لا أحد . وفوجئ الجميع بأن السيد وكيل الوزارة قد جاء يعتذر بنفسه لأن الذى قرأه كان عن السيد وكيل وزارة الداخلية ـ ولم يكن هناك سبب واضح إلا أنه أراد أن يرى بنت خالتى ! .

وقلت لها محذرا هذه آخر مرة ! .

طبعا أنا دخلت هذا المكان بشهادتى . ولولا هذه الشهادة لما دخلت ولا قعدت ولا كان لى مكتب . ولكن ما فائدة هذه الشهادة للسكك الحديدية والتليفونات والأعطال والعقود والتسجيل . . والإحلال والإبدال . . إنها شهادة تدل على أننى دخلت الجامعة وتخرجت ناجحا . . ولا يهم ما الذى يمكن أن أفعله بها . . إنها فقط تأشيرة مرور ـ ذهابا وإيابا كل يوم وتصريح بالوقوف فى الطابور كل شهر عند الخزانة ! .

هذه هى بلادنا وهذه قدراتها وهذا قدرنا ومستقبلنا . ولا توجد وسائل أخرى لكى ننموا وإذا نمونا تقدمنا . وإذا تقدمنا تطورنا . وإذا تطورنا تحضرنا ، وإذا تحضرنا ظهرنا على وجه الدنيا . فيكون عندى بيت وزوجة وأولاد وفلوس فى البنك أمان من الفقر والجوع والمرض . هل ألوم بلدى ؟ . . لا ألوم أحدا . . فلست الوحيد الذى على حجرها وعلى صدرها ويرضع من ثديها . . فهناك عشرون مليونا . لهم نفس الحقوق . . نحب مصر ومصر تحبنا . . لكن العين بصيرة واليد قصيرة . وليس أمامنا إلا أن نقبل . . أو نرفض . . وإذا قبلنا فنحن مثل ملايين المواطنين الذين يولدون فى البيت ليدرسوا ويموتوا على مكاتبهم .

وهؤلاء الموتى لا يتولد منهم إلا القرف واليأس والبلادة . . وإلا المزيد من العجز عن الوفاء بشىء من احتياجات أبنائها . . ومصر تعطينا بقدر الذى نعطيه . . فهى تجمع حصيلة عملنا وتوزعه بالعدل على الناس . . ولكن بعض الناس أذكى وأشطر وأقدر على الفهلوة والحداقة وخفة الدم واليد . وكل شىء له ثمن . وكل ثمن له ناس . وكل ناس لها ثمن . . فالموتى على مكاتبهم لهم مرتبات . . «جرايات » . . وبعد ذلك معاشات . . والذين يقفزون من المكاتب إلى الشارع إلى البنوك إلى الموانئ إلى الشواطئ لهم مكافآت ولهم ودائع . . والقانون أين ؟ لا تفكر فى هذه الكلمة .

فالقانون خادم مطيع للأقوياء : أى الذين عندهم سلطة والذين عندهم مال. والمال أقوى من السلطة . . لأنك كموظف عندك سلطة ولو على الساعى ، ولكن ليس عندك مال . . والساعى ليست عنده سلطة ، ولكنه عنده مال يجعله قادرا على إيذائك من رؤسائك . كيف ؟ هذا الساعى يخدم

الرؤساء فى بيوتهم ويكسب منهم ومن غيرهم . . فهو أقرب إليهم منك . وأنفع لهم منك . . هذه هى القاعدة .

* * *

قالت لى كاميليا بنت خالتى : والحل ؟ .

قلت : الهجرة ! .

قالت : معا ؟ .

قلت : فى هذه الحالة أوافق على الزواج . ولكن هل أمك توافق ؟ .

قالت : أوه . . هذه هى المشكلة . . فمنذ وفاة أخى وأمى ترى أنها تعيش من أجل أن تبكى عليه وتقرأ الفاتحة عند قبره وتحيى ذكراه السنوية . وأنا لا أستطيع أن أتركها ، وهى لا تستطيع أن تتركه .

قلت : إذن ؟ .

قالت : نعود لتجارة الورنيش وأمواس الحلاقة والصابون والبارفان . . ونعمل معا . . وعندنا دكاكين فى عمارتنا الجديدة . . وأنا كنت أساعد أخى الله يرحمه . . فعندى فكرة لا بأس بها عن التجارة والتعامل مع الناس . . عندى فكرة أخرى . . أنت تبقى فى الحكومة وأنا أتردد على الدكان وأكمل تعليمى . . وأنت تعمل فقط معى بعض الوقت . وبنت خالتى التى لها محل لبيع الجبنة والعسل فى الريف عندها رغبة قوية فى أن تعمل معى فى القاهرة . أظن لم تعد عندنا مشكلة ! ما رأيك ! .

قلت : وزملائى ؟ .

قالت : أوه . زملاؤك ؟ وما الذى فعلوه من أجلك . .

من هم زملاؤك . . إننى لم أر واحداً منهم . . ولم أسمعك تتحدث عن واحد منهم . .

قلت : إنه واجبى ! .

قالت : واجبك ؟ ! الفقر والتشرد واليأس وأن تدفن نفسك حيا وأنت فى عز شبابك . . إننى لا أفهمك . . والذى أفهمه لا أحترمه ! .

كلنا سياسيون : غلطة فظيعة !

قلت له : ما رأيك ننتحر معا ؟ .

قال : أنا وأنت ؟ . . ولكن لماذا ؟ أنا أفهم انتحارك أنت . . ولكن أنا أنتحر لأى سبب ؟ .

ـ مجاملة لى . .

ـ أجاملك فى الحياة ، فكيف أجاملك فى الموت . .

ـ لنقفز من ظهر سفينة . . فى مياه الإسكندرية أو بورسعيد . . وينتهى كل شىء .

ـ بايخة ! .

ـ إذن فلنقفز من طائرة ؟ .

ـ ولكن لماذا ؟ .

ـ يا أخى لأن الحياة لا معنى لها . . لا ضرورة . . لم نفهم شيئا . . لم نقل شيئا . . ولا أمل فى شىء . . ولا أمل فى أحد ! .

ـ ولكنى أنتحر فعلا . . فأنا أحارب من أجل قضيةلن أكسبها . . وأنا على

يقين من هذا الفشل . . وكل يوم أتخيل أننى أقتلع أحجار الهرم واحدا واحدا وأدق بها رأسى . . تصور كل يوم . . فأنا كما ترى أعيش بارتجاج فى المخ . . ولم أكن مخلصا فى الحب . .

ـ لا أحد يخلص فى الحب . . فالرجال كذابون والنساء أيضا . . وإلا فقل لى بالله‌عليك ، كيف أنت هكذا تبدو جميلا رقيقا شهما بطلا لا مثيل لك فى الدنيا من أولها لآخرها . . وفجأة حين تختلف معها . . أقصد تختلف مع أية واحدة تحبك أو تحبها ، فإذا بك قرد قطع الحبل من يد القرداتى . . و إذا بك قبيح الشكل وإذا بها لا تطيق أن تسمع اسمك أو ترى رسمك أو تشم جسمك . . كيف يحدث كل ذلك فى لحظة واحدة ؟ هى تراك قردا وأنت تراها غولا . . أين كانت هذه المعانى ؟ هذه المعانى موجودة عندك وعندها . . ولكن الوهم الذى اسمه الحب هو الذى جعل من القرد غزالا ثم من الغزال قردا . . فأنت كذاب وهى أكذب منك . . بل إن المرأة كذابة بالغريزة . . ولا تفرق بين الكذب والحقيقة . . إنها تجلس أمام المرآة بالساعات تضع الأحمر والأبيض والأسود والأزرق . . أليس هذا كذبا تعمله بإتقان . . وأنت ترى ذلك سعيدا ، ولو جاءت لك بعد أن غسلت وجهها أو بعد أن قامت من النوم مباشرة لتخيلت أنها زعلانة . لأنها لم تكذب كما اعتادت أن تفعل . . ومعنى ذلك أنك ترى أن فى كذبها دليلا على العناية بك وعلى الحب . . فالصدق تراه زعلا ، والكذب تراه حبا . . فأنت لم تكذب على أحد . . وإنما أنت فعلت ما هو طبيعى . . ولكن لأنك اعتدت على الكذب ، فإذا صدقت مرة قلت لنفسك : اللهم اجعله خيرا ! ثم إن الكذب فى الحب معناه الكذب فى الكذب . . كالممثل على المسرح . . إنه يتظاهر بالحب ، وهو لا يحب ، وبالموت وهو لا يموت . . فهو يكذب فى موقف كاذب فى مسرحية كاذبة . .

وليس هذا انتحارا يا عبيط، وإنما هو الصدق الذى تفرضه علينا الحياة التى لا تساوى شيئا . . اسمع كلامى . . تعال لنختار مكانا نموت فيه ! .

ـ أنت كذاب . . بل أنت أكذب واحد فى هذه الشلة . . هل تريد أن تقول : إنه يوجد سياسى واحد صادق! .

ـ طبعا لا يوجد . . ففى السياسة كل شىء معقول . . لا شىء محتقر. . لا شىء سافل . . كل الأشياء حقيرة وكل الناس سفلة . . صح ومائة ألف صح ! هل تعرف لماذا أنا قررت الانضمام إلى هذا الحزب . . لكى أكون واحدًا «من» الناس . . واحدًا . . «مثل» كل الناس . . واحدا يضيع بين الناس . . فقد تعبت من أن أكون نفسى . . من أن أقنع نفسى بأننى مختلف . . متفوق . . أو يجب أن يكون مكانى أعلى . . فى أول الصف ولا أقف فى الطابور . . أريد أن أقنع نفسى أننى من طينة غير الطينة . ومن عجينة غير العجينة . . ولم أسأل نفسى على أى أساس بنيت هذه الأوصاف ؟ لا أساس! ولكن هذا هو إحساس عندى . . وتعبت جدا . . أما فى داخل الحزب فأنا دخلت فى «يونيفورم» ـ أى فى الزى الموحد . . والفكر الموحد . . فأنا كالببغاء أقول ما يقولون . . ولا أخرج عنه . . وعندما أنطق بعض الكلمات أضغط على حروفها ، لكى أؤكد لمن يسمعنى أن لها معنى عندنا غير الذى عند الناس . . وأننا نعرف أسرار الكلمات . . وأننا وحدنا القادرون على تنفيذها . . شىء غريب . . فى داخل الحزب : نحن ضائعون حائرون بائرون وأمام باب الحزب يقف الواحد منا وقد باعد بين ذراعيه وجسمه ليبدو عريضا . . ويشب على أطراف أصابعه ليبدو أطول . . أى أننى أطول وأعرض . . أى أننى أشغل مساحة من هذا الفراغ أكبر مما ينبغى . . فأين الحقيقة : هل تفاهتى الحقيقية فى داخل الحزب ، هل نفختى الكذابة خارج الحزب . .

انهض . . تعال لكى ننهى هذه الحياة معا . . الآن . . فورا ! .

ـ يا أخى أنا أريد أن أعيش . . وكل شىء يدل على ذلك . . فأنا آكل بحساب وأتعامل مع الناس بحساب . .

قلت : تأكل بحساب . . تقصد الفول والطعمية والعدس والأرز وكلها نشويات . . هذا هو الحساب . . خوفا من زيادة وزنك ؟ ! و إذا فتح الله عليك وعلى أهلك : أكلتم الأرز بالبطاطس والخبز . . وكلها نشويات . فأى حساب ؟ .

قال : المهم أن يكون هناك حساب . . سواء كان الذى أبتلعه هو الأرز أو هو اللحم . . ثم أنظف ملابسى وأمسح المقاعد إذا جلست حتى لا تتسخ ملابسى فلا تدوب بسرعة . . وأقتصد فى القليل الذى أنفقه . . وأقتصد أيضا فى النظرات والكلمات التى أقولها للفتيات . . فلست صيادا يلقى شباكه على أية فتاة . . فلا أنا أهرب من الفتيات ولا أشجع على ذلك . وأنا أعرف أن شرايين البنات نصفها دم والنصف الثانى صمغ . . لا تكاد تنظر إليها حتى ترمى نفسها عليك وتسألك إن كانت حماتها على قيد الحياة . وتسألها : من هى حماتك ؟ فتقول لك : الست ما متك ؟ . . أو تقول : أحب أن أتعرف بآمال ؟ فتقول لها : ومن هى آمال ؟ فتقول : أختك ؟ وتصحح لها هذا الخطأ قائلا : اسمها كاميليا . . وهناك يتحول دمها كله إلى صمغ إلى « أوهو » . . ولا تمضى أيام حتى تفاجأ بأنها دعت أختك إلى الغداء والعشاء وأعياد الميلاد . . وبسرعة مذهلة تتكون عصابة من بنات حواء تتآمر على زواجك . . وما اجتمع رجلان إلا يتكون منهما حزب وما اجتمعت امرأتان إلا تكونت منهما عصابة . . والرجلان يتآمران على رجل ، والمرأتان على رجل أيضا . . وأكثر من ذلك أننى متدين جدا . . أو محافظ . . وقد أدهشنى ذلك . . فمنذ

أيام رأتنى أختى الكبرى أصلى العشاء فوقفت ورائى . . ولما فرغت من الصلاة قلت لها : إن الرسول عليه السلام نهى الزينة والإسراف فى وضع العطور . . ولكى أكون دقيقا فإنه نهى عن ذلك فى المساجد وقال : انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المساجد ، فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا إلا عندما لبست نساؤهم الزينة وتبخترن فى المساجد . . ويقال أيضا إن امرأة مرت بأبى هريرة فكان له عطر قوى فسألها : إلى أين ؟ قالت : إلى المسجد ! فقال لها : وتطيبت؟ قالت : نعم قال : عودى إلى البيت واغتسلى فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يقبل الله صلاة من امرأة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف ، حتى ترجع فتغتسل ! . . ولقد غضبت أختى وهى تقول : أنا احترت معك . . إن لم أضع عطرا تقل لى : ألا تشمين رائحة عرقك ، وإذا وضعت عطرا قلت ألا تخافين من رائحة عطرك ؟! .

قلت له : وأنت ألم يقل الرسول عليه السلام شيئا فيك . . فى القميص الأحمر والكرافتة الزرقاء والجزمة من لونين : أبيض وأحمر . . والمنديل المشغول عليه اسمك . . وشعرك المسبسب . . ألم يقل الرسول شيئا فى هذه «الأنوثة» . .

قال : أنوثة ؟ إنها أناقة . . الرسول قال إن الله جميل يحب الجمال . . والشاعر قال كلاما بهذا المعنى عندما عاتبه أحد السخفاء مثلك فقال :

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت : يا عبادى اتقون !

وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقون

قلت : أنت تحفظ من الأحاديث مايعجبك . . ولا تحفظ ما يضايقك . . وليس صحيحا أنك متدين كما تتصور ولا أنت محافظ متشدد كما تدعى . .

يقال أنهم أتوا للرسول عليه الصلاة والسلام بشاب قد خضب يديه ورجليه بالحناء فقال الرسول : ما بال هذا ؟ قالوا : إنه يتشبه بالنساء يار سول الله ! فأمر الرسول بنفيه أى إبعاده إلى مكان آخر . . فقالوا : يا رسول الله نقتله؟ فقال الرسول : إنى نهيت عن قتل المصلين !! .

ولولا هذا الحديث لقتلتك ودخلت فيك الجنة ! .

قال : هذا تهريج . . اسمعنى . . إننى لاحظت أننى متشرد . . وأننى حريص على الصدق والزهد والشفقة والشرف وكنت أتصور أننى غير ذلك . . ثم . . ولكنى أخاف . . ومن خاف سلم : وأنا أريد أن أعيش سالما مسالما . . فليس صحيحا أننى راغب فى الموت . . ولذلك لا أستطيع أن أجاملك وأموت معك . . ثم انك كذاب أيضا . . إن جيبك ملىء بالعقاقير . ولو كانت الحياة قد هانت عليك لتركت نفسك للمرض . . ولكنك تخاف المرض وتتفادى الألم . . وليست هذه من صفات الذين يريدون أن يصفوا حسابهم مع الدنيا . . أو الذين قرروا الفرار منها دون دفع الحساب ! .

قلت : لماذا لا تقتلنى أنت ؟ .

قال : تريد أن تجعلنى مجرما قاتلا لأعز أصدقائى ؟! .

قلت : أعطيك هذا الشرف ! .

قال : أرد لك هذا الشرف ! .

قلت : أنت جبان ! .

قال : وأنت أستاذى ! .

هذه المشاكل لها أصل . والأصل عند أستاذنا الفيلسوف أرسطو . فقد قال من ٢٥ قرنا : إن الإنسان حيوان سياسى . . يقصد أنه حيوان أولا وسياسى ثانيا . . أى أنه حيوان يعمل فى السياسة أو سياسى فى حديقة الحيوان . . أى أن السياسة هى الملعب الذى تظهر عليه الوحوش فى نعومة ورقة وأدب يدعون إلى الخير من أجل الإنسانية . . ومن أجل الأغلبية . . أو أنهم الساسة المنافقون الذين يخفون أنيابهم ومخالبهم وأنانيتهم عن الناس . . فالسياسى إذن هو ذلك الكائن الذى يرتدى الجوانتيات الحريرية فوق مخالبه والذى يضع طاقما من الذهب بدلا من أسنانه . . أو الذى يتظاهر بالإنسانية وهو حيوان . . وقد فهم الناس منذ ذلك الحين أن السياسة هى الحياة ، وأن الحياة سياسة . . فاتجهوا بكل قدراتهم إلى العمل السياسى وتركوا الأعمال الأخرى . . تركوا أكل العيش والخدمة الوطنية . . ولذلك نجد الطبيب قد ترك العيادة إلى الحزب والمهندس والمدرس والمشايخ أيضا . . لماذا ؟ لأن السياسة هى السلم الذى يرتفع بالناس . فلا يبذلون جهدا . . وإنما يقفون عليه ، وهو يقوم بالباقى ارتفاعا وتسلقًا وانتهازًا واغتيالاً لكل القيم الإنسانية .

هذه هى الجريمة : فكل الشباب قد رفع شعار أنه حيوان سياسى . . فلا دراسة ولا قراءة ولا بحث .

غلطة راحت ضحيتها : العلوم والفنون والآداب والأخلاق فارتبكت القيم والنظريات وخرجت مسامير وصواميل العلاقات الاجتماعية . . وأصاب الناس ما أصاب عباس بن فرناس أول عربى حاول الطيران فركّب لنفسه أجنحة . . هذه الأجنحة لم تقو على احتمال جسمه فسقط . . ومن قبله سقط بطل إغريقى . . يقال أنه ألصق أجنحة بالشمع فى جسمه . . فلما ارتفع واقترب من الشمس ذاب الشمع وسقط الكائن الأسطورى الذى تمنى أن

يرتفع . . ولكنه لم يستعد لهذا الارتفاع . . وكان فى حاجة إلى قدرات ضخمة ، لم تعرفها الإنسانية إلا بعد ثلاثين قرنا .

غلطة كبيرة جدا أن نوجه كل طاقتنا إلى ناحية واحدة ونهمل بقية النواحى لحياتنا اليومية والعائلية والقومية والإنسانية . . ولأن الهدف صعب . فكان عجزنا صارخا . . ثم إننا لا نشعر بهذا العجز . . وإنما نقول لأنفسنا : طبيعى أن نعجز لأن الهدف صعب . . و الحقيقة أن الهدف ليس صعبًا. إنه مستحيل . . مستحيل أن نطير بأجنحة قد لصقناها فى أجسامنا بشمع من الكذب السياسى : الكذب على أنفسنا وعلى غيرنا .

رأيت فيلما فرنسيا للسخرية من المسلمين . . الفيلم عبارة عن طائرة فى داخلها مسجد . . والمسجد من ورائه حمام للسباحة . . والطائرة متجهة من مكة إلى واشنطن . . وفى مواقيت الصلاة يجىء الكابتن ويؤذن . وبعد الآذان تتجه الطائرة إلى مكة . . ناحية القبلة . . وبعد أن يفرغ المسافرون من الصلاة تتجه الطائرة إلى واشنطون . فإذا جاء الظهر والعصر والمغرب والعشاء اتجهت الطائرة إلى مكة . . والمسافرون لا يصلون فى موعد واحد . . وفى كل مرة يصلى أحد المسافرين فإن الكابتن يتجه بطائرته إلى الكعبة . . وبعد أيام من الطيران اكتشفوا أنهم ما يزالون فوق مكة ؟ .

هذه هى النكتة . وكان المنطق يقول : أن تتجه الطائرة إلى واشنطن . . والمصلون يتجهون إلى مكة . أو لا يتجهون مطلقا . . وفى أماكنهم يصلون جلوسا ويتجهون بقلوبهم إلى مكة . وتمضى الطائرة فى طريقها الصحيح . . ولكن الغلطة التى أضحكت الناس على المسلمين أن تتجه الطائرة كلها إلى مكة . . وهكذا فإنها لا تصل إلى أى هدف ! .

وكذلك الذين يتجهون كلهم إلى السياسة . لا يتقدمون ولا يبرحون مكانهم ولا يبلغون هدفا .

فلم أكن جادا عندما فكرت فى الانتحار . . وإنما ساذج عبيط . . فقد تصورت أننى إذا لم أنجح فى أن أكون عضوا فى اتحاد الطلبة . فلا معنى للاتحاد ولا معنى للعلم . . ولا معنى لحياتى الدراسية . . ولا حبى لبلدى ولا إخلاصى لدينى . . ولهذا الشباب .

ولابد أن أعتذر لكل الناس الذين أسأت فهم سلوكهم فى الأيام الأخيرة .

واعتذرت لعم محمود صاحب البوفية . . فالرجل كان وما يزال مهذبا . وإذا طالبنى بفلوسه كان فى غاية الخجل . . فليس صحيحا أنه كان وقحا جريئا . . وليس صحيحا أنه فعل ذلك لما علم أننى سقطت فى انتخابات الاتحاد .

واعتذرت للأستاذ « . . . . . » . . فلم يكن يغمز ويهمز ويلمز . . والآية القرانية التى قالها صحيحة فى كل زمان ومكان وتنطبق على كل إنسان فقد قال الأستاذ : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » ! .

أو بعبارة أخرى : صاحب بالين كذاب . . أى إما العلم وإما السياسة . . فأنت لا تحب اثنين فى وقت واحد . . وأنت لا تخدم سيدين معا . .

وذهبت لأمى أقول لها : اعطنى رجلك أبوسها . .

وصرخت أمى تقول : حرام عليك يا ابنى تضاعف عذابى وذنوبى ! .

قلت : والله العظيم إذا لم تعطنى جزمتك فسوف ألقى بنفسى من النافذة . . أنا غلطت فى حقك .

فقالت : أبوس أنا جزمتك يا ابنى . . حرام عليك . . الله لا يسيئك ! .

وأمسكت قلما وكتبت على خدى الأيمن : جزمة . .

وطلبت منها أن تبوس الجزمة ، بينما قبلت قدميها معتذرا : يا أمى أنا عندى إحساس أنك تحبين أخى الأكبر أكثر . . أنا غلطان يا أمى . . أعصابى . . اعذرينى . . دعواتك يا أمى ! .

لقد كان الطبيب بقراط حكيما عظيما . فهو أول من تنبه إلى أن الأطعمة لها أثر السحر فى حياتنا . . أى أن المعدة هى بيت الداء والدواء . وكان بقراط يضع فى جيبه الأيمن بعض السكر وفى جيبه الأيسر بعض الملح . . فإذا وجد إنسانا قرفانا أعطاه السكر . . وإذا وجده مصهللا أعطاه الملح . . إنه يريد أن يكون الناس فى حالة من اعتدال المزاج والسلوك . . هذا الاعتدال يبدأ من المعدة وفى المعدة ! .

فهل لأننى لا أكف عن شرب القهوة السادة ؟ . هل لأننا فى المدن لا نشرب إلا القهوة مُرة الطعم . . فكانت حياتنا عصبية مريرة . . وكانت أفكارنا فى لون القهوة وطعمها ؟! .

هل نحن لا نشعر بالسبب الحقيقى لليأس والقرف والتشاؤم؟ .

هل غلب على أفكارنا الخيال والوهم والاستغراق فى المستقبل ونسيان الحاضر والندم على الماضى ؟ . هل سبب ذلك أننا نشرب القهوة ونقلب فى الفنجان نتطلع إلى قارئة الفنجان وإلى كهنة فى السياسة وفى الدين ؟! .

شطحات . . وشطحات؟ ! . . ربما .

سأحاول النوم . فكل مرض علاجه النوم . . وكل نوم ليس عميقا هو أرق متقطع . .

ولو عرف الحكام كيف ينامون بعمق ، لنام الناس أيضا بعمق . . ولكن أرق الحكام يصبح قلقا عندنا . . وصداع الحكام يتحول إلى تمزق بيننا . ومرارة الحكام تتحول إلى وحل فى أرضنا وفراشنا .

ولست حاكما لأحد . . وإنما حاكم لجسمى هذا . . والصداع الذى فى رأسى ليس إلا صدى احتجاجات وصرخات بقية أعضائى ضد عقلى . . ضد طغيانه على بقية الأعضاء ضد حكم العضو الفرد ! .

يا بخت من عاش
على حب جديد !

أختى فى الله . .

أحاول أن أجعل أفكارى مثل سبحة . . أربطها معا . . وأقدمها لك . . أو أجعلها عقد ياسمين ألفه حول عنقك . . حول ذراعك . . وأحيانا أجدنى أجرد هذا الخيط الرفيع من حبات اللؤلؤ أو حبات الياسمين وألفه حول أصبعى . . وأتخيل أصبعى هذه عنقا لأى أحد أريد أن أخنقه . . أن أعلقه وأشنقه . . ولم أجد أحدا يستحق هذا الشنق إلا أفكارى أنا . . . فهى ولدت لتموت . وأنا قاتلها . . أنا الذى أخرجها من رأسى وآكلها . . والشعر القديم يقول : والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله . . أو كما نقول نحن : القطة تأكل أولادها . . وكذلك بعض النمور . . إذ انفرد بصغاره فإنه يأكلها . . ولذلك كانت أنثى النمر أشرس الكائنات عندما تضع صغارها . .

وهذه المعانى تدل على الفوضى والاضطراب واليأس والغيظ فى داخلى . . إننى مثل فرن قد امتلأ بأرغفة الخبز . . وتطل من الفرن ألسنة تريد أن تلتهم الخباز والأرغفة من بعده . . فكأننى أخبز من أجل أن يكون كل شىء نوعا من الفحم . . لماذا ؟ .

إن العملات الورقية التى أطبعها لا يستخدمها أحد . . أنا الذى رسمتها . . أنا الذى طبعتها أنا الذى وقعت عليها بإمضائى . . و لكن أحدًا لا يعترف بها . . إننى مثل أهل الكهف عندما صحوا من نومهم بعد ٣٠٩ سنوات فاكتشفوا أن أموالهم لم تعد مستعملة . .

ونحن أمام نوعين من الكهوف :

كهوف أهل الكهف القديمة . .

وكهوف سكان الكواكب الأخرى فى المستقبل . .

فالإنسان عندما يصعد إلى القمر سوف يعيش تحت قشرة القمر ، خوفا من أشعة الشمس ، ومن الأشعة الكونية . . فسكان الكهوف هم الإنسان بعد مائة وبعد ألف من السنين . .

وأحيانا أجد العملات التى فى يدى هى عملات الكهف القديم . . وأحيانا هى عملات كهف المستقبل . وفى الحالتين ليس لها مقابل فى السوق . . لا أستطيع أن أشترى بها شيئا . ولذلك أرى أن أموت بها أو أموت عليها أو أجعلها قماشا حريريا وألفها حولى مثل شرنقة دودة القز وأموت فيها أنعم وأرق ميتة . لماذا ؟ لأن أفكارى لم تظهر فى وقتها أو فى مكانها . . تأخرت جدا أو تقدمت جدا . . فالمسافة بينى وبين الناس طويلة . . إما أن أكون وراءهم بألف كيلو أو آتى أمامهم بألف سنة .

غريب أنا ؟ نعم .

فهل أنت يا آمال غريبة .

هل تعرفين ما الذى كان قلمى يسبقنى إليه ؟ كنت سأناديك : يا آمالى . . لولا أننى لا أستريح إلى إضافة «ياء » الامتلاك هذه إلى أى شىء . . فأنا لا

أملك شيئا أو أحدا . ولا حتى نفسى . . صدقينى . لا فرق بينى وبين الناس الذين عليهم عفاريت . . أى الذين تتلمسهم الأرواح الشريرة . . أى الذين يشعرون بأن أحدا يضايقهم عند الحركة والتنفس والنوم . . تماما كما ينحشر أحد فى ملابسك . . فتحسين كأن صدرا يجثم على صدرك . . كأن سيقانا أخرى تلتف على سيقانك . . فى داخل بنطلونك . . فى داخل الجورب . . صدقينى فى بعض الأحيان أشعر كأننى جالس على حجر أحد . . أو أن أحدا على كتفى . . أو أحدا قد وقف على رأسه فوق رأسى . . وأننى لذلك أمشى كما يمشى البهلوان فى السيرك . . صورة غريبة ؟ نعم ! .

* * *

وإليك بعض الأفكار التى هبطت على دماغى كأنها غربان تطارد حماما . . أو كأنها خفافيش تطارد عصافير . . أو كأنها بعوض يطارد براغيث تحت كل شعرة من شعر رأسى وكلها تطن فى أذنى . . وأحيانا أشعر كأن قلبى يضخ نملا ونحلاً . . وأحيانا كأننى عفريت تخرج النار من عينيه . . ولا أكاد أتخيل صورتى هذه حتى يطير النوم من عينى . . فأنا الخائف المخيف . . وأنا الجلاد والمشنقة والضحية ، وصراخ الجماهير تطالب بواحد غيرى ! .

وإليك بعض ما يدور فى رأسى وحولها خارجا داخلاً : ولها معنى ودلالة ، فلا تمرى عليها بسرعة :

من السهل أن تسامح عدوا ، من الصعب أن تسامح صديقا ! .

وأنت غنى يسعى إليك ، وأنت فقير يهرب منك الناس ! .

* * *

صعبة جدا هذه الحياة إذا لم يكن لك فيها صديق واحد ـ لا صديقة ! .

* * *

الحظ حملنى على رأسه كثيرا وطويلا ثم ضاق بى . . فوقع منى على الأرض ـ وهذه هى سقطة الحظ ! .

* * *

إن تحتكم إلى ضميرك ، كالذى يقود سيارة ورجله على الفرامل دائما ! .

* * *

كل ما تحتاج إليه فى هذه الدنيا : الجهل والغرور والوقاحة . . وسوف يجىء النجاح من تلقاء نفسه ! .

* * *

صدقنى وراء كل رجل ناجح امرأة مندهشة لهذا الذى حدث ! .

* * *

لا يوجد سر للنجاح ، فالناجحون اعترفوا لنا بكل شىء ! .

* * *

الحب : هو تلك الفترة القصيرة جدا من عمرك بين حبك لفتاة جميلة وبين التفكير فى الزواج منها ! .

* * *

الكرامة ترف عند المرأة العاشقة ! .

* * *

الحب هو الخدعة الأبدية التى تلعبها الغريزة فى الجمع بين رجل وامرأة تحت غطاء واحد لتستمر الحياة التى نلعنها ! .

* * *

أنت أكثر مع امرأة إذا انفردت بك واحدة فقط : فإذا أنت أغضبت المحبوبة ظهرت لك الزوجة ، وإذا أنت أغضبت الزوجة ظهرت لك الأم، وإذا أغضبت الأم ظهرت لك الحماة ! .

* * *

الذى يقول إن الحب يصنع المعجزات ، لا يعرف وجع الأسنان والفقر! .

* * *

الزواج ثمن يدفعه الرجل للحب ، الحب ثمن تدفعه المرأة للزواج ! .

* * *

الموت كالزواج : لا كلمة منى ولا كلمة منها ! .

* * *

أول سنة زواج تدخل من الباب . ثانى سنة من الشباك . . ثالث سنة من الباب . . رابع سنة من بيت الجيران . . خامس سنة لا ترى الأبواب والنوافذ . . سادس سنة لا تجد سببا لكل ذلك ! .

* * *

الزواج له شعبية عظيمة لأنه يجمع أعظم عواطف وأعظم مصلحة ! .

* * *

أما بعد الظهر فذهبت لسماع محاضرة موضوعها « التكيف الدفاعى للحشرات والطيور والحيوانات » .. وفى أول المحاضرة ضايقنى جفاف الموضوع.. وتلعثم الأستاذ المحاضر .. وهى من صفات الكثير من العلماء.. فهم أول الأمر يضعون النظرية الجافة ، وبعد ذلك يضربون الأمثلة.. وبعد النظرية وشرحها وبعد ضرب الأمثلة يكون الطلبة قد ناموا.. أو خرجوا .. ولو عكس الأستاذ المحاضر الوضع ، لأنعش وامتع المستمعين.. مثلا يقول : إن التكيف معناه أن الحيوان يريد أن يتوافق أو يتمشى مع الظروف التى يعيش فيها .. لماذا ؟ لأن الحشرات والحيوانات هى أجهزة دقيقة جدا . أحكم الله صنعها . فهى لا تعيش إلا فى الظروف المناسبة تماما لها .. فإذا تغيرت الظروف كان لابد أن تجد أسلوبا آخر لتعيش .. ولذلك نجد الحيوانات والطيور تهاجر من الشمال البارد إلى الجنوب الدافئ .. هذا فى الشتاء .. أما فى الصيف فهى تهاجر من الجنوب الحار إلى الشمال المعتدل البرودة .. وهذه الهجرة هى نوع من التكيف مع الظروف لكى تعيش هى وصغارها ..

فالحشرات والطيور والحيوانات تتكيف مع التغيرات لكى تعيش..

وبعض الكائنات لا تجد نفسها قادرة على هذه الهجرة ولذلك صنعت لنفسها درعا تقيها من الخطر الذى تتعرض له .. فالسلحفاة تسكن فى درع متينة من فوق ومن تحت .. فإذا هاجمها حيوان أو طائر متوحش .. فإنها تسحب رأسها وتدخل فى هذه الدرع .. وكذلك القنفذ .. إذا استشعر الخطر ، فإنه يتكور حول نفسه .. ويصبح كرة من الشوك يتدحرج فى أى اتجاه .. ولا يستطيع حيوان أن يأكله ..

أما الأرنب فهو يهرب من الثعلب إلى جحره .. وقبل الهرب يشب الأرنب

على ساقيه ويشم رائحة العدو أو يسمع وقع أقدامه . . فإذا تأكد من ذلك راح يجرى إلى جحره . . فيكون الهرب نوعا من التكيف مع الموقف الجديد . .

وبعض الحشرات تعيش طول الوقت تحت الأرض . . تأكل وتشرب وتتنفس . . فالأرض هى التى تحميها من الخطر الدائم . .

وبعض الحشرات وكذلك الحيوان « تتلون » مع البيئة النباتية أو البيئة الترابية أو الحجرية . ويكون للفراشات أو العناكب أو الحرباء نفس اللون . . فلا يستطيع الحيوان الذى يهددها أن يميز لونها من البيئة التى تعيش فيها . .

وحيوانات المناطق الجليدية يتغير لونها مرتين فى السنة . فى الشتاء تكون بيضاء رمادية . . وفى الصيف تكون بنية مثل الأرض والأحراش .

والحيوانات التى تتربص بالحيوانات والحشرات الأخرى إذا اكتشفت ضحاياها بالصدفة . فإنها ترابط فى المنطقة . . لأنها قد عرفت أين تسكن الضحايا ، وماذا تأكل وأين تتجمع ؟ . . وبسرعة يعرف الحيوان المفترس ضحيته وينقض عليها . . كأن هذا الحيوان المفترس قد اهتدى إلى صورة فوتوغرافية لفريسته وراح ينظر إليها من حين إلى حين ليعرف ملامح الضحية : شكلها ولونها ورائحتها وصوتها . .

وبعض الحشرات والحيوانات تلسع وتفرز سما لمن يتهجم عليها من الحيوانات المفترسة . . ويكون اللسع واللدغ ، هو آخر محاولة للنجاة من الموت . .

وبعض الحيوانات تلجأ إلى الحيلة والتهويش . . فتجد الضفدعة تملأ صدرها بالهواء فيكون حجمها أكبر ، ليخيف من يعتدى عليها . .

وبعض الطيور تنشر جناحيها وتهز رقبتها وساقيها وتطلق أصواتا غليظة

لتخيف الطيور الأخرى الأكبر . . وأحيانا نجد بعض الطيور تقوم بعمل احتكاك لأجنحتها فيكون لها صوت فحيح الأفاعى ليخيف الطيور الجارحة التى تتربص بها ! .

وأحيانا نجد الطائر الذكر الواقف أمام العش حيث الأنثى والصغار يتحرك بعيدا عن العش فيتظاهر بالسقوط على الأرض ليوهم الطيور المعتدية بأنه جريح وأنه سقط فريسة سهلة . . ثم يظل يتقلب ويتقلب بعيدا عن العش . . وفجأة يطير . .

وبعض القردة تطلق أصوات الخوف والإنذار وتتجمع كلها وتتربص . .

والثعلب يتظاهر بأنه ميت ، ويطلق روائح كريهة . . حتى إذا اقترب منه الوحش الذى يريد الانقضاض عليه ، هرب من الرائحة وتركه . .

حتى الفراشات الصغيرة جدا لجأت إلى حيل بارعة ، وقد ارتسمت على أجنحتها عيون كثيرة ، هذه العيون لتضليل الطيور التى تريد افتراسها ، فتوهمها بهذه العيون ، لكى تشغلها تماما عن العيون التى فى رأسها ، وعن الرأس أيضا : وقد لا يؤدى هذا الخداع إلى نجاتها ، وإنما فقط إلى درء الخطر بعض الوقت ! .

* * *

هذا هو المعنى الظاهر لهذه المحاضرة . وهو كلام مفيد . . ولكن إذا عرفت يا آمال أن هذا الأستاذ هو واحد منا ، نحن الذين نرى حكمة الله فى كل شىء . . ونرى أن السلوك الحيوانى هو أصدق وأوضح سلوك خلقه الله . . فالحيوانات لا تكذب ولا تغش ولا تقتل إلا جائعة . . الأسد نفسه من الممكن أن يركبه طفل صغير فلا يلتفت إليه إذا كان شبعان . . وكل الحيوانات وكل

الزواحف لا تؤذى إلا إذا خافت . . أى إلا إذا توهمت أن أحدا سوف يعتدى عليها . . ولأنها لا تعرف لغتنا فهى تترجم كل حركة لا تفهمها بأنها عدوان عليها . .

ثم ما هى هذه الغريزة التى تجعل الحيوان يعيش ويدافع عن نفسه ويقاتل ويقتل . . . أو يقاوم ويهرب . الغريزة ليست إلا برنامجا دقيقا قد أودعه الله سبحانه وتعالى ، هذه الأجهزة الدقيقة المحكمة : البرغوث والفيل والنسر . . كلها كائنات دقيقة جدا حساسة جدا رائعة جدا . . كلها قد زودتها حكمة الله ببرنامج للعمل اليومى والعمل مدى الحياة .

هذه البرامج موجودة عندنا أيضا . . وقد أضاف الله إليها العقل والإرادة . . فالعقل يتصرف ويجتهد فى تطبيق هذا البرنامج وفى تعطيله وفى إصابته بالخلل أيضا . .

إذن فلابد أن يكون هناك هدف من وراء هذه المحاضرة ـ وأحب أن أقول لك إن أكثر من نصف الحاضرات من الفتيات المحجبات . . و كن يكتبن أو يسجلن كل ما قاله الأستاذ على أجهزة تسجيل . . واحدة فقط هى التى كانت تسجل ذلك صوتا وصورة . . وأنت تعرفينها جارتك سوزى . . أنا أعرف أنك لا تحبينها ، وسبب ذلك أنك لا تعرفينها . . ولم يتسع وقتك لذلك . . ولكن لو عرفت ظروفها التى تغيرت والتى فرضت عليها أن تكون فى حالة دفاع عن الجسم والنفس والاسم والوظيفة والعائلة . . إنها ليست هكذا خائفة ولا مذعورة ولا سيئة الظن بالناس . إنها الظروف القاسية عليها وعلى المرحوم زوجها وعلى أولادها اليتامى وعلى أمها المريضة . . إنها مسكينة لم تعرف بالضبط ما هو التكيف الدفاعى الذى تستطيع أن تقوم به . . كيف تختفى . . كيف تهرب إلى جحر . . كيف تتظاهر بالموت . . كيف تنفخ صدرها لتبدو

أكبر وأقوى . . كيف تطلق صفات كريهة على نفسها ليهرب منها الأولاد والبنات . . فليس صحيحا أنها تمارس القمار وليس صحيحا أنها تتفرج على الأفلام الجنسية العارية . . أبدا . . إنها من أنقى مخلوقات الله . . والله على ما أقول شهيد . . ولكنها الأساليب المختلفة التى يجب أن توهمنا بها دفاعا عن النفس والشرف . . أعذريها ! .

ويوم حاولت أن أصلح ما بينكما لم يكن سبب ذلك أننى أحبها . . وأننى . . وأننى . . وأنك . . وأننا . . أبدا ، والله على ما أقول شاهد عليم . . فقط أردت أن أعلمك ما تعلمته من الآخرين . . أن يكون لديك عذر جاهز لكل الناس . . عملا بما قاله الشعراء الحكماء :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك ، لن تلقى الذى لا تعاتبه !

أو : لك عورات وللناس أعين !

أو ما قاله حافظ إبراهيم :

لا تلم سيفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى !

أو ما قاله الشاعر :

فمن ذا الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ؟!

حتى الأنبياء اخطأوا . . والقرآن الكريم الذى نحفظه دليل على ذلك . .

فآدم عليه السلام قال عنه القرآن الكريم : . . فنسى ولم نجد له عزما . .

ونوح عليه السلام قال : إن ابنى من أهلى . .

وقال القرآن : إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم .

وقال : قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . .

وقال القرآن عن يوسف عليه السلام : وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك .

وعن موسى عليه السلام قال القرآن الكريم : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى . .

وقال عنه القرآن لأنه قتل مصريا : هذا من عمل الشيطان . .

وقال القرآن على لسان موسى : « فعلتها ، إذا وأنا من الضالين » . .

خسارة يا أخت ألا تحبى أختا فى الله . . فما أحوجنى وأحوجك وأحوجنا إلى أخوات وإخوة فى الله . . يقرأون الكتاب الكريم ويقلبون فى كتب العلم ليعرفوا البرامج الحكيمة الأبدية التى أودعها الله أجسام الحيوانات وعقل وقلب الإنسان . . فلا يتهم الحرباء بأنها متلونة ولذلك فهى منافقة . . إنها لاتنافق . . إنها تتقى وتتوقى . . إنها تخاف وتتوارى من أجل أن تعيش . . ولا أحد يتهم الضفادع بالنفخة الكاذبة والغرور والعنطزة . . إنها تتظاهر بما ليس فيها ، وهى صادقة ، لكى تعيش فقط . .

فلا أنت ظالمة ولا أنا . . و إنما نحن نحاول أن نتوافق وأن نتافهم من أجل أن نعيش ، وأن تعيش أفكارنا من بعدنا . . فنلقى ظلالا على الغد وبعد الغد . . وأفكارنا أطول عمرا منا . . وأفكار أسلافنا حية فينا . . فهم قد عاشوا فى مائنا ، نحن نريد أن نرسى قواعد هذه السنة الحميدة . . ويابخت من نام على حب جديد ، ويا بخت من خلع من حذائه كراهية قديمة . .

أستودعك الله على أعمق نوم وأهنأ حلم ، وعلى حب جديد لإنسان جديد . . لواحدة فى الله أو واحد فى الله . . والله من ورائنا ومن حولنا ومن أمامنا نعم المولى ونعم النصير . . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . .

يا ناس كلّمونا

أخى فى الله . .

يا سيدى أنا غلطانة . وغلطتى أننى مختلفة عن والدى وإخوتى . ولكن ما هى غلطتى بالضبط . . لا أعرف . فمن حق أى أحد أن يأخذنى على جنب ويقول لى : إنت عاملة فى نفسك كده ليه ؟ .

من حقه . كما أن من حقى أن أقول . وأشرح وأحاول أن أقنع . وينتهى الكلام على أن نستأنفه فيما بعد . . أو على أنه لا فائدة من الكلام . لا أحد قادر على أن يقنعنى ولا أنا قادرة . انتهى . و لكن لابد أن يكون كلام . . أما الذى يحدث فى بيتنا فيبعث على الألم . . ففى بعض الأحيان أجد زوجة البواب تقول لى : اسم الله عليك . إنت متعلمة وحلوة ، ولكنك يا بنتى لن تجدى عريسا . . إنك تطفشين كل من يقترب منك . . حرام عليك يا بنتى ! .

بالذمة أقول لهذه السيدة الطيبة ماذا ؟ .

هل أقول لها : يا خالتى أم شاهين ليس هذا كلامك . إنه كلام ماما . . إن أمى تبالغ كثيرا فى مخاوفها . . وتبالغ كثيرا فى أننى لن أجد عريسا ولن أجد بيتا آخر غير بيت والدى . . وأننى هكذا عبء على أبى وأمى وإخوتى . . هل أسألها : كيف عرفت كل هذه التفاصيل ؟ ليس معقولا أنها عندما ترانى

كل يوم أنزل من التاكسى أو من سيارة إحدى زميلاتى وعيناى على الباب . . ولا أتلفت يمينا أو شمالا . وقد غطيت معظم وجهى . . هل من المعقول أنها وهى جالسة أمام الباب وترانى دقيقة أو دقيقتين كل يوم تستطيع أن تعرف كل ذلك . إننى أستمع إليها فى أدب . . وأرد عليها بالقدر الذى يجعلها تفهم . ويجعلها فى نفس الوقت تنقل رسالة إلى أمى معناها : إننى أعرف أننى اخترت الطريق الصعب ، ولكنه المحترم الذى يرضى ربى وضميرى . وما دمت قد أرضيت ضميرى . فأنا راضية بما قدره الله لى . . وإنى لمن الصابرين . . آمنت بالله .

وفى إحدى المرات وجدت البواب يقول : يا ست فاطمة الست الكبيرة عندكم . . وقد جاءت لأن الست والدتك مريضة . وقد زاد مرضها اليوم . . وأنت عارفة السبب . . الله يخليك ويبارك فيك اسمعى كلامها . . ربنا يسعدك يا بنتى ! .

هل أنا غلطانة ؟ إن الذين يكلموننى هم بالضبط الذين لا حق لهم فى الكلام . . إن أبى يجب أن يكلمنى وأمى وإخوتى . . إنهم يعرفون من الدين والدنيا أضعاف الذى أعرفه . . لماذا لا يتكلم أبى . . لماذا لا ينادينى ويقول لى : تعالى . . اقفلى الباب وراءك . . يا بنتى أنا علمتك الصراحة والحرية واحترام الرأى . . أنا يا ابنتى لا أحب أن تتحجبى . . ولا أفهم معنى الحجاب . . إن الفضيلة هى الساتر وهى المانع وهى الحجاب . . وليس كل من كشفت وجهها قد تعثرت وتجردت من القيم الأخلاقية . . إننى لست محجبا ولكنى أرعى الله . وليست كل محجبة فاضلة . . فهناك محجبات فاسقات . . أنا أعرف ذلك . . إنهن يسئن إلى الحجاب ! .

أتمنى أن يستدعينى والدى ويقفل الباب ساعة ومائة ساعة . . يقول وأنا

أرد . أرد وهو يرد . . وليكن بعد ذلك ما يكون . لماذا لا يكلمنى . . لماذا لا يحاورنى . . لماذا يترك هذا الحق لكل الزوار . . لكل الضيوف . . لكل الأقارب . . لماذا يتحول كل الناس قضاة وأقف وحدى فى قفص الاتهام . . وليس لى حق استئناف الحكم . . لماذا ؟ لماذا يجعلوننى هكذا شاذة . . مجرمة . . إننى فى بعض الأحيان أنظر إلى نفسى فى المرآة ، أنكش شعرى . . هل لى قرون . . هل لى أنياب . . هل لى أظافر . . هل أنا بشعة إلى هذه الدرجة . . هل أنا ميكروب . . هل أنا فيروس .

وفى إحدى المرات وجدت السيدات قد انفصلن عن الرجال . . ثم دخلوا جميعا غرفة نومى . . وفجأة وجدت أمى قد نزعت عنى الحجاب . . وصرخت : هل هناك شعر أجمل من هذا ؟! حرير أسود طويل حتى الكتفين . . وشدت فستانى ومزقته . . هل هناك عنق أجمل . . أكثر استدارة . . أبنوس . . قشطة . . والعينان والشفتان . . والذراعان ؟ ! .

ثم ما هو أبشع من ذلك . . ورفعت ثوبى فتعرت ساقاى . أجمل ساقين . . هل كل ذلك تدفنه معها . . لمن خلق الله كل ذلك . . خلقه ليراه ابن الحلال فيتزوجها وتعيش معه بالحلال . . حرام عليك يا بنتى ! إن التى عندها فقط وجه جميل تقول : عندى وعندى . . والتى عندها عينان . . والتى عندها ذراعان . وأنت ربنا أعطاك كل شىء . . . فكيف تقبرين ما أعطاك الله . . كيف تعيشين كأنك كفن أبيض . . انظروا إلى غرفتها . كلها كتب وورق . لا توجد لوحة ولا صورة لا شىء إلا سجادة الصلاة وصورة هذا الشيخ هباب . . وصورة هذا الزفت . . وهل هذه مناظر يراها الإنسان عندما يصحو من النوم . . أنت بوجهك النقى وعينيك الجميلتين عندما تنهضين من نومك لا ترين إلا هذه العفاريت . . هل هذا إنسان . هذه الحواجب

الغليظة . . هذه اللحية . . هاتان العينان كلهما شر . ما الذى يعجبك فى هذا القطران وفى هذا الطين . . ثم لا تريدين منى أن أبكى كل يوم بدلا من الدموع دما . . هل تظنين أن الله راضى عنى لأننى ولدتك ، بل إنه غاضب أشد الغضب . . خلقك الله عقابا لى ، مع أنى لا أستحق هذا العقاب . لقد صليت وحججت . . وآمنت ولا أزال مؤمنة بالله أتقيه وأخاف منه وأرعاه فى كل صغيرة وكبيرة . . أستغفر الله العظيم ! .

فهل قالت أمى شيئا ؟! .

إنها فضحتنى وجعلت الناس تتفرج على ابنتها التى لم تنطق بكلمة واحدة . . هل بعد هذا الذى حدث عشرين مرة قبل ذلك . يجعل على لسانى كلمة واحدة ؟! هل أستطيع أن أرى أمى . . أنظر فى عينيها . . إن أمى جزار يبيع لحما بالكيلو . لحما أبيض . ولحما أحمر . إن أمى أرادت أن تعلمنى مبادئ التجارة . . لابد أن أعرض السلعة على الراغبين فى الشراء . . أغمز وألمز وأهمز وأشير بأصابعى إلى شعرى وإلى عنقى . و أتمايل وأتكسر لكى ألفت العيون إلى قوامى وخصرى ولا أعرف كيف أركز على ساقى !! .

ولم يكن من عادتى أن أنظر إلى زميلاتى فى الجامعة . ولكن بعد هذه العروض بالإكراه فى بيتنا ، بدأت ألاحظ ما الذى تفعله الزميلات ليعرضن جمالهن ويكذبن على الزبون ، حتى يطب ضحية لهن . . وقد عرفت زميلات بارعات فى هذه الاستعراضات . ولكن لاحظت أن الزملاء لا يحترمون التى تتبذل وتعرض وتبالغ وتدعو وتحرض ثم تتحفز . . أى التى تنصب شركا بعينيها وشفتيها ونهديها ومشيتها . لا أعرف ما اسم هذا الهوان الإنسانى ؟ لا أعرف احتقارا لإنسانية الإنسان أبشع من أن تجعل المرأة نفسها مصيدة . مطبا . شركا خداعيا . يسقط فيه الرجل . فإذا سقط واكتشف الحقيقة بعد

ذلك، أيقن أنه ضحية . مخدوع . مغفل . كيف تستمر الحياة بين اثنين أحدهما استغفل الآخر . لقد سمعت زميلات يبكين دما لأنهن عرضن أنفسهن أكثر مما يجب. لأنهن «رخصن» الغالى من أجسادهن ومن قلوبهن ومن عواطفهن . . فمن أعطت يدها بسهولة . سلمت ذراعها أسهل . . ومن أعطت ذراعها أهدرت صدرها وبذلت خصرها مجانا . . وراحت . بارت . . ضاعت . ولا تنفع الدموع . لا دموعها ولا دموع أمها . ولا أعرف إن كانت زوجة أى بواب قد بكت أو لطمت خديها حزنا على شىء من ذلك! حاولت أن أشكو لوالدى تفاصيل ما حدث . تضايق فعلا . وكذلك إخوتى . ولكن لم يقل والدى شيئا . ولم يعترض على الذى فعلته أمى . وكأنهما قد اتفقا على كل شىء . هو الذى ألف وهى التى مثلت وأخرجت . وفضحتنى فى غرفتى وعلى فراشى . ونفذت إعدامى . ولكن أحدا لم يترحم على شبابى أو عقلى أو إيمانى أو شرفى . لا أحد ! .

إن المحكوم عليه بالإعدام يسألونه عادة : نفسك فى إيه ؟! يسألونه عن آخر رغباته . . إن كانت له أية رغبة بعد أن انتهى كل شىء . وما قيمة الذى يقال ويأكله ويشربه إذا كان سيموت بعد لحظات . ومع ذلك فإنهم يكلمون هذا الإنسان الميت . ويسألونه وينتظرونه حتى يقول . . وفى بعض الأحيان نجد حتى الذى سوف يموت يحاول أن يسخر من الدنيا فيقول : أريد الإفراج عنى! .

إنه المستحيل . ولكنه قاله . وضحكوا . وقد يقولون له : العب غيرها . فيقول : زجاجة شمبانيا . . أشرب الشمبانيا وأكسر الزجاجة فى دماغ المفتى!! .

أو يكتفون بقراءة حكم المحكمة ويسألونه إن كان يحب التعليق على ذلك . وقد يقول : إنه غلطان مجرم . . وإنه يستحق القتل لأنه قتل .

أى لابد من الكلام . . حتى ولو لم يكن للكلام فائدة ! حتى الله سبحانه وتعالى عندما خلق الكون قال كلاما . مع أنه سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى كلام . يكفى أنه يشاء . . يكفى أنه يريد ليكون كل شىء وفق مشيئته . . طبق إرادته . . والله سبحانه وتعالى يقول : إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن . . فيكون ! .

وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى للسيد المسيح : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين » .

يرد السيد المسيح : « إن كنت قلته فقد علمته » . والله تعالى يعلم كل شىء . . ما قال المسيح وما لم يقل . . ولكن الله يعلمنا أدب الحوار . . أدب المناقشة . . أدب أن نسأل وأ ن ننتظر الإجابة . أى لابد أن يكون كلام . . لابد ! .

والله سبحانه يريد أن يعلمنا أنه حتى لو كانت قدرتنا عظيمة . فلابد أن نقول كلاما لمن تنطبق عليه هذه القدرة . . الأب لابنه . . الأم لابنتها . . السيد لخادمه . . الحاكم للرعية . . لابد أن يكون كلام . . حوار . . هذا الحوار هو دعوة لأن نتشارك بالعقل . . بالفكر .

إلا فى بيتنا فلا أحد يقول . . لا أحد يكلمنى إلا البواب وزوجته . . وكل الضيوف . . ومع الأسف لا يقولون من أدمغتهم . . إنهم يرددون كالببغاوات ما قالته أمى . وما وافق عليه أبى . . ويكون المنظر مضحكا . . أرى أمى وهى تسمع نفسها على ألسنة ضيوفها . . وكذلك أبى . . وفى بعض الأحيان يخرج الضيوف عن النص ، فتتدخل أمى . . مثل أية «ملقنة » فى مسرح قديم تنبه الممثل إلى أنه لم يقل بالضبط ما كتبه المؤلف . . وأنا ألاحظ فى بعض الأحيان ثورة صامتة على أمى التى لا تريد من أى أحد أن يتصرف فى النص . .

ولذلك يسرف الضيوف فى الخروج على النص لأنهم لا يقلون قدرة وفهما عن المؤلف . . وأنا أسمع كل ذلك ويزداد أسفى وحزنى ! .

قلت لأمي : هل أنا رجعت سكرانه أمس ؟ .

قالت : اخرسى ـ يا قليلة الأدب . . أنا عندى بنات تعمل كده ! .

قطع لسانك مجرمة !! .

قلت : يا ماما إننى أسألك . . أنت تكلمينني كأننى فعلت ذلك . . أو فى نيتى . . ماهى غلطتى ؟ ما هى الإساءة لابى وإخوتى وأسرتى . . هل لأننى فى حالى ؟ هل لأننى لا أتكلم فى التليفون . . هل غلطتى أننى لا أتفرج على الفوازير . . هل أننى آكل قليلا . . هل غلطتى أن سلوكياتى محرجة لكل من فى البيت . . أنا لا أطلب مصروفا . . وإخوتى يطلبون . . إنى لا أطلب فساتين ، ولكن أخواتى يطلبن . . أنا لا أستقبل الضيوف ، وكل إخوتى يفعلون . . أنا أغسل ملابسى وأكويها . . وأرتب فراشى . . ما الغلط فى ذلك؟ . أنا لا أعرف من البنات إلا اللاتى يؤمن بالله ويخفن غضبه . . ما الضرر ؟ ما الخطر ؟ . أنت تجرحينى وتوجعينى . . ولا أبكى أمامك . . هل هذه إهانة لك . . هل أنا عطلت نشاط كفيك وقدميك ؟! فى استطاعتك فى أى وقت أن تضربينى بالقلم وبالشلوت . . أنت أمى تعلمينني . . والجنة تحت أقدام الأمهات . . والله يقول لنا : « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما» صدق الله العظيم . .

فتقول : آدى اللى انت شاطره فيه ! .

وأقول : بل شاطره فى دروسى . . وناجحة ومتفوقة . . هل مطلوب من طالبة أن تفعل غير ذلك . . هل مطلوب أكثر من أن أرفع رأسك ورأس

الشرف والفضيلة . . لماذا تخافين أن أبور فلا أتزوج مع أن أخواتى الأكبر سنا لم يتزوجن ولا إخوتى الذكور . . لماذا أنا بالذات يا ماما؟ .

- . . . .

- . . . .

آه لو مدت أمى ذراعا واحدة إلى الأمام . . لوجدتنى على صدرها أبكى وأستغفرها . . آه لو فعلت مرة واحدة . . فما أحوجنى إلى ذراعيها وصدرها وإلى البكاء . . ولكن أمى لها قدرة عظيمة على أن تلصق ذراعيها بجسمها ، وأن تجعل صدرها رخاما ، وعينيها زجاجا ، ولسانها كرباجا ، وأن تجعل المسافة بينى وبينها جليدًا شاسعا . . فأراها صغيرة جدا وترانى ضئيلة . . وينتهى الكلام ـ إذا كان هذا الذى قلناه كلاما ! .

قلت لوالدى : إن الرسول عليه السلام قال : ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين . . وأنا أريد أن أطالبك بوجه واحد ولسان واحد . . إننى تعيسة يا أبى . . فأنا لا أعرف كيف أرضيك . . أنت علمتنى . ونحن احترمناك . . أنت أجبتنا ونحن أجبناك . أنت وضعت لنا حدودا ، هى حدود الله . . وأنا تمسكت بها . و لما وجدت إخوتى يسخرون منى استغفرت لهم وانزويت . . ولما وجدت أمى تجعل منى مخلوقا شاذا انطويت على نفسى وأغلقت بابى ورحت أصلى . . تقول إننى لا أضحك ، بينما إخوتى يضحكون . . فعلا أنا لا أضحك ولكن سعادتى أعمق . . والسعادة بهجة بغير قهقهة . . بينما هذه القهقهة هى سعادة مزيفة . . هل رأيت أناسا يضحكون أكثر من الذين يتعاطون الخمر والحشيش . . ولكن أى ضحك هذا يا أبى ؟! من قال إن هذا هو الضحك الذى يسر الخاطر وينعش القلب ، ويخفف متاعب الحياة . .

أنت نسيت يا والدى أننى ذهبت معك إلى المسرح وكنت أضحك أكثر من كل الناس . . إننى بشر . . هل لأننى أطلت الثوب والأكمام وأخفيت جانبًا من الوجه، أكون قد حذفت كل هذه المساحات من إنسانيتى . . إننى فقط فعلت ما أمر الله به نساء الرسول ، أكرم النساء . . فقط هل هناك أعظم من القرآن . . إننى اقرأ القرآن . . هل هناك أعظم من الرسول وسيرة الرسول . . إننى أتأمل عظمته نبيا رجلا وزوجا وأبا وأخا وابنا . . ومريضا . . وهو ميت كما أننا ميتون . . قل لى يا أبى كيف كنت تذاكر القانون وأنت طالب . . وكيف أن المذاكرة أرهقتك وجعلت النوم والضحك صعبا عليك . . هل نسيت يا أبى ما كنت تقوله لنا . . إنك لم تر فتاة ولا اقترنت قبل أن تفرغ من التفوق فى الدراسة . . وأن أمى هى حبك الأول والأخير ، كما أنك حبها الأول وحبها الأخير . . فما الذى فعلته أنه غير الذى ألزمت به نفسك وزوجتك . . إننى أقرب إليك من كل إخوتى . . إننى صورة من أدبك وشرفك وفضيلتك . . إذا كان لابد أن تفرح فأنا الذى أفرحك، وإذا كان لك أن تسعد، فأنا سعادتك . . وإذا دخلت الجنة إن شاء الله ، فأنا أضيف إلى مقامك فى الجنة ملايين السنين . . فأنا إحدى حسناتك ! .

أما الذى حدث بعد ذلك فهو بالضبط ما لم أستطع أن أتحمله . . الله . . ما أعظم عقلك . . وأصدق قلبى . . لقد رأيت دموع أبى . . وكنت واثقة من ذلك . . وأما الذى حدث بعد ذلك فأعظم وأروع . . الله . . الله . . لقد وجدت أبى هو الذى انهار على صدرى كأننى أمه . . بل أمه . . احتضنته . . وأبكى وأبكى . . الله الله . . سبحان الله . . تمنيت أن يميتنى الله ، لكى أنتقل من هذه الجنة العارضة إلى الجنة الأبدية . . بل أؤكد لك أننى مت . . وأننى دخلت الجنة . . جنة الفناء فى حب أبى وصدقه وإخلاصه وحبه وحبه

وحبه لى . . لا نهاية لهذا الحب . . فما الذى قالته الدموع ؟ كثير جدا . . ما الذى قاله هذا الحضن ؟ قال كل الكلام الجميل الحكيم . . فالحمد لله كثيرًا! .

أما الذى قالته أمى عندما فتحت الباب ورأت هذا المشهد ، فأعفى نفسى من ذكره . . ولا أعتقد أننى سمعت كلمة واحدة مما قالت . . وأعتقد أن أمى حسدتنى على هذه النعمة . . حسدتنى على هذه القدرة الجبارة التى أملكها والتى استولت على أبى تماما ـ هذا ما قالته أمى . . مع أننى لا أملك إلا ما يملك . . و أننا معا مخلوقان لله . والله هو القوى . . وهو القادر على أن يؤلف بين القلوب . . وقد فعل . شكرا يا رب ! .

وكان لابد أن يتركنى أبى دون كلمة . فقد قال كل شىء . وقلت . فهو يعرف ما الذى سوف تفعله أمى بنفسها وبعد ذلك به وبأولادهما . . إنها تبكى فى غرفتها . وعندها الضغط والقلب والمصران . ولو تركها لقتلت نفسها بكاء وانهيارا . ولذلك فلابد أن يدركها . وعلى كل الإخوة أن يفعلوا ذلك . . إلا أنا . فأنا سبب كل المصائب . . وإذا تركت أمى البيت ، فاللوم على رأسى وحدى . . وإذا طلقها أبى ـ كما تقول كثيرا ـ فأنا المجرمة الحقيقية . . ويجب أن يوقفنى إخوتى عند حدى . . حتى لا أخرب هذا البيت من أجل ذوى الذقون الطويلة والعيون الجرئية تعلقت صورهم فى غرفتى ليكونوا أول ما أرى عند الصباح ، وآخر ما أرى عند النوم . هؤلاء الإرهابيون السفاحون مصاصو دماء الشباب فى كل بلاد المسلمين ـ إلى آخر ما تقوله أمى . .

أما المفاجأة التى زلزلت البيت فظهور طبيب لم يتوقعه أحد . . أنا الذى استدعيته . وجاء ولم يكن أحد يعرف أننى لم أخرج من غرفتى . فلا أحد يدق

بابى ولا أحد يدرى إن كنت نزلت أو طلعت . . فأنا على حريتى .

وسألوه : من الذى طلبك ؟ .

قال : الآنسة فاطمة ! .

قالوا : ولكن لماذا ؟ .

قال : عندها نزيف فى أنفها . . و مغمى عليها منذ ساعات ! .

وعادت أمى إلى البكاء وأبى وإخوتى . . ورأيت الذعر فى عيونهم والشحوب فى وجوههم . . والأيدى كلها متسابقة تشد الغطاء وتضع الشبشب وتغلق النافذة وتفتح زجاجات الدواء . .

والله ما أسعدنى بحبكم . . والله لا أريد أكثر من ذلك . . ولكن لماذا لا تكلموننى ؟ لماذا تهددوننى بالبواب وزوجته ؟ لماذا تفضحوننى بالضيوف . . كلمونى يرحمكم الله . . قليل من هذا العطف ، وكثير من العقل . . قليل من القبلات والأحضان وكثير من الحوار والتفاهم . . كلمونى . . كلمونا . . ناقشونا . . اسألونا . . ليس بالشتيمة ولا بالعصا . . من يدرى ربما تغيرت . . ربما غيرت رأيى . . ربما تغيرنا جميعا . . فلا يغير الرأى إلا الرأى . . ولا يقلب القلوب إلا القلوب . . ولا يثير العقول إلا العقول . . فلا يفل الحديد إلا الحديد . . ولا يقطع الماس إلا الماس . . إن الله سبحانه وتعالى قال عن الكافرين : ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم . . أقصى درجات العقوبة ألا يكون كلام . . ألا تكون مواجهة . . عين فى عين . . ويد فى يد . . وفكرة لفكرة . .

هل أنهى كلمتى إليك ؟ لابد . ولكن سوف أردد ما تعرفه . . ولكن لابد

من الكلام أنهى به الكلام . . وأنت تعرف إلى من أتوجه بهذه الأبيات. وليسامحني الله . قال الشاعر القديم :

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أعابا

وأصفح عن سباب الناس حلماً وشر الناس من يهوى السباب

ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا ! .

وردة فى طريقها !

الصداقة : جسمان وعقل واحد . .

الحب : قلبان وجسم واحد . .

ولكن الذى أشعر به مختلف تماما . . فأنا لا أعرف ، عندما أفكر فيك ، من هذا الذى يفكر . . أى عقل هذا . . أى جسم هذا . . إننى أنظر إلى يدىّ وأقلبهما . . وأتساءل أين هى هذه الخلايا التى تحبك ؟ . . كيف أن ملمس يديك مختلف عن كل شىء آخر ؟ . . كيف يحتضن كفى كفيك؟ . . من أين تجىء هذه المعانى ؟ . . ما الذى قالته خلاياى لخلاياك ؟ هذه الأصابع التى تمسك القلم . . هى التى تمسك السكين . . والطبق والفنجان . . ولا أشعر بشىء . . ولكن هذا الشعور . . هذه اليقظة . . هذه النهضة . . هذه الانتفاضة كله عندما تقترب يدى من يدك . . ولا أعرف كيف يتم ذلك . . والله يا فاطمة ، لو قطعت أنا يدى وألقيتها فى الهواء لتحولت طائرا يحط عند قدميك . . على يديك . . على خصلة من شعرك . . والله ، يا فاطمة ، كلما رأيت رواد الفضاء فى سفنهم يتقلبون ويتطايرون ويلقون بالأشياء فتظل حولهم ، أحسست أننى لو أرسلت يدى . . عينى . شفتى . . إليك لظلت فراشات تطير حولك . . تطير ولا تهبط . . تدور كالقمر حول الأرض ، وكالأرض حول الشمس . . تدور حولك . . عبيدا لك . . عشاقًا

لنورك . . أسرى . . سبايا نظرتك . . صدقينى يا فاطمة . . لو تعرفين الراحة الكبرى التى خطفتها لأننى أفكر فيك . . لا أعرف كيف حدث لى ذلك . . لا أعرف من أين جاءت هذه المعانى . .

دعينى أصف لك غرفتى . . وسامحينى إذا بالغت كثيرا فى استخدام بعض الكلمات الوهمية . . مثلا : غرفتى . . إنها الآن غرفتى . . وأنا و حدى . . وأنا وحدى لأننى أغلقت الباب . . وأنا أغلقت الباب حتى لا يدخل أحد دون إذن . .هل تريدين أن تضحكى . . لا أحد فى البيت إلا أمى . . هل تحبين أن تضحكى أكثر وأكثر . . لقد كتبت ورقة على باب الغرفة باللغة الألمانية تقول : الأستاذ مشغول . . ضع القهوة أمام الباب . . عد غدا ، فإن وجدت القهوة فى مكانها أرجو أن تضع بدلا منها قهوة ساخنة . . فإن عدت بعد غد ووجدتها فى مكانها فضع قهوة جديدة . . فإن وجدتها فافتح الباب لأننى أكون قد مت سعيدا أفكر فيك ! .

هذه العبارة شاهدتها فى أحد الأفلام الألمانية . أعجبتنى وتمنيت أن أكتبها . . أو أن أجد لها مناسبة . وقد وجدت المناسبة . لولا أن أمى لا تعرف الألمانية ، لولا أنه لا خدام عندى . . ولولا أننى لا أريد أن أموت دون أن أستأذنك . . فقد اكتشفت أننى أعيش من أجلك . . لا تحاسبينى على هذا الذى أقول . . إنها مفاجأة لك ، كما أنها مفاجأة لى . . لا تفسدى المفاجأة بالسؤال عن الذى أصابنى . . لأننى لا أسأل نفسى . . إننى أستسلم لهذا الزائر الرائع الذى أستحلفه ليلا ونهارا أن يبقى : هذا الحب . . إننى أترك القلم وأنظر إلى كفى . . إن كفى مثل ورقة شجرة . . شجرة الحب . . لقد تحول لونها الأخضر . . إلى أبيض . . وردى . . لون الحب . . لون الدنيا فى عينى من يحب . . إنه لونها . . لونك . . إن كفى تحولت إلى مرآة . . إلى

صورتك فى مرآة . . شىء عجيب كلما أبعدت كفى عن عينى . . رأيت صورتك أكبر . . ولا أزال أبعد يدى حتى أرى عينيك فى كفى . . ما هذا الجمال ما هذا الجلال . . أى نور . . أى سكون . . أى أمان . . أى سلام . . أى سعادة : عيناك . . وجهك . . وشفتاك . . وعنقك وكتفاك وذراعاك . . أنت النور . . أنت السعادة . . أنت كرامة الإنسان . . أنت رد اعتبار لكل الناس يا فاطمة . نعم كل الناس . فالناس جميعا قد أهينوا . . والناس تراب أحذية الأقوياء والغشاشين والكذابين . . ماذا يقول الناس للناس . إنهم يخجلون منك يا فاطمة . . إنهم لا يرفعون عيونهم فيك . . ولا يرفعونها عنك . . ثم يدورون حولك . .

إنهم يتحدثون عن عيد الأم . . وعن عيد الأب . . وعيد الربيع . . وعيد الطفولة . . والأعياد القومية ماذا يقولون . . إنهم يتحدثون عن «فكرة» الحب . . حب الأم وحب الأب . . وحب الوفاق العائلى . . والسلام القومى . . عيد الشجرة . . أى حب الحياة . . حياة ورقة . . زهرة . . ثمرة . . إنهم يفخرون بأن نسبة وفيات الأطفال قد نقصت ، لأن الوسائل الصحية قد انتشرت والعقاقير قد توافرت والأم قد تعلمت . . ولذلك يعيش الأطفال . . أى أنهم يحبون الحياة . . يحبون الطفل . . إنهم يتكلمون عن أنواع من الحب . . عن أنماط من الحب . . عن علاقات هى الحب . . إنهم يتحدثون عن وقف إطلاق النار . . أى منع القتل والخراب والدمار والكراهية . . إنهم يشيرون إلى السلام بين الشعوب . . أى أنهم يحبون الحياة . .

ولكن هؤلاء الذين يقدسون الصفاء والوفاء والسلام هم أيضا الذين يتحدثون عن قتل الأم لأولادها ، عن قتل الزوجة لزوجها . . عن الاغتصاب . . عن هتك العرض . . هل تعرفين يا فاطمة ما معنى ذلك؟ معناه

أن أناسا يحبون بعنف . . فيصبح العنف فى الحب كالقتل . . تماما كما يعانق واحد واحدة بعنف فتموت بين ذراعيه . . الأفاعى الكبرى تفعل ذلك . . إنها لا تنهش الفريسة . . إنها تعانقها . . تعصرها . . تسحقها . . فإذا ماتت أكلتها بعد ذلك . . ومن لا يعرف الأفاعى يخيل إليه أن هذا هو العشق . . إن هذا هو العناق حتى الموت . . فنحن فى عصر يشربون فيه الشمبانيا ثم يكسرون الأكواب . . فى عصر إذا قبل رجل امرأة فإنه يأكل شفتيها . . يشوه معالمها . . وإذا قتلها دخل معها القبر ثم اغتصبها . . هذا هو الحب المريض . . هذ العشق المجنون . .

ما المعنى فاطمة ؟ .

إنهم يريدون أن يحبوا . . ولكنهم لا يعرفون . . يريدون أن يكونوا بشرا مثلنا ، فلا يستطيعون إلا أن يكونوا وحوشا . . لماذا ؟ .

إنهم عندما نظروا إلى «كيوبيد » إلّه الحب الإغريقى وجدوه يمسك جعبة من السهام : سهام ذهب . . وسهام فضة . . السهام الذهبية يشبك بها قلبين . . والسهام الفضية يمزق بها قلبين . . غلطة الناس فى زماننا أنهم تصوروا أن هذه السهام حقيقية . . ولذلك إذا أحبوا قتلوا . . وإذا كرهوا قتلوا . . ولكن كيوبيد هذا لا وجود له إلا فى خيالنا . . ألم أقل لك إن حبنا هو رد اعتبار للإنسانية كلها . .

من قال إننى فى حاجة إلى من يعلمنى كيف أحبك ؟ . . من قال إننى فى حاجة إلى سهام من ذهب أو فضة أو من حديد ؟ . . نظراتك سهام . . كلماتك ذهب . . بل نظراتك سهام ذهبية . . وأنفاسك سحر قديم ، ولمساتك سحر حلال . . ما هذا الذى نراه تحت أقدامنا يا فاطمة . . كيف تنشق الأرض . . وكيف تخرج منها هذه الزهور . . وكيف تتحول الزهور إلى

طيور . . وكيف تصبح الطيور أوركسترا غنائيا موسيقيا . . ثم من هذا الذى يقف بين السماء والأرض قائدا لهذا الأوركسترا . . ففى أى اتجاه نمشى ، تتحول الدنيا إلى زفة . . أمشى إلى جوارك وأمسك يدى بيدى . . أخاف أن تفلتى من قبضتى . . أخاف أن أفلت أنا من قبضتى ، فأدور حولك . . وأدور بك . . وندور معا . . هل تعلمين يا فاطمة أننى معك لا أشعر بجسمى لا أشعر بوزنى . . إننى أحس أن الهواء يخترقنى والنور أيضا . . لا أعرف من أنا . . ما أنا . . هل جسمى : وجه فقط . . عينان . . شفتان . . إننى أنظر إلى ذراعى هذه فأراها شفة بالطول وذراعى الأخرى شفة . . ذراعاى شفتان . . والصوت يتدفق ضوءا منهما . . ومرة أجدنى بالطول ومرة أخرى بالعرض . . ومرات لا أجدنى . . ولكنك أنت هنا . . وهنا . . وهناك دائما . . وأن وجودك يكبر ويتضخم ويتعاظم . . وأنا لست إلا رصيدا يضاف إلى حسابك . . شىء عجيب أن أشعر بأننى أوراق مالية . . وأنت غطائى الذهبى . . أنت الأصل وأنا الصورة . . أنت الرصيد وأنا شيكات قابلة الصرف وكلها لحسابك . .

قولى يا فاطمة . . ألم تشعرى ولو مرة واحدة أن رأسك يخترق السحاب . . وأننى أحاول أن أعرف مداك . . فلا أستطيع . . وأنك بين الشرق والغرب ، وأننى أحاول أن أحيط بك فلا أستطيع . . هل الحب جعلك أقوى ، وجعلنى أضعف . . ألا ترين يا فاطمة أن الحب ضد قوانين الطبيعة . . فأنت خداع العين ، وخداع الأذن ، وخداع اللمس . . إننى ألمسك ولا أجدك ، أسمعك ولا أراك ، أراك ولا أسمعك ، أحيطك ولا أحتويك . . إن هذه الأوهام الجميلة هى الحقيقة الوحيدة فى حياتى . . حياتك . . حياتنا . كيف ؟ ! الحب لا يعرف كيف ولا يعرف متى ولماذا وأين . .

ويوم وجدنا على الطريق وردة . . جثة وردة . . وردة شهيدة . . يومها أنحنيت أنت . . سبحان الله شجرة ورد تلتقط وردة . . شمسا تلتقط شعاعا منكسرا . . سماء تعطف على إحدى النجوم . . ديوانا من الشعر يلتقط بيتا . . يومها أحسست أننى هذه الوردة . . وأننى قتلت نفسى من أجل أصابعك . . من أجل عينيك . . من أجل أن أنضم إلى حاشيتك . . أحد رعاياك . . و أنا على الأرض كنت قد آمنت بأننى تراب عاد إلى التراب . . إلى الحقيقة الأخرى المؤكدة : الموت . . ولكن لمستك . . نظرتك . . أنفاسك أعادتنى إلى الحياة . . لقد كان انحناؤك بعثا . . أترين يا فاطمة أننى مت من أجلك . . مت فيك . . وعشت من أجلك . . عشت لك . . والآن أعيش فيك : فكرة . . لمحة . . لمسة . .

لا تقولى لى يا فاطمة مرة أخرى : إن الحب طمع يصبح طموحا ! .

أبدا . . إننى لست طامعًا فى شىء ، ولا من طموحى أن أحصل على هذا الذى أطمع فيه . . ولا أن أجعل الطمع طموح حياتى . . أبدا . . فالإنسان لكى يطمع . . لابد أن يطمع «فى » شىء . . أو « فى » أحد بعيد عنه . . وأنت لست بعيدة عنى . . أنت هنا فى أعماقى . . وأنا لا أطمع فى أعماقى . . ولا أنا طامع فى نفسى . . ولا أنا أمل حياتى . . وما أبعد المسافة بين الأمل والعمل . . ولكن هذه المسافات انتهت يا فاطمة . . لا مسافات . . لا مفردات . . لا أمل ولا عمل . . فالذى بيننا لا يعرف المسافات . . ألغينا المسافات . . ودفنا الطمع ووحدنا بين الأمل والعمل . . فأنت أملى الذى هو عملى . . وعملى الذى هو أملى . . بل حرف «الواو» ليست فى مكانها الصحيح فلا «واو» بين الأمل والعمل . . لأن الأمل عمل والعمل أمل . .

ولا تقولى لى مرة أخرى : كما أن النار بداية النور ، فالحرمان بداية الحب .

أبدا يا فاطمة . فنارك الهادئة هى نورى الأبدى . . والحرمان منك هو وجودك معى . . وأنا معك محروم منك ، وأنا محروم بوجودك معى . . حولك بك . . فيك . .

انظرى إلى الذين يزرعون الأشجار . . إنهم يكسرون فروعها ثم يغرسونها فى الأرض . . من غير كسر الفروع لا أشجار جديدة . . ومن غير كسر الضلوع لا حواء من آدم . .

وفى أساطير الإغريق أن الإله الذى سرق النار من الشمس وأعطاها للإنسان ، قد عاقبته الآلهة بأن خلقوا له « حواء » تتولى تعذيبه حتى الموت . . أخطأت آلهة الإغريق يا فاطمة . . إن حواء كانت عقابًا يوم غابت عن دنيانا . . حواء هبة السماء يوم هبطت إلى أرضنا . . يومها ارتفعت أرضنا حتى صارت سماء . . و المحبون تحتهم وفوقهم سماء . . الجلال فوقهم والجمال تحتهم . . وكل نجوم السماء عيون ساهرة . . وكل زهور الأرض ابتسامات ساحرة . . ولولا حواء ما كان للنجوم لمعان ، وللزهور ألوان . . أنت لست عقابا لأحد . . وإنما غيابك هو العقاب ، لست لعنة السماء لأبناء الأرض ، وإنما رحمة السماء بأشقياء الأرض . . فإذا كانت النار هى التى سرقت من السماء ، فهذه النار عندما جاءت إلى الأرض أصبحت نورا . . بهجة . . انبهارا . . نور العين ، حنان القلب ، دم الأصابع ، بل عيون الأصابع ، ودفء الأكف ، عمق الأحضان . . وحدة الوجود . .

صدقينى إننى لا أقرأ ما أكتب . . ولا أسأل نفسى ما هذا الذى يقال . . فعلاً يقال . . كأننى لست القائل . . وإنما أنا متحدث رسمى باسم الوجود كله . . لقد وضعوا أمامى بيانا مكتوبا . . منشورا . . بلاغا . . أمسكت البيان وقرأت . . ولا أعرف حتى من الذى قرأ . . و إنما هو راديو يدار . .

ويقال فيه . . ولا أعرف من الذى يقول . . فقط أعرف لمن أقول . . وهذا هو المهم . . فالذى أسمعه منى أوافق عليه . . أؤيده . . وأصفق له . . فكل كلمة خيط حرير . . وكل الكلام كله أبيض حولك . . على قدك . . يغطيك ويكشف مفاتنك . . إنه حرير يغطى حريرا . . إنها شفافية تخفى شفافية أعظم . . أنت مصباح وكل الكلمات فراشات حولك لا تحترق . . لأن ضوءك نور هادئ كالذى وصف القرآن الكريم : « . . المصباح فى زجاجة . . الزجاجة كأنها كوكب درى . . يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » صدق الله العظيم ـ والله هو حبنا العظيم ! . فأنت طاقة القدر المفتوحة دائما . . فى عينى وفى أذنى وفى قلبى . . إننى منها إليك . . عليك . . إن هذه الطاقة تلتف حول رأسك ، كما تلتفت الهالات حول رءوس القديسين . . نور حول نور . . وكما أن فى الشمس بقعًا سوداء . . وهى ليست سوداء ولكن تفور بالنور ، فإنها تبدو للعين سوداء . . و أنت كذلك يافاطمة . . لولا أنك لا تفورين ولا تثورين . . وإنما هى صورتى انعكست على عينيك . . فى وجودك . . إنها طاقتى المشتاقة تدور وتثور فى طاقتك النورانية كما يقول المتصوفون . .

آه . . لو تعرفين ما الذى فى رأسى . . كذبت عليك الآن عندما قلت لك : رأسى . . فأنا لا أعرف أين هى . . إن كانت على كتفى أو بين جنبى . . أو بين أصابعى . . إننى مثل حوض زجاجى واقف على حيله ملىء بالكائنات التى لا أعرف لها شكلا ولا لونا . . تطارد بعضها البعض . . قلبى يطارد عقلى يطارد ذاكرتى يطارد مخاوفى يلاحق شوقى . . إليك . . غيرتى عليك . .

والآن معركتى مع الذى وراء باب الغرفة وباب البيت وتحت النافذة . .

هـل تضحكين ؟ لقـد أغـلقت الباب بالمفتاح ؟! .

تصورى مع أن الحب لا يسخر من شيء قدر سخريته من الأقفال والمفاتيح والأبواب والنوافذ والحدود والسدود والقيود والقوانين والسهام من فضة ومن ذهب !! .

وما دمت قد تحدثت عن الباب والشباك . . فمعنى ذلك أننى ابتعدت عنك ، وأننى سمعت الطرقات الرقيقة على الباب . . إنها أمى يا فاطمة تقول : الشاى يا ابنى دوختنى معاك . . رابع مرة أسخن لك الشاى . . افتح يا حبيبى ! .

آه يا فاطمة لو اتجهت بفكرك . . بقلبك من بيتك فى الزمالك ونظرت إلى بيتى فى القلعة . . هذه اللحظة . . إذن لنقلت إليك عبر الفضاء كل هذه المعانى . . حدث كثيرا أننا فكرنا فى أشياء واحدة وسمعتك تقولين وسمعتنى أقول . . حدث وسوف يحدث . . فلا مسافات ولا أصوات ولا كلمات . . إنى لا أتكلم بصوت مرتفع حين أفكر . . إننى أفكر لنفسى بنفسى فى صمت . . وكذلك الذى بيننا نفكر معا لنفهم معا ولنقول معا . . حدث كثيرا . تذكرين طبعا؟ .

أمامى صورة سوف أعطيها لك يوما . . هذه الصورة لفتاة كانت تمسك وردة ثم تركتها . . الصورة تبين أن عطر الوردة يتدلى من أصابعها شفافا كأنه شعاعات رقيقة . . العطر له لون . . عطر الوردة هو لغتها . . كلامها . . وكلامها مسموع للورود . وتراه أدق الكاميرات . . هل فهمت يا فاطمة؟ .

إننى كل يوم أجد يدك فى يدى . . أجد كلمات الأصابع ، عطر الأعصاب ، باى باى . . يقولها وجودى لوجودك . . وأؤكد لك أن لو استعرنا

هذه الكاميرا لوجدنا خيوطا رقيقة تمتد من عندك إلى عندى . . هذ الخيوط كلمات اعترضها شىء أو أحد مزقها ، فإنها بسرعة تلتئم . . ترتبط . . تشتد . . تتعانق . . وفى ذلك تأكيد لوحدة الوجود . . للغة الكون التى أو دعها الله سبحانه وتعالى قلوب الأتقياء الأصفياء . . الذين يتحدثون بنعمته وبفضله عليهم . . إن قلوبنا عناكب طيبة تفرز خيوطها ونتعلق نحن منها . . إن خيوط العناكب هى شبكات الرادار . . تبعث وتلتقط . . وهى شبكة لها موجة واحدة تصدر من قلب واحد . . تنقل الذى أقول . . والذى لا أقول . . والذى تقولين ولا تقولين . . كل ذلك هنا . . فى هذا المكان فى هذه الغرفة من هذا البيت من هذه المدينة من هذا الكون من هذا السديم . . نحن صغيران جدا . . ولكن عظمة الله تتجلى فى الكائن ذى الخلية الواحدة ، كما تتجلى فى أعظم العباقرة واضخم الأجرام السماوية . . نحن صورتان لعظمة الله . . لكمال الله . . حبنا صلوات لله لا تنتهى وامتنان لنعمته لا حد لها . .

* * *

أترك الآن . . فإنى لا أزال أسمع صرخة أمى التى خرجت وتركتنى وحدى معك وحدك فى هذا البيت . . فامتلأ بك البيت . . إن وجودك يحوطنى . . يحتوينى . . يزاحمنى . . فما حاجتى إلى أن أنهض . . أو أفتح الباب أو أشرب أو آكل . . لأن الذى يرويه الحب ويشبعه فلا شىء آخر يرويه . . يحتويه . . يحييه ؟! .

قال : فصدق رسول الله ..

حذرونى منها . وقالوا : يجب أن تحترس من التى لم تقرأ إلا كتابا واحدًا ! .

وهى لم تقرأ إلا الكتاب الأوحد : القرآن الكريم . ولذلك فهى حجة فى الشريعة الإسلامية . ومن الصعب أن أقنعها بأى اجتهاد . لأنها ترفض الاجتهاد . متشددة . . حنبلية .

ووجدت أن كل هذه صفات تغرينى بأن أقابلها . وأن أناقشها . فكل هذه الصفات مزايا لفتاة فى الرابعة والعشرين من عمرها . جميلة . فاضلة . ثم إنها على خلاف مع والدها ووالدتها . وأنا أيضا . فهما يريان أن ابنتهما قد تعلمت وتخرجت . ويجب أن تتزوج قبل أن تعمل . فالزواج عمل عظيم . ومن يدرى ربما وجدت شابا غنيا ، أغناها عن العمل . وهكذا تكون الزوجة الصالحة والأم الفاضلة . . هذا رأيهم .

ولكن ماذا يحدث لو أن هذا الشاب الغنى لم يتقدم . وتقدم لها واحد من مثل حالها . . ووافقت هى على هذا الفقير ورفضت الغنى ـ هذا ما لم يفكر فيه أبوها وأمها ـ ثم ماذا لو رفضت الزواج قبل أن تجد عملا . وقبل أن تجد نفسها فى هذا العمل . وماذا لو قررت أن تواصل الدراسة وهى تعمل أيضا ـ أبوها فعل ذلك واثنان من إخوتها ـ هذا أيضا لم يفكر فيه أبوها . . وأمها لا تحب أن تتشبه ابنتها الكبرى بوالدها ، فهو رجل ! .

ومعنى ذلك أننى موافق على أهم آرائها قبل أن ألتقى بها فى المكتبة العامة قلت : أنت بنت حلال . أريد أن ألتقى بك وأن أجلس وأن أتحدث وأن أرى ما الذى يفتح به الله علينا نحن الإثنين . .

أشرق وجهها . .

وبهذه المناسبة دعنى أصف لك آمال . . وليكن هذا اسمها . الوجه مستدير. أبيض لامع والعينان سوداوان لامعتان أيضا . . والشفتان لهما لون الدم، بلا صبغة . . باختصار وجهها درجات لونية . . أما أهم الألوان جميعا فهو هذا الصفاء والنقاء والبهاء . . سبحان الله . . ما أجملها وما أبدعها . . وما أهدأها وما أكملها . . كل ذلك لأنها قرأت كتابا واحدا وآمنت به واستمدت من خلوده هذا الجمال الأبدى . . سبحان الله . .

قلت لها : ماذا تعملين هنا ؟ .

قالت : إننى موظفة هنا بعض الوقت . . بأجر رمزى . . قلت : ولماذا؟ .

قالت : ولماذا ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لأن يأخذ أحدكم حبلا ، فيذهب فيأتى بحزمة حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه .

قلت : شيء عجيب . . أنا تصورت أن أمثالك مثاليون . . لا يمشون على الأرض . . أقدامهم على الأرض ورءوسهم فى السماء . .

قالت : وهذا صحيح فأنا بشر أمشى على الأرض ، وأنا مثالية . . فرأسى مرفوع إلى السماء . ومن قال لك إن الدين يدعو إلى الحياة الوهمية . . ففى الإسلام واقعية مهذبة . . والشريعة هى تنظيم لهذه العلاقات الإنسانية وتقنين لها . والإسلام هو الدين الوحيد الذى نظم لنا حياة الدنيا كلها . . القرآن

الكريم يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . . والرسول عليه السلام يقول : « إن أحب شيء فى هذه الدنيا : الطعام والنساء والطيب » . . فالمال جاء فى القرآن قبل البنين ، وفى الحديث جاء الطعام قبل النساء . . ولا طعام بغير مال ولا بنين بغير نساء . . فأين هذه الأوهام التى تتصورها . قمة الواقعية وقمة الفضيلة أيضا .

قلت : سؤال .

قالت : تفضل . .

قلت : وتنظرين إلى المرآة . . أو أنك لا تنظرين إليها ما دمت لا تضعين الأحمر والأبيض والأسود .

قالت : كان النبى ﷺ ينظر إلى المرآة . وكان ﷺ لا يفارقه حتى فى المسجد: السواك (فرشة الأسنان) والمشط والمرآة والمكحلة . . وكان ينصح بتنظيف الأسنان . وله فى ذلك حديث يقول : لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة . . وكان ينظف أسنانه مرتين قبل النوم . . وكان عليه السلام إذا نظر إلى وجهه الكريم فى المرآة قال : الحمد لله الذى سوى خلقى وأحسن صورتى ، وزان فىّ ماشان من غيرى . .

قلت : صدق رسول الله . . كما أنك على الموضة . . ترتدين فستانا آخر صيحات الموضة .

قالت : أبدا . . كان رسول الله ﷺ يرتدى ثوبين أصفرين . .

قلت : وفى أصبعك خاتم من البلاتين وليس من الذهب .

قالت : لا . . بل من الفضة . وكان رسول الله ﷺ يضع خاتما من الفضة . . هذا الخاتم أخذه أبو بكر ومن بعده عمر ومن بعده عثمان ثم سقط

من عثمان فى البئر . . إن أختى كانت تضيق بى فى الصباح لأننى أقف أمام المرآة رغم أننى لا أفعل شيئا . . ولكنى لا أجد سببا لأن أذكر لها ما كان يفعله رسول الله ﷺ .

قلت : تنامان فى غرفة واحدة .

قالت : كأننا . .

قلت : لم أفهم .

قالت : بل فى سرير واحد ويفصل بيننا مسند طويل من أول السرير لآخره . .

قلت : لم أفهم .

قالت : لقد نهانا الرسول ﷺ أن تضطجع النساء بعضهن مع بعض إلا إذا كانت بيننا ثياب تفصل بيننا . . وكذلك نهى الرجال أن يناموا معا إلا إذا كان بينهما فاصل ـ صدق رسول الله .

قلت : أرى معك بوكيه من الورد فما هذا ؟ فرح ؟ .

قالت : عزاء . .

قلت : تذهبين إلى العزاء ومعك باقة ورد ؟ .

قالت : بل سوف أذهب إلى المقابر . وأضع الورد على قبر خالتى ، فاليوم الأربعون لوفاتها . .

قلت : والأربعون عادة إسلامية ؟ .

قالت : لا بل عادة مصرية فرعونية أو قبطية أو أوروبية . . عادة لا ضرر من اتباعها . .

قلت : : والورد ووضعه على قبر الميت عادة أوروبية ! .

قالت : بل إسلامية . . فقد مر رسول الله ﷺ بقبر رجل شرير . فقال عليه الصلاة والسلام : إن هذا الرجل كان يأكل لحوم الناس . ثم دعا بجريدة رطبة فوضعها على قبره وقال : لعل الله أن يخفف عنه ما دامت هذه الجريدة رطبة ـ وسوف أفعل ذلك بإذن الله أضع الورد وأبلله لعل الله أن يخفف عنها . وسوف أزورها من حين إلى حين وألقى على قبرها بالورود أو جريد النخل المبلل . .

قلت : من هى خالتك هذه . . هل هى التى كنت تسخرين منها .

قالت : أنا ؟ .

قلت : من أنها كانت بخيلة . .

قالت : نعم كانت بخيلة . ولكنى لم أسخر منها . فأولادها كثيرون وتكاليف دراستهم وحياتهم باهظة . قال ﷺ : إن الولد مبخلة مجبنة . أى أن تربية الأولاد تجعل الأب حريصًا فلا ينفق ماله إلا على أولاده . . ويجعل حرصه على المال جبنا واستسلاما لأشياء كثيرة قد لا يحسبها . . فالهدف هو أن يكون قادرا على تربية أولاده . فلها العذر وعليها ألف رحمة من الله! قال ﷺ : رفع عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . فهى يرحمها الله مستكرهة على هذا البخل والخوف . صدق رسول الله . .

قلت : تحبين أن نخرج من هذا المكان ؟ .

قالت : لماذا ؟ .

قلت : الدنيا حر . .

قالت : أنت حران ؟ .

قلت : بل أنت . . فأنت ترتدين فى عز الصيف فستانا من الصوف . .

قالت : هذا صحيح . قال رسول الله ﷺ : لا تلبسوا الحرير ، فإن من لبسه فى الدنيا ، لم يلبسه فى الآخرة . صدق رسول الله . .

قلت : سبحان الله الذى أعطاك راحة البال وهدوء النفس وصفاء القلب ووضوح العقل . . أما أنا فغير ذلك تمامًا . أنت تنظرين إلى وجهى ، وأنا أقلب وجهى يمينا وشمالا . . شىء عجيب . . إننى أفعل ذلك حتى فى الصلاة . . قلق عام . . بينما أنت هدوء تام . .

قالت : كان ﷺ يتلفت يمينا وشمالا وهو يصلى . . وكان الصحابة يفعلون ذلك أيضا . بل إن بعضهم كان يشير بيده إلى الناس أن يفعلوا كذا وألا يفعلوا كذا . . حتى نزلت الآية القرآنية الكريمة تقول : «قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون» . صدق الله العظيم . فلم يعد عليه السلام يتلفت ولا الصحابة . . وقد جاء دورك ألا تفعل ! .

قلت : عندك عروسة ؟ .

قالت : : لمن ؟ .

قلت : لى . .

فضحكت وكأنها لا تصدق ما أقول . قالت : أنا لا أصلح ولا أنت . . فنحن أخوان . . رضعنا من ثدى واحدة ـ وأنت تعرف ! .

قلت : إذن واحدة مثلك . .

قالت : قال ﷺ تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة . صدق رسول الله . .

قلت : أنت لا تنسين لحظة واحدة أحاديث الرسول . . هل إذا نمت نمت تحلمين بكل ذلك . . أم أن الأنبياء والمؤمنات الفاضلات لا يعرفن النوم . .

قالت : أنت ذهبت بعيدًا جدًا . . كلنا بشر . . والأنبياء سادة البشر وعليهم كل أعباء الدعوة وكل هموم البشر . . ولابد أن يناموا . ويأرقوا ويقلقوا ويأكلوا ويموتوا . . القرآن الكريم يقول : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » . . «صدق الله العظيم» . . ينامون ولكن ليس كثيرا .

ثم راحت تضحك واحمر وجهها وظهرت الدموع فى عينيها وأحنت رأسها .

فقلت : ما الذى يضحكك ؟ .

قالت : إنها تذكرت شيئا . فقد جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن نبى الله موسى عليه السلام تساءل إن كان الله ينام أيضا ؟ فأرسل له الله سبحانه ملاكا أصابه بالأرق ثلاثة أيام . . ثم أعطاه زجاجتين فارغتين وطلب إليه إذا نام أن يجعل الزجاجتين فى يديه متلامستين . وفى كل مرة يغلبه النوم تصطدم الزجاجتان . فيصحو من نومه خوفا من أن تتحطما . وغلبه النوم نهائيا فارتطمت الزجاجتان وتحطمتا . وقال له الملاك : لو كان الله سبحانه وتعالى ينام لانهارت السموات والأرض ـ سبحانه وتعالى ـ علوا كبيرا عما يصفون .

وأخرجت زجاجة صغيرة من جيبى وقلت لها : ممكن أن أشرب ؟ .

قالت : تفضل .

قلت : هل تعرفين ما هذا ؟ .

قالت : لا . .

قلت : هذا ويسكي . .

وضحكت مرة أخرى وفى وجهها كل صفاء السماء والبهاء . . سبحان الله . .

ثم قالت : وتستأذن أن تتعاطى المنكر ؟ لقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه فى أن يزنى . فقام الصحابة يريدون قتلة لقلة أدبه وانحطاطه ـ لا مؤاخذة ـ ولكن الرسول عليه السلام سأله : أتحب الزنا لأمك؟ قال : لا والله . . فقال الرسول : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم . فهل تحبه لابنتك؟ قال : لا والله . . فقال الرسول : ولا الناس يحبونه لبناتهم . هل تحبه لأختك ؟ قال : لا والله . . فقال الرسول : ولا الناس يحبونه لأخواتهم . فهل تحبه لعمتك ؟ قال : لا والله . . فقال الرسول : ولا الناس يحبونه لعماتهم . فهل تحبه لخالتك؟ قال : لا والله . . فقال الرسول : ولا الناس يحبونه لخالاتهم . . ثم وضع الرسول يده الكريمة على كتفه وهو يقول : اللهم أغفر له ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه ! .

قلت : أنا أداعبك . فليس هذا إلا دواء . وقد حان موعده . وهل تتعاطين أنت أى دواء ؟ .

قالت : طبعا . . فقد قال رسول الله ﷺ : تداووا عباد الله . فإن الله لم يصنع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد : الهرم ـ أى الشيخوخة ـ صدق رسول الله .

قلت : أريد أن أعترف لك . . إنى أراك فريدة فى كل شىء . فليس بينك

وبين زميلاتك وجه للشبه . . أنت أقلية نادرة . هل هذه من علامات الساعة . فقد قال الرسول عليه السلام : بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ . . فأنت غريبة بين المسلمين ، والمسلمون غرباء بين شعوب الأرض أيضا .

قالت : ألف مليون مسلم لا تدل عل أننا غرباء . . ولكن الغرابة والغربة هى ما نشعر به بيننا . . ما يشعر به المسلم مع المسلم . . وما يشعر به المسلمون. إذا نظروا إلى مبادئ دينهم . . وقد حدثنا الرسول عليه الصلاة والسلام عن علامات الساعة . . أو قيام القيامة . . قال ﷺ : يأتى على الناس زمان هم ذئاب ، فمن لم يكن ذئبا أكلته الذئاب ـ أى يجىء زمان يتصور فيه الناس أن يأكلوا بعضهم بعضا . . وقال أيضا : يأتى على الناس زمان يحتار فيه الرجل بين العجز والفجور . فمن أدرك ذلك الزمان . فليختر العجز على الفجور. . وقال أيضا : يأتى على الناس زمان لا يأمرون فيه بمعروف ولا ينهون فيه عن منكر . . وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : يكون فى آخر الزمان قوم يحضرون السلطان فيحكمون بغير حكم الله .فعليهم لعنة الله . وقال عليه الصلاة والسلام : بين يدى الساعة يظهر الربا والزنا والخمر. . وقال عليه السلام: لا تأخذوا الدينار بالدينارين ، ولا الدرهم بالدرهمين ، ولا الصاع بالصاعين . فإنى أخاف عليكم الربا .

قلت : أريد أن أسألك يا آمال ، يا أختى فى الرضاعة وفى الله . . لقد مددت لك يدى . ولكنك لم تصافحينى ؟ فما هذا ؟

قالت : عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : إنى لست أصافح النساء ! .

قلت : وهل تصدقين مثل هذا الحديث ؟ إن الأحاديث التى نسبت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بمئات الألوف . . وكثير منها مدسوس

موضوع. وهذه حقيقة مؤكدة يعرفها علماء الحديث . . إذن فأنت تصدقين الأحاديث التى تدعو المسلمين إلى نبذ أبناء الديانات الأخرى ؟! .

قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : لا تبدروا اليهود ولا النصارى بالسلام. وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه . هذا الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه . . وقال ﷺ وكان آخر ما تكلم به عند موته : أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب . . واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ـ صدق رسول الله .

قلت : صدق رسول الله فى كل الذى قال ودعانا إليه . لولا أن مثل هذه الأحاديث تتنافى مع التسامح الإسلامى . وتتنافى مع ما جاء فى القرآن الكريم: لكم دينكم ولى دين . . وجادلهم بالتى هى أحسن . وقال للرسول عليه السلام : ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك . . وقال له أيضا : وإنك لعلى خلق عظيم . . بل إن الرسول يقول لنا : لو أن أحدا قال: كاذبا، أشهد أن لا إلٰه إلا الله لكان مسلما . ولحرم علينا قتله . . وقد حدث أن استأذن جماعة من الأنصار فى قتل رجل منافق . فقال الرسول عليه السلام أليس يشهد أن لا إلٰه إلا الله ؟ قالوا : بلى . . فقال أولئك الذين نهانى الله عنهم! .

ونظرت فى ساعتها . ونظرت . . ومددت يدى إلى جيبى وأخرجت سلسلة مفاتيح فضية . وقدمتها . فقالت : ما هذا ؟ .

قلت : والنبى قبل الهدية .

قالت : لا . . شكرا .

قلت : قال صلى الله عليه وسلم : تهادوا تزدادوا حبا . صدق رسول الله! .

فأخذتها وهى تقول : صدق رسول الله والشكر لله والسلام عليكم . .

قلت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . . يا أيتها الواصلة ! .

قالت : الواصلة ؟أنا ؟! .

قلت : لا تعرفين معنى هذه الكلمة ؟ لها معنى قديم عند العرب . . فكانوا يصفون شاعرة اسمها « أم حكيم » بأنها امرأة « واصلة » . . أى أنها وصلت الجمال بالكمال . .

قالت : أنا ؟ أستغفر الله واستغفره وأنت أيضا . .

قلت : أستغفر الله ! .

آخر حدود التضحية !

كل واحد يقابلنى يسأل : مالك ؟ .

أقول : لا شىء .

ـ سلامتك ؟ .

ـ الله يسلمك .

ـ مالك ؟ .

ـ لا شىء ! .

ـ . . . . . .

إذن فالضيق والحزن والقرف واضح على وجهى . وقد استعنت بمنظار أسود حتى لا يرى الناس عينى . ولا أعرف ما الذى أخفيه عن الناس . فنحن قد تناقشنا فى كل شىء فى حياتنا وحياة الناس . والخلاصة : أننا غير راضين عن أى شىء وعن أى أحد . ولا أمل فى شىء أو فى أحد . . فى هذا البلد . . والحل هو الحبل . قال تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . صدق الله العظيم .

ولكن الناس لم يعودوا يرون حلا ولا حبلا وإذا قلت لواحد . منهم جاء فى

القرآن الكريم . . فإنك تسمع صوتا مفاجئا . . هذا الصوت هو أن نافذة قد أغلقت فى وجهك حتى لا تكمل كلامك . . إذن فالناس يقفلون الأبواب والشبابيك والطرق . . إنهم يحبسونك ويعتقلون أنفسهم ، ليظلوا هنا دائما . ويبكوا دائما ويحزنوا دائما . . فهم فى حالة حداد مستمر . وكل واحد يتلقى العزاء مع أنه هو الميت ! .

أما أنا فقد قررت وانتهى .

ولا أستطيع أن أظل طول حياتى أنتظر شفاء والدتى الشفاء من عند الله . وهى مريضة من عشرين عاما . ولا أستطيع أن أبقى فى مصر حتى يتخرج إخوتى الصغار فى الجامعة . وبعد التخرج سوف يمسك كل واحد منهم جزمة قديمة ويلقى بها فى وجهى . . والمعنى أننى أنا الذى اشتريت لهم الجزم . وقد أعادوها إلى صاحبها .

ونسوا تعبى وسهرى واشتغالى ليلا نهارا وحرمانى من كل شىء من أجل أن يكملوا تعليمهم . وأخواتى البنات يجب أن أنتظرهن حتى يتخرجن ويتزوجن . . وتقفل كل واحدة باب غرفتها عليها وعلى عريسها . وأظل أنا كلبا أمام الباب . . فلماذا أنتظر العالم كله ؟ أى حق لهم عندى ؟ من الذى أوجب على كل هذه البهدلة . . ثم ما الثمن ؟ ما المكافأة ؟ إن أبى وأمى لم يلقيا امتنانا من واحد من إخوتى . . فهل أنا ألقى هذا الامتنان المفقود ؟ ولماذا يكون الأخ الأكبر هو المضحى الأكبر ! لماذا أموت لكى يعيشوا ؟ لماذا أضيِّع عمرى كله فى انتظارهم . . لماذا أبدد شبابى من أجل أن يحققوا شبابهم . . فلا أنا أب ولا أم . . وإنما أخ . . واحد من الإخوة .

أبدا . . لن أموت من أجل أى إنسان آخر . لن أنتظر أحدا . لن أضحى . فهناك حدود للتضحية وهناك حدود للتعاطف والمجاملة .

أنا رأيت واحدا من إخوتى يمد يده يسرق الفلوس من تحت مخدة أمى . . الفلوس التى تحتاج إليها لشراء الدواء . وهو يعلم لأنه طالب فى الطب . . الطبيب سرق الدواء من فم المريضة ؟! فهل هذا الطبيب سيشكرنى فى النهاية لأننى عملت ممرضا وصبيا فى دكان ومزارعا . لكى آتى لإخوتى ببعض الفلوس تساعدهم على شراء الكتب . . مغفل وحمار وجاهل ـ أقول هذا لنفسى ، إذا انتظرت يوما واحدا . انتهى . .

ولم أصل إلى هذه المعانى بسهولة . لقد تعذبت كثيرا جدا وأنا أنتزع نفسى من أحضان إخوتى . . أو على الأصح وأنا أنتزع إخوتى من أحضانى . . فأنا أحبهم هذه نقطة ضعفى . أحب إخوتى وأخواتى وأحب أمى . . والله العظيم إننى أتعذب من أجلهم . . إننى أخجل من هذا الحب . وأحتقر نفسى بسبب هذا الضعف . و أتمنى لو كنت جراحا ومددت يدى إلى جوفى وأخرجت قلبى ودسته بالجزمة . . فهذا أضعف ما فى جسمى . . إذا مرضت أمى مرضت . . إذا مرض إخوتى وأخواتى مرضت . . وأكون أول من يصحو . . أول من يدق الباب . . ويسأل : الجميلة كيف حالها اليوم ؟ .

والجميلة هى أية واحدة من أخواتى . أو أقول : الشاى جاهز يا هانم . . الفول طازة يا عروسة . . الطعمية سخنة يا أعظم دكتور فى العالم .

هل تتصور أننى بغباوتى لا أرى القرف على وجههم . . هل تتصور بغباوتى أننى لا أتنبه إلى ما يقولونه . . مثلا : ياه . . الدوشة دى كلها على شوية الفول دول . . على طعمياية؟ .

فلا أرد على هذا الكلام بأن أقول : أنا غلطان . . أنا قفزت من عز النوم وارتديت ملابسى وخرجت ومشيت نصف ساعة ذهابا وإيابا لكى أشترى أحسن فول وأحس طعمية؟ .

منتهى الغفلة والعبط والبلاهة . . كأننى خادم طردوه قبل ذلك . ولكن الخادم صعبان عليه العشرة . فهو يلقى بنفسه تحت أقدامهم . وهم ينفضونه كأنه تراب . ذباب . . لم أنتبه إلى ذلك . وإنما أنا أحب إخوتى . وهذا هو الحب وبهدلة الحب . أما الآن . فقد تغير كل شيء . ولم أعد أرى إلا تضحيتى البلهاء من أجل هؤلاء الأندال . عرايس ؟ وأنا مالى ؟ دكاترة ؟ وأنا مالى . . عاطلون باطلون ؟ وما شأنى فكل إنسان يجب أن يبحث عن مستقبله . وكل واحد يلقى من الدنيا ما يستحق . وقد نالوا من تعبى وعذابى أكثر مما يستحقون . . ثم إن أمى ليست أمى وحدى . . إنها أمهم أيضا . ويجب أن أختفى لتصحوا ضمائرهم فلست خادما لأحد . . لم أولد خادما . ولا يصح . انتهى .

وكأننى ذهبت أودع دنيا الأصدقاء والزملاء . . وكأننى أردت أن أراهم مرة واحدة ولآخرة مرة . ذهبت أستمع إلى محاضرة عنوانها « هجرة الطيور» . . لا أعرف بالضبط ما الذى سوف يقوله زميلنا فى محاضرته . . و لكن الكلام عن الهجرة عند الطيور أو الحيوانات أو الإنسان هو أنسب كلام وأحلاه . قررت أن أدخل المحاضرة متأخرا ، لكى أجلس فى آخر المدرج . والمفاجأة أن الحاضرين كان عددهم قليلا جدا . ووجدت الصف الأمامى خاليا . جلست . وجاءت زميلة وزميلة وزميل . . وكان عددنا حوالى الأربعين . لم أتابع المحاضرة من أولها . فقد كنت غير قادر على التركيز . . وأظن أنه تحدث عن أنواع الهجرات الموسمية عند الطيور . . والحيوانات . . وهجرات الشعوب والقبائل والأجناس . . وظاهرة الانتشار من أجل الطعام والتكاثر . . وخلاصة ما قيل هو : أن الهجرة سلوك طبيعى . لولا الهجرة ما امتلأت القارات . . ونحن على أبواب هجرة جديدة من كوكب الأرض إلى الكواكب الأخرى . .

ورغم تباعد الناس فى المدن والقارات ، فإن نوعا من «الأخوة » الإنسانية تجمع بين الناس . . أو تربط بينهم أو تشغلهم . . أى أن للناس اهتماما مشتركا ـ الفكرة لا بأس بها . فمهما تباعدنا ، فهناك شىء ما يربطنا . هذا الرباط هو جوهر الإنسان . فالإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده . لابد من الأسرة . المدينة . الدولة . العنصر . الدين . مفهوم . مفهوم .

وعندما تحدث عن « الحمامة المطوقة » صحوت من سرحانى الشديد . . فهناك نوع من الحمام له طوق من الريش الملون حول رقبته . هذا هو طوق الحمامة . وفى الأدب العربى كتاب من الشعر اسمه «طوق الحمامة » لابن حزم . وهو كتاب فى الحب والعشق والبعد والقرب والقبلات والأحضان . . ولابد أن يكون الشاعر الأندلسى قد اختار هذا العنوان ليقول : إن هذا هو أجمل ما فى الحمامة . . أو أنه يريد لشعره أن ينتشر مثل هذه الحمامة التى كانت مواطنة يابانية . . ثم نقلها الإنسان إلى الهند ثم إلى دول حوض البحر الأحمر. وانتقلت إلى يوغوسلافيا فى أوائل هذا القرن . . ثم إلى النمسا وإلى السويد وبريطانيا فى منتصف هذا القرن . . وهى تنتقل مع الإنسان من مكان إلى مكان لأنها تعيش على الإنسان . تعيش على الحبوب والبذور التى تتساقط فى بيته أو أمام البيت . فهى ليست طائرا بريا . . وإنما هى طائر داجن مستأنس . . فهى لم تهاجر . وأما الإنسان هو الذى قام بتهجيرها . وانتشرت بسرعة . والذكر والأنثى يتبادلان النوم على البيض حتى يفقس . الذكر ينام على البيض نهارا . والأنثى تنام ليلا .

أما هذا الطوق فله قصة . . يقال إن سيدة عجوزا بخيلة كانت عندها خادمة . وكانت تعذبها كثيرا وطويلا وعميقا مقابل مبلغ ١٨ قرشا فى السنة . . فذهبت الخادمة تشكو إلى الآلهة هذا الظلم والعذاب . وسمعها كبير الآلهة

زيوسى . وقرر أن ينتقم لها . فجعل هذا الطوق فى عنق الحمامة . وجعل للحمامة صوتا هو : ديكا ـ أو كتو . . ديكا . . أو كتو . . . ـ وديكا فى اللغة اليونانية معناها عشرة . . وأوكتو ـ معناها ثمانية . . ثم أصبح هذا اسم الحمامة فى اللغة اللاتينية . . فالحمامة المطوقة تفضح السيدة العجوز ليلا ونهارا . . عشرة وثمانية . عشرة وثمانية .

حتى الطيور تهاجر . . أو حتى الطيور يمكن تهجيرها لكى تعيش وتنتشر وتتكاثر .

وفى التوراة فى سفر أرمياء الإصحاح الثامن : أن طائر اللقلق يعرف موعد هجرته . . واليمامة والسنونو المزقزقة قد حفظت مواعيد هجرتها . . أما الإنسان فلم يعرف .

وهذا الطائر المطوق يعيش هانئا آمنا . . يستطعم حياته ويبيض وينام على البيض ويتكاثر وله قصة وله أسطورة خالدة . . فهو الذى يعلن فى رشاقة وأناقة أبشع صور العذاب والهوان . . إنها أجمل فضيحة وأرق مأساة . . وهذا الطائر فى موسم الخصاب يعلو فى الجو . . يعلو . . الذكر والأنثى . . ثم ينشر جناحيه ويترك نفسه يهبط على شكل حلزونى لترى الأنثى جمال الذكر وجمال ألوانه وريشه الطويل . . تماما كأنه أحد أبطال القفز جاء بخطيبته وطلب إليها أن تتفرج عليه وهو يقفز من فوق يدور حول نفسه قبل أن يهبط إلى الحمام ـ استعراض للرشاقة والقوة والجمال .

لابد من الهجرة . ولا أظن أن شيئا سوف يحدث لأحد بسبب سفرى . . أو سوف يبكى ويترحم على . . ولكن لن يؤدى غيابى إلى مرض أمى . فعندها أولاد كثيرون . حتى لو مت . . فسوف تبكى . ولكن الدموع لا تقتل المرأة . . فلم أسمع أن أما ماتت لأن ابنها أو أحدا من أبنائها قد مات . . ولكن

سمعت أن آباء قد ماتوا . . فالأم تبكى . والدموع تفريج للهم والغم . ولكن الآباء يكتمون حتى ينفجروا مرة واحدة . ويكون الانفجار فى القلب أو فى المخ .

فالحزن يقتل الرجل ولكنه يطيل عمر المرأة . . فى استطاعتك أن تقلب عينيك فى الذين حولك . . وأكثر الذين يذهبون إلى المقابر نساء . . فالرجال قد ماتوا . وأخواتى وإخوتى . . سوف يجدوننى قد صرت جميلا ورقيقا وكريما . . وسوف تخرج صورى من الأدراج وتتعلق على الجدران . شكرا . . لا أزال أذكر عندما سافرت أختى مع عمتها إلى السعودية . وعاشت هناك سنة . كنا نتذكر خطاباتها ليلا ونهارا . . وكل واحد يخترع عنها قصة . وكنا نضحك الضيوف على تصرفاتها . . غابت عن العين . ولم تغب عن القلب واللسان . وسوف أكون كذلك . . سوف أكون أجمل وألطف وأحب ذكرى لهم جميعا .

فلماذا لا يودعوننى كأننى جندى ذاهب إلى القتال . وأنا جندى فعلا . إن أحدا لا يمسك الجنود ويمنعهم عن أداء الواجب . . يودعونهم ويبكون عليهم . . فليبكوا . فقد أضحكتهم كثيرا . فليذكرونى فقد اعتادوا على رؤيتى . . اعتادوا على أن يجدونى ، فلماذا لا يعتادون على أننى لم أعد هناك . . إن بكاءهم كبكاء على خادم مخلص . . خادم بلا أجر . . بل خادم يدفع لهم أجرا مقابل أنهم تفضلوا عليه وتكرموا وجعلوه تحت أقدامهم - تصورا ! .

اللعنة على ضعفى . اللعنة على قلبى . والآن عرفت لماذا أرفض أن أكون زوجا . لأنى أرفض أن أكون أبا . فأنا ضعيف أمام الأطفال . فالأطفال ذل وهوان . . وقد رأيت ذل أبى وهوان أمى من أجل هؤلاء الأبناء الذين لا امتنان عندهم لأحد ! .

ألا لعنة الله على هؤلاء الفلاسفة الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «إخوان الصفاء وخلان الوفاء » اللعنة عليهم . إنهم أصحاب هذه النظرية التى تأثرت بها دون أن أدرى . عندهم نظرية تقول بضرورة « التبنى الروحى » النظرية تقول : إن كل قادر يجب أن يساعد ضعيفًا ، إن كل غنى يجب أن يساعد فقيرا . وتكون مساعدة الفقير والضعيف نوعا من الشكر لله . . ولا يصح أن يمن عليه . ولا أن يحتقره . وهناك نوعا من التبنى ، التبنى الجسدى والتبنى الروحى . . والتبنى الجسدى أن تساعد الناس ماديا ، والتبنى الروحى أن تساعدهم عقليا وروحيا على النجاة فى الدنيا والفوز فى الآخرة .

والرسول عليه السلام قال لعلى بن أبى طالب : يا على أنا وأنت أبوا هذه الأمة . . وقال عليه السلام أيضا : المؤمن أخو المؤمن من أبيه و أمه .

وقال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : فمن تبعنى فإنه منى .
وقال تعالى لنوح عليه السلام : إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح . .
وقال تعالى : فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون .

وقال السيد المسيح عليه السلام للحواريين : جئت من عند أبى وأبيكم .

وقال تعالى : ملة أبيكم إبراهيم .

وقال عليه السلام : كل نسب ينقطع يوم القيامة إلا نسبى .

وقال عليه السلام أيضا : يا بنى هاشم لا يأتينى الناس يوم القيامة بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم ، فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا .

ويقول تعالى : آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله .

صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم . ولكنى معذب يا رب . لا

أستطيع . انتهى . فاض الكيل . وتدفق الدم كله فى رأسى . فإن لم أطفش من هذا البيت وهذا البلد ، فسوف أنفجر وأموت . . وأعتقد أن والدى قد انفجر وتناثر ومات .

وليست له صورة فى بيتنا . . ولم أسمع له حكاية ولا نادرة فى السنوات السبع الماضية . . نسيه أولاده ، وانشغلت زوجته بهموم أولادها ومرضها . . فضاع الرجل الذى أوجدنا وأقام هذا البيت وله معاش وله أرض وخواتم من الماس وأساور من الذهب فى يدى والدتى تظهر فى المناسبات . . وأغلب الظن أنها سوف توزعها على بناتها قبل الزواج . . يرحمه الله أبى . . إن أمى كانت على استعداد أن تذبحه وتقطعه ألف قطعة إذا كان ذلك يطيل عمر أولادها . . إن العناكب والعقارب تفعل ذلك . . فالإناث تأكل الذكور لكى تصبح قادرة على إطعام صغارها بعد ذلك . . وبعملية حسابية تكون الطبيعة قد حذفت ذكرا . ولكنها أضافت عشرين . . انتهى دور الذكر . . انتهى دور الأنثى بظهور صغار جدد . .

إننى أيقنت تماما . . أن أمى لم تعد زوجة ولا تقوم بدور الزوجة لأبى من ثلاثين عاما . . فقد أصبحت أما بعد طفلها الأول . . وتأكدت أمومتها طفلا بعد طفل . . وهى على استعداد لأن «تخرطنى» أنا أيضا . . إذا كان ذلك يطيل عمر أولادها الآخرين . . وإلا كيف لا ترى أمى عذابى وتعبى ومرضى وتضحيتى بنفسى من أجل الأولاد . . إنها لا ترى إلا أن الأولاد يجب أن يعيشوا . . الصغار يجب أن يكبروا . . والمريض يجب أن يشفى . . الطالب يجب أن يتخرج والبنت يجب أن تتزوج . . فأين أنا من كل هؤلاء ـ أنا لست إلا «بدل فاقد» والفاقد هو أبى .

لا بأس . . آسف جدا . . إنما أريد أنقذ نفسى من مخالب حبك . . أريد

أن أنشل نفسى من أنياب عطفك . . أحببتك طول عمرى ملاكا طاهرا عطوفا ولا أطيق أن أراك عقربا يأكل زوجه . . ثم عقربا استدار ليأكل أكبر أبنائه . . وخصوصا أننى صورة من أبى . . ولذلك كان من الضرورى أن تضحى بى . آسف جدا يا أمى إننى أتركك أما حانية طيبة . أما من الذى عليه الدور . فهذا شأنك . . ولا أعتقد أن أحدا من إخوتى أو أخواتى لديه أدنى استعداد لأن يموت من أجل الآخرين . . إنهم أفضل منى كثيرا .

ولأنى لا أريد أن أضعف ولا أن أتردد . . فقد حملت حقيبة صغيرة . . وتركت خطابا مغلقا لكل واحد من إخوتى وأخواتى . ووضعت خطابا لأمى فى قلب مصحف ذهبى جميل ومعه صورتى . وتمنيت للجميع السلام معاوالوفاق معا . وإلى لقاء قريب . . فى خطابات وصور . . أو فى أى مكان آخر خارج مصر . أو يوم القيامة .

هل سمعت أنا صوت أمى تنادى . . تنادنيى . . هل تصرخ من الألم . . هل جرس التليفون كان يرن . . هل هو صوت أحد من إخوتى أو أخواتى . . أو هو صوت طفل فى الشقة المجاورة . . لم أعد أسمع . . لأننى قررت ألا أسمع وألا أتوقف . . وسوف نبقى إخوة فى الدم وفى الله . . وعندما ألقى بنفسى من فوق مثل الحمامة المطوقة وأستعرض قوتى وريشى ومالى ، سوف يعجبون بى جدا ويؤكدون لكل الناس . . أنى أخوهم . . أحب الأخوة إليهم وحينئذ لن أصدقهم ! .

غيرت رأيي
فوداعًا جميعًا !

قررت أن أواجه أمى و إخوتى وأن أناقشهم قبل سفرى إلى الخارج . كرهت أن أبدو كأننى هارب . . مع أن من حقى أن أفعل ما أشاء . وأن أختار حياتى ومستقبلى . . وأختار الأصدقاء والأعداء . . ولكنى لم أختر أمى و إخوتى . . ولكنى قررت أن أحقق ما كنت أتمناه طول عمرى . . تمنيت أن أكون «لقيطا» . . لا أب ولا أم ولا أخ . . ولا أدعى قرابة أحد . . ثم إننى لست مدينا لأحد . . قررت أن أعود إلى سالف مشاعرى . . ألا أكون لأحد أو من أحد أو إلى أحد إننى مختلف عن إخوتى . مختلف تماما . ويجب أن أظل كذلك . ولكنها أمى هى التى أرضعتنى الاتفاق والتفاهم والتضحية من أجل إخوتى . . لماذا ! .

لا أعرف . . وهى فعلت ذلك بكل إخوتى . من أجل أن تبقى الأسرة والبيت . . يعنى يجب أن نموت من أجل بقائنا معا . ومن أجل أن يبقى (حسنا) بكسر الحاء فى الدنيا ـ أى صوتنا وبقية مشاعرنا . والدنيا هى الأسرة وهى إخوتى وأخواتى وأمى ـ أما الأب فقد انتقل إلى الله . . وكان انتقاله سريعا. أخذها من قصيرها . . كأنه اكتشف فجأة أن الأسرة هى أكبر أكذوبة . . وأنها وهم نذبح من أجله كل الحقائق . معه حق . وسوف

أستأنف هذا الحق والدعوة له . . أو الإقناع به . . أو أجاهر به فقط ، دون أن أدعو إلى تفتت هذه الأسرة وكل أسرة أخرى .

فوجئ إخوتى بأننى أتيت لهم بكمية من الجاتوه . وقلت هذا هو «العشاء الأخير» أى آخر ما تناوله السيد المسيح مع تلامذته قبل أن يخونه واحد ويسلمه إلى الرومان ليعذبوه على الصليب . . وإن كنت أنا لست المسيح . . فلن يعذبنى أحد . . وإنما أنا الذى قررت أن أحاكم الجميع وأن أعلقهم على الصليب . وأعذبهم . . فقد تعذبت بهم كثيرا .

قلت لهم : إننى مسافر غدا إلى استراليا . هذا قرارى النهائى وإن لم يكن هذا القرار مفاجئا لأحد . فقد تناقشنا فيه كثيرا . وكنت أنا الذى أفتح باب المناقشة ، تمهيدا لتطبيق هذا القرار . . الذى هو قرارى . وقد وفرت عليكم حفلة الوداع . . فأنا الذى أقمت الحفلة لنفسى . . آخر لقمة عيش معًا . . إنه عيش وسكر وليس عيشا وملحا . فقد شبعنا عيشا وملحا . وإن كنت لم أر لذلك أى أثر فى علاقتنا جميعا . وسوف أكتب وأبعث بأخبارى لكم . . حتى لا تشعروا أننى هربت .

كانت أمى أولى المتكلمين . وبسرعة جاءت الدموع : كيف يا ولدى ؟ وتتركنى وحدى ؟ معقول هذا القرار المفاجئ .

قلت : ليس مفاجأة يا أمى . . فأنا فكرت فى ذلك من سنتين . . ثم إخوتى قد تركتهم ما شاء الله قادرين على ملء الفراغ . . افرضى أننى فى بعثة دراسية فى الخارج . . افرضى أننى مجند فى الجيش . . مثل مئات الألوف من شباب مصر الذين يحاربون ويدافعون من أجل الوطن .

قال أحد الإخوة : الأخ الأكبر يهرب . . يقفز من الطائرة . . من السفينة

قبل أن يصل إلى الشاطئ .

قلت : والله يا أخى أنا لست الأكبر . . أنا الذى ارتضيت بهذا المنصب الشرفى . . فأنا أكبر منك بنصف ساعة . . وهذه الدقائق الثلاثون لا تجعل منى أبا وتجعلك وأنت طويل عريض هكذا ابنا . . إن أكثر الناس ينظرون إليك ويقولون إنك الأكبر . . ومع ذلك فأنا الذى حولت الدقائق الثلاثين إلى ثلاثين شهرا أو ثلاثين عاما لكى أكون الأخ الأكبر بحق وحقيق . . على كل حال جاء دورك لتتولى دور الأخ الأكبر . وأنت قدها وقدود .

قال : لا أفهم . .

قلت : يجب أن تفهم . . تعمل وتتوظف وتكسب وتصرف على نفسك وعلى إخوتك الصغار . ألست رجلا ؟ أنا فعلت ذلك وضحيت من أجل الجميع . . وتخلفت فى دراستى سنتين . والسبب أنتم طبعا . هل أنتم فى حاجة إلى أن أحكى الحكاية . . والكارثة التى وقعتم فيها جميعا مما جلعنى لا أذهب للامتحان ؟ . . لا داعى . .

قالت إحدى الأخوات : أنا كنت متوقعة ذلك . . فأنت فى الشهور الأخيرة لم تكن هادئا . . كنت عصبيا جدا . . لا تطيق أحدا منا . . وإذا كلمك أحد شخطت فيه . . وأنا كنت أقول إن أخانا قد وجد له واحدة . . أو رحلة . . أو اتخذ قرارًا ليبعد عن الأسرة . . لم يكن عشمنا فيك .

قلت : أنت وهى وهو آخر من يتكلم . إن النظر إليكم جميعا يبعث على القرف واليأس . . أنا كرهت الأبوة والبنوة والأخوة بسببكم . . إننى تحملت الكثير جدا على أعصابى . . لكى أنظر إليكم . . وتحملت فوق ما يطيق البشر لكى أبتسم فى وجوهكم . . لكى آخذ من قوتى وأعطيكم .

قالت : من فضلك لا داعى لأن تسخر منها . . تريد أن تسافر يا أخى . لم يطلب إليك أحد أن تبقى .

قلت : أنا أعرف . . أن هذه هى النتيجة . . أنا أعرف أن هذه هى نهاية التضحية . . والعرق والتعب . . نهاية ما قدمت راضيا مرضيا . . ولكن أحب أن أقول لك ولها وله أيضا أحد الأسباب الحقيقية . . هل نسيتم «مذبحة الإسورة» . . عندما وعدت أمى بأن تبيع إسورتها لكى تعطى لكل منكم ألف جنيه . ومرضت . . هل تذكرون . . وهجمتم جميعا على ذراعها وهى المريضة تنزعون الإسورة منها . . وكان كل واحد منكم يخاف أن ينفرد بها . وأن يبيعها وأن يحصل على مبلغ أكبر من الآخرين . . هل تنسون كيف كاثرتم على الأم المريضة . ووقعتم فوقها . . تريدون أن تقطعوا يدها . . ذراعها . . أن تقتلوها . . المهم أن تحصلوا على الإسورة . . يوم أسود من تاريخ هذه الأسرة . . والأمومة والبنوة . . يوم احتقرت فيه كل ما هو إنسانى . . لأنه كذب فى كذب . .

يا ماما يا حبيبتى . . يا ست الحبايب . . يا أجمل أم . . يا أطيب يا أرق يا أعظم أم . . أين ذهبت هذه الأكاذيب يوم سقطتم فوق الأم المريضةالتى عجزت عن التنفس . . يومها دخلت دورة المياه وكدت أستخرج أحشائى بأصابعى . . قرفنا واحتقارا . . ونسيتم ما فعلت الأم فى تاريخها الطويل العريض من أجلكم . . كم مرة مرضت . . كم مرة غضبت وخرجت وعادت من أجلكم . . كم مرت ذهبت لأمها وأخواتها تتسول حقها من أجل مرايل المدرسة وكتب الجامعة . . من أجل إسورة لك . . وحلق لها . . وساعة له . . كم ألف كوب شاى . . كم ألف فنجان قهوة كم ألف صابونة غسيل . . كم مليون دمعة على المريض المزكوم . . هل تتصورون أننى أرى كل ذلك وأشعر

لحظة واحدة أن هؤلاء هم الإخوة الذي يجب أن أضحى من أجلهم . . لماذا؟ من أجل أى هدف . . إخوتى ؟ وإيه يعنى . . دمى ولحمى . . وإيه يعنى . . لقد عشنا على الكذب وشبعت كذبا . . وقد فطمت نفسى . . وأريد أن أسافر لكى ألتقى بنفسى . . فقد انشغلت كثيرا عن نفسى . . أنا على موعد غرامى مع ذاتى . . فياروح ما بعدك روح .

أمى قالت : كده يا ابنى . ما الذى غيرك . .

قلت : أولادك يا أمى .

قالت : صغار لا يعرفون . .

قلت : من هو فيهم الصغير . . إن أصغرنا عندها واحد وعشرون عاما . . هم لا يعرفون . . ولكننى أعرف يا أمى . . أنت مطالبة حتى الموت بالتضحية ولكننى لست مطالبا . . أنا لم أسعد لحظة واحدة بأننى الكبير ، و لكنك أنت يا أمى التى أصدرت قرارا بتعيينى رجل هذه الأسرة وكبيرها . . إنه مرسوم ملكى منك أنت . وكان لابد أن أطيعك يا أمى . . وأنا مستعد أن أعيش وأموت من أجلك أنت . . أما هؤلاء فقد جاء دورهم لأن يعتمدوا على أنفسهم . . يكفى أنك قدمت لهم البيت والمأكل والشرب والمصروفات . . ولكن مصاريفهم الخاصة يجب أن يحصلوا عليها بالعمل بعض الوقت أو كل الوقت .

انتهى . .

قالت : ما الذى انتهى يا ابنى ؟ .

قلت : قرارى يا أمى . .

قالت واحدة : ولماذا أنت غاضب هكذا . . صحيح أنت ضحيت . .

ومن حقك أن تفكر فى مستقبلك . و من الواجب علينا جميعا أن نعمل كما عملت أنت . معك حق . أنا شخصيا سوف أعمل .

قلت : لست غاضبا عليك . . أنا غاضب على نفسى أكثر . . وأنا إذا كنت أبدو غاضبا أمامكم ، فأنا أكثر غضبا عندما أكون وحدى . . وفى التوراة قصة غريبة للنبى نوح عليه السلام . . فبعد أن أقام السفينة على الشاطئ والناس يسخرون من رجل يبنى سفينة بعيدا جدا عن الماء . ولكنه هو الوحيد الذى يعلم بأن الطوفان سوف يجىء ويرفع السفينة وينجو هو وأولاده . . ونجا نوح وأولاده وزوجاتهم والحيوانات . . وعندما استقرت السفينة على جبل أرارات فى أرمنيا نزل نوح وأولاده وحيواناته . . وتقول التوراة : إنه نام واستغرق فى اليوم وتقلب فى نومه وتعرى وضحك منه بعض أولاده . . فلما صحا من نومه قيل له إن ابنك (حام) كان يضحك عندما رآك عاريا وراح يعريك أكثر وابنك (سام) هو الآخر ضحك . . ولكن ابنك (يافث) هو الذى غطاك . . فدعا على ابنه حام وأولاده أن يكونوا سودا . . وعلى أولاد سام أن يكونوا صفرا . . وعلى أولاد يافث أن يكونوا بيضا . . إن أولاد نوح لم يقدروا عناء والدهم ولم يمتنوا لما بذل . . فكيف يمتن أحد لأخيه . . لا أحد . . وبمنتهى الصراحة ليس عندى استعداد لأن أهدر شبابى من أجل أن تحتفظوا وتنعموا بشبابكم . . فكل واحد يفكر فى مستقبله . . وقد فكرت . وأنتم فكروا ـ آسف لا أقصد أن أنصح أحدا ! .

قالت أمى : ولكن الله يا ابنى لم يأمر بذلك . . ولا رسوله يا ابنى . . تترك أمك وتحرق قلبها عليك . . بدلا من أن تخفف عنها .

قلت : يا أمى أنت تعلمين أننى أكثر أولادك حبا لك . . وأننى مستعد أن أموت من أجلك أنت . . ولكن لا يرضيك أن أضيع هنا . . فى البيت وفى

هذا البلد . . انتهى لن يكون لى عيش هنا . . كثيرون فعلوا ذلك . . أناعندى رأى . . عندى نظرية . . وأريد أن أهاجر بها . . وأجرب حظى . . فمن يدرى ربما عدت مرة أخرى إلى مصر أحسن حالا وأكثر إسعادًا لك . . فالإنسان عليه أن يسعى ، والباقى على الله . . والنبى صلى الله عليه وسلم رأى أنه سوف تبقى الهجرة ، وأنه سوف يهاجر أناس من مكان إلى مكان . . وسوف يستأنفون حياتهم فى المكان الأنسب والأرحب . . ولولا الهجرة ما عاش الإسلام . . ولولا الذين هاجروا وانتشروا ونشروا ، ما كان فى الدنيا كلها خير . . والرسول عليه السلام هو الذى قال : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولن تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » . أى مستحيل أن تنقطع الهجرة إلا إذا أشرقت الشمس من الغرب وهذا مستحيل . . إذن فسوف يبقى الإنسان ينتقل من مكان إلى مكان ، وسوف يخطئ ويتوب عن ذنبه . . فالإنسان لأنه بشر يغلط ، ولأنه طيب فإنه يستغفر ويتوب إلى يوم القيامة ، فإن كانت هجرتى هذه خطأ ، فدعينى أجرب ذلك بنفسى ، وسوف أتوب إن اكتشفت غلطتى . . ثم قال رسول الله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ! .

قالت واحدة : كأنك غاضب علينا جميعا . . ولذلك قررت أن تعاقبنا بأن تسافر فجأة . دون أن نعرف إلى أين . وماذا ستعمل . . و متى ستعود . . معقول هذا التحول العنيف وبصورة مفاجئة . كأنك «شايل » منا جميعا . كنت أظنك أعقل وأرحم وأكرم ! .

قلت : منك أنت بالذات هذا صحيح . . كلما نظرت إليك . . إلى وجهك الهادئ الجميل ، زادت دهشتى كيف خرج هذا السم القاتل من شفتيك . . آه لو تعلمين كم أحببتك . . والله أحببتك كثيرا . . وحسدت

عليك من سوف يتزوجك . . وكنت أحلم فى يوم من الأيام أنك إذا تزوجت فسوف أستأذنك فى أن أعيش معك . . فأنا أرى فيك نفسى . . فطباعك وأفكارك أقرب إلى تفكيرى . . وكثيرا ما تختارين نفس الأشياء التى أختارها . . وكنت أقول لنفسى لو تزوجت أنا فى يوم من الأيام فسوف تكونين أعدى أعداء زوجتى . . وإذا كان لابد أن أختار بينك وبين زوجتى فسوف أختارك أنت . . وسوف أكون أسعد الناس عندما أتبنى كل أطفالك . . آه لو تعلمين ما الذى كنت أفكر فيه من أجلك . آه لو تعلمين . . والآن يجب أن أصارحك . . أنت تعرفين مدى حب خالتى لى . . وحبى لها . . هل تعلمين أن خالتى قد أودعت كل ثروتها باسمى فى البنك واشترطت ألا أتسلمها إلا عندما أبلغ السادسة والعشرين أى بعد أيام . . لا داعى لأن أقول لك كم هو المبلغ الذى أودعته . . هل تعلمين أنه كان فى نيتى أن أعطيك كل هذا المبلغ عند زواجك . . لكى تكون لى غرفة فى بيتك . . أو يكون هذا المبلغ ثمنا للشقة الجديدة التى باسمك . . والله على ما أقول شهيد . . ولكن . .

أمى تقول : ما هذا يا أبنى الذى تقوله . . كأنك قررت قبل سفرك أن تنعى الأسرة كلها . . يا ابني حرام عليك . . أنا لست قد هذا الكلام . . رحمنى . . ارحمنا جميعا . ألا ترى الدموع فى عيوننا . . أنت لم تكن كذلك . . والنبى يا ابنى حسدوك . . عين وصابتك يا ابنى . . يارب من الذى رآنا معا آخر مرة . . اللهم صلى عليك يا نبى . .

قلت : أنا أشكرك ، مع الألم الشديد . . فقد ضربتنى فى دماغى ضربة لم أفق منها حتى الآن . . وهكذا احتفظت بفلوس خالتى . . وكنت بسبيل أن أعطيها لمن لا تستحق . . أنت قد نسيت . . ولكن لابد أن أذكرك بما فعلت . . وسوف أفعل . . أما اليوم فهو يوم « تقطيع الحبال » . . هو يوم

جيلفر فى بلاد الأقزام عندما نام فربطوه بالحبال فى كل شعرة من شعرات رأسه ورموش عينيه وشاربه . . لابد أن أقطع كل ذلك لكى أستوى جالسا . . ولكى أسرع مسافرا . . أما ذلك اليوم الشنيع الذى لا أنساه لك يا أختى وأجدنى مضطرا إلى أن أشكرك . . فى ذلك اليوم اقتحمت باب مكتبى وصرخت قائلة : هيه دى الملاليم اللى أنت اشطرت عليها فى عيد ميلادى . . ملا ليم . . عشرون جنيها من مرتب واحد يتقاضى ثلاثين جنيها تسمينها ملاليم . . ولم يكن ذلك واجبا على . . وإنما هو ذوقى وحبى لك . . كل ذلك فى لحظة واحدة تبدد . . أنت وصورتك ورسمك واسمك وجسمك وحبك . . أنا ؟ بعد كل ذلك . . أنت تكسرين الباب لتقولى كلاما يكسر قلبى ويهدم عقلى . . وينسف حياتنا وما فيها من جسور وخيوط . . إننى آسف على ما كان . . كفى ما كان . . وأرجو لكم جميعا حياة أفضل ونسيانًا أسرع . . وإن كان لابد من نصيحة فهى : لا تموتوا من أجل أحد . . لا من أجل أب ولا من أجل ابن . . تجربتى أمامكم تذكروها . . والعنوها . . وانسوها . . والآن استرحت . . قد صفيت حسابى وأقفلت دفاترى . . وإذا لم يكن عندكم مانع فدعونى أعانقكم إذا أردتم أو أصافحكم فقط إذا شئتم . . أما أمى فسوف أبلل تراب شبشبها بدموعى . . وسوف أحمل بعض هذا التراب فى زجاجة معى إلى استراليا : بركة . . وذكرى . .

أرجو أن تتركونى مع أمى وحدنا . .

وقلت : لا تكسفينى يا أمى . . هذا هو شيك بالمبلغ الذى تركته خالتى . . إنه لك لعلاجك إذا مرضت . . ثم إن الأعمار والصحة بيد الله . . والسعادة أيضا ! .

المحتويات